أمّتنا العربيّة

محمد فريد أبو حديد

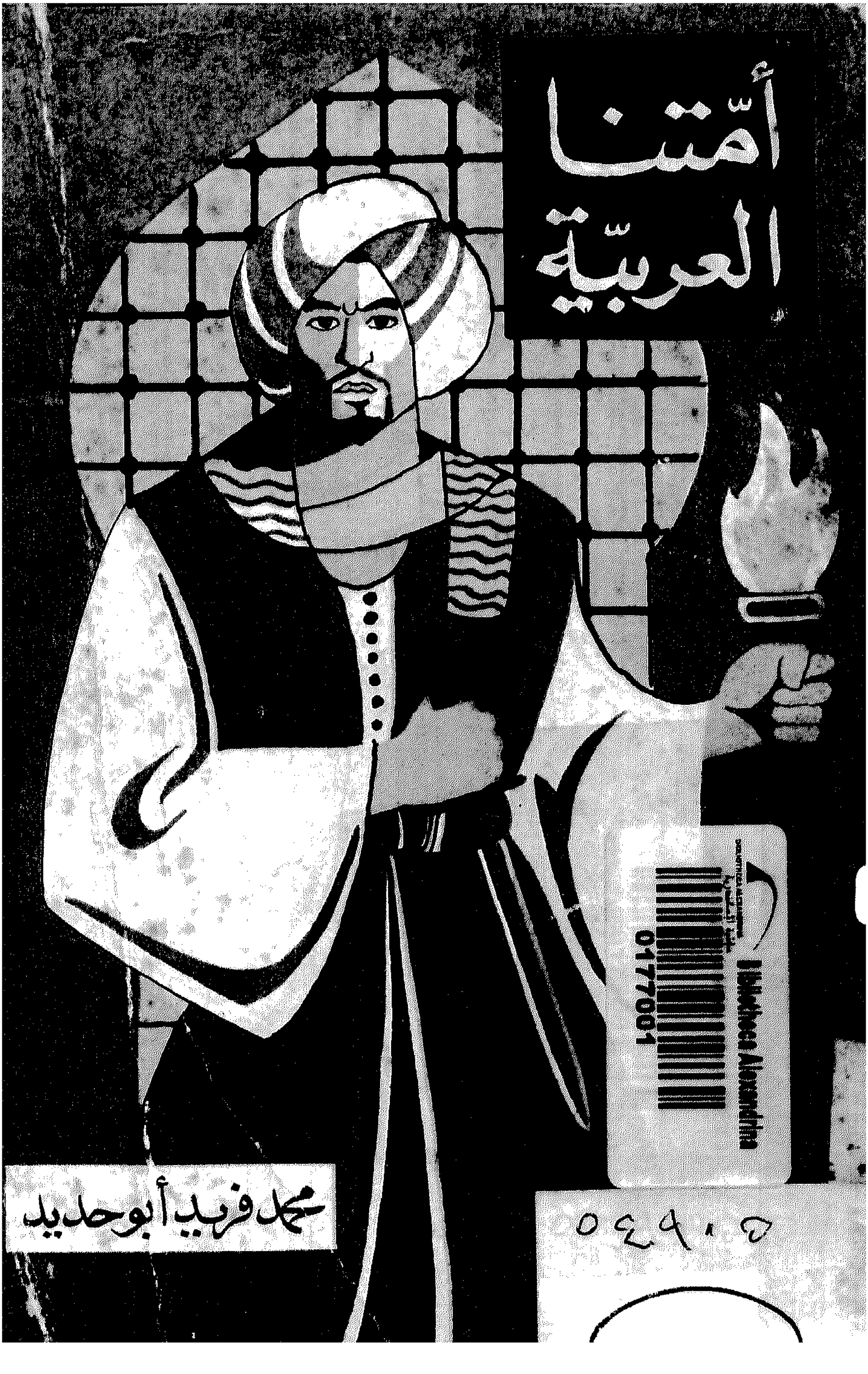

Bibliotheca Alexandrina
0177001
٥٤٩٠٥

جامعة الإسكندرية

المكتبة

أمّتنا العَربيّة

أمّتنا العربيّة

تأليف

محمّد فريد أبو حديد

دار المعارف بمصر

١٩٦١

[illegible] : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — بالقاهرة ج. ع. م.

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم هذا الكتاب إلى القراء وما هو سوى تعبير عما يدور فى نفوسنا جميعاً، وعما كان يدور فى نفوس الأجيال التى سبقتنا سواء أكان ذلك عن وعى أم عن غير وعى . فهو أشبه بحديث مجموعة من الأصدقاء أو حديث أفراد من أسرة واحدة إذ يجتمعون وتتبادر إلى أذهانهم الأسئلة التى طالما فكر فيها كل منهم وحده ، فيكون الحديث بينهم أقرب إلى أن يكون كشفاً لما فى ضمائرهم أو جلاء لما يتردد فى أفكارهم .

ولقد مر وقت طويل على أبناء الأمة العربية وهم متباعدون لا يكاد بعضهم يعرف بعضاً ، لأن أنانية حكامهم وسياسة الأجانب الذين كانوا يتحكمون فيهم وقلة وعيهم إلى حقائق أنفسهم — كانت تقيم بينهم حدوداً مصنوعة تحجب بعضهم عن بعض ، فمنذ بدأوا يتنبهون فى هذا العصر الجديد ويشعرون بأنفسهم ويتحركون لإزاحة نير حكامهم الطغاة الأنانيين ، ويجاهدون لطرد الأجانب الذين كانوا يتحكمون فيهم ، أخذوا يتعارفون كما يتعارف أبناء الأسرة الواحدة الذين يجتمعون بعد تفرق شملهم حيناً ، فكل منهم يسأل الآخرين ليتعرف أنباءهم وأحوالهم وكل منهم يدهش إذ يرى أخاه مثله فى لهفته على تعرف الأنباء، وحرصه على اجتماع الشمل ، فيتساءلون جميعاً أسئلة واحدة ويجد كل منهم

جواب صاحبه صدى لما فى نفسه ، حتى عرفوا جميعاً آخر الأمر أنهم حقًّا أبناء أسرة واحدة ، انحدروا من أصل واحد وتقلبت بهم ظروف الحياة على نمط واحد وتحملوا من هذه الظروف ما تحملوه من الآلام المتشابهة ، والتزموا فى مواجهتها بأعباء متقاربة فرضتها عليهم دوافع منبعثة من عقائد واحدة وثقافة واحدة . فإذا خلا كل منهم إلى نفسه عادت إليه الأسئلة التى كان الحديث المشترك يدور حولها فعكف كل منهم على أعماق وعيه يتساءل « من نحن ؟ ماذا كان ماضينا ؟ وماذا يخبأ الغد لنا ؟ وكيف نواجه الحياة التى نستقبلها جميعاً فى ظروف متشابهة وآمال واحدة ؟

إننا اليوم نردد فيما بيننا وبين أنفسنا هذه الأسئلة وكثيراً من أمثالها لأننا تخطينا الحدود التى كانت تفصل بيننا ، ولأننا أدركنا الأسباب التى أقامت هذه الحدود والآثار التى ترتبت عليها ، ولأننا استطعنا أن نرد كيد الأعداء الذين كانوا يريدون لنا أن نستمر على تدابرنا ، بل كانوا يودون لو أننا جعلنا بأسنا بيننا فاختلفنا وتنازعنا كى نفشل وتذهب ريحنا . ولكنا نحن أبناء هذا العصر لم نكن أول من رددنا هذه الأسئلة بيننا وبين أنفسنا ، فإن هذه الأسئلة عينها كانت تدور فى أذهان أجيال كثيرة من قبلنا ، والفرق بين ما نحدث به أنفسنا فى هذا العصر وبين ما كان آباؤنا يحدثون به أنفسهم فيما مضى أن الظروف التى تحيط بنا اليوم جعلتنا نرى بجلاء ما لم يظهر لأجدادنا فى جلاء ، وجعلتنا نجرؤ على

الاعتقاد فيما لم يجرؤ آباؤنا على الاعتقاد فيه . كانت هذه الأسئلة مثلا تدور بغير شك فى أذهان أجدادنا الذين وجدوا أنفسهم فجأة حيال جيوش بونابرت وهى تزحف على القاهرة آتية من وراء البحار بأسلحتها العجيبة ونظمها الغريبة ، ورأوا وهم فى عاصفة من العجب والدهشة أن حكامهم المتكبرين الذين كانوا منذ قليل يخطرون على خيولهم المطهمة فوق سروجهم الذهبية ، لم يستطيعوا الثبات أمام العدو الزاحف إليهم من وراء البحر بل رأوا أنهم لم يقفوا فى الدفاع موقفاً مشرفاً يستبسلون فيه إلى آخر نقطة من دمائهم كما كان ينبغى لهم ، وفروا من الميدان لا يلوون على شىء إلا أن يبحث أحدهم عن كنز مخبوء يحمله معه هارباً إلى مكان يأمن فيه على نفسه وكنزه . لقد كانت مأساة شهدها هؤلاء الأجداد عندما رأوا هؤلاء الحكام ينهزمون بغير خجل تاركين وراءهم الرعية التى كانوا يتحكمون فيها جبارين لتواجه الجيوش المنتصرة الأجنبية وحدها ؛ ولا شك أنهم تساءلوا فى دهشة ، من نحن ومن هؤلاء الغطارسة الذين يفرون هكذا من ميدان القتال ؟ من نحن الذين لا نفكر فى الهروب بل نشعر بأن واجبنا يقضى علينا بأن نواجه العدو ونحن عزل من كل سلاح ، لأن حكامنا المتكبرين أبوا فى إصرار أن يسمحوا لنا بالمشاركة فى حكم البلاد أو الدفاع عنها ؟ من نحن ومن هؤلاء ؟

ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا فى دهشتهم أن يهتدوا إلى الحقيقة إذ لم تتهيأ لهم بعد الظروف التى تمكنهم من معرفة أنفسهم عن وعى واضح .

وقد التف هؤلاء الأجداد بعد قليل حول بعض زعماء منهم ، كشفت الحوادث عن جدارتهم بالزعامة بينهم ، فقاوموا الجيوش الأجنبية المنتصرة ، وضحوا بأموالهم وبأنفسهم فى سبيل الخلاص من السيطرة الأجنبية ، واستمرت مقاومتهم الباسلة برغم ما أصابهم فيها من الكوارث مع أنهم كانوا حديثى عهد بالقتال والسياسة، لم تسبق لهم تجربة فيهما طوال قرون عدة، فكان دفاع زعماء الشعب وجماهيره منبعثاً من وحى ضمائرهم واستجابة إلى شعور غامض صادر من السليقة والطبيعة لا من الوعى بالحقيقة.

وكان لهذه المقاومة أثرها العظيم فى فشل الحملة الفرنسية، وتحقق قادتها من أنهم لن يستطيعوا البقاء فى البلاد ولن يستطيعوا الاستمرار فى حكمها . وانجلى غبار تلك المواقع والمصادمات عن ظهور زعيم كبير التفت حوله جماهير الأمة وأصبح الشعب هو القوة الحقيقية الكبرى فى البلاد بعد جلاء الجيوش الفرنسية عنها ، واستطاع ذلك الزعيم وهو السيد عمر مكرم أن يجمع أزمة القيادة الشعبية فى يديه وأن يواجه الحكام القدامى الذين سارعوا عائدين إلى البلاد لاسترجاع سلطانهم فيها بعد أن هربوا منها أمام الجيوش الأجنبية . استطاع السيد عمر مع جماهير الشعب أن يحاصروا القلعة التى تحصن فيها الباشا التركى ، وأن يرغم ذلك الباشا وجنوده على النزول منها على حكم الشعب ، وأن يبعث به هو وجنوده إلى بولاق كى يستقلوا السفن التى تعود بهم إلى بلادهم وراء البحر . غير أن ذلك الزعيم

العظيم لم يتمكن برغم انتصاره وانتصار شعبه الباهر من أن يدرك الحقيقة المنطوية وراء الموقف كله . لم يدرك أنه هو الزعيم الجدير بأن يأخذ أزمة الحكم فى يديه وأن يوجه ذلك الحكم مع شعبة لأجل شعبه ، فتردد فى اللحظة الحاسمة وانكمش عن أن يخطو الخطوة التى كان ينبغى له أن يخطوها ، وأخذ السيد عمر مكرم يفكر فى اختيار رجل آخر يمكن أن يتولى حكم البلاد ويحقق لأهلها العدالة والحرية .

لم يدرك السيد عمر أن آفة البلاد وآفة حكمها كامن فى هؤلاء الحكام الأجانب الذين تعودوا أن يتحكموا فى الشعب ، لأن هذا الشعب عربى وهم أجانب عنه ، ولا يمكنهم أن يشعروا بمسئولياتهم نحوه . فكانت غلطته الكبرى أنه اختار محمد على التركى إذ حسب أنه هو الذى يحقق للأمة أمنها وحريتها . لم يتبين عند ذلك أن شعب مصر العربى له شخصية تميزه وأن الذين يمثلون هذه الشخصية ويحققون له هذه الآمال هم أبناؤه الذين اختارهم لزعامته .

ولم يلبث السيد عمر إلا قليلا حتى بدأت الحقيقة تظهر له بعد أن أفلتت الفرصة من بين يديه ، فإن محمد على تنكر له وللشعب بعد قليل حين أغارت الجيوش الإنجليزية على رشيد ، فهب الزعيم والشعب للدفاع عن البلاد وذهب السيد عمر مكرم يعرض على الباشا (محمد على) تكوين فرق وطنية من أهالى القاهرة والريف لتسارع إلى نجدة إخوانهم فى رشيد . فأبى محمد على عليهم ذلك قائلا إن الجندية ليست من أعمال

الشعب وإن واجب الشعب لا يزيد على إمداد الجنود المحاربين بالأموال . غير أن معركة رشيد والانتصار الباهر الذى خلدته هذه المعركة للأمة العربية على أعدائها كانت معركة الشعب العربى نفسه ، وقام بها أهل رشيد وأهل القرى المجاورة لها برغم معارضة الباشا فى تجنيد شعب القاهرة .

ولم يمض على هذا الموقف غير قليل حتى بدأ محمد على يكشف القناع عن حقيقته ، فانقلب على زعيم الشعب السيد عمر مكرم وأخذ يدبر المكائد لتحطيم زعامته ، ثم انتهى الأمر إلى أنه قبض عليه ونفاه إلى دمياط ثم إلى مكة . وبدأت الحقيقة تظهر واضحة للسيد عمر مكرم وللشعب العربى وهى أن الحاكم الأجنبى لا يمكن أن يمثل شخصية الأمة ولا يمكن أن يحقق لها آمالها ، غير أن الفرصة كانت قد أفلتت وكانت الأقدار تدخر عودتها إلى جيل آخر يستطيع أن يدرك الحقيقة عن وعى صحيح فى إبانها .

وقد كان ما حدث للشعب العربى فى مصر مثالا واحداً مما حدث للشعوب العربية فى الأوطان الأخرى ، حين فاجأتهم الغارات الأجنبية الأوربية فى القرن التاسع عشر ، فكان السؤال يتردد فى أذهانهم غامضاً وهم يعجبون لحكامهم الذين يرونهم يفرون من ميدان الجهاد عند أول صدمة ، ويتركون أهل البلاد العرب ليواجهوا القوى الجبارة التى يجردها الأعداء لقتالهم وهم عزل من السلاح ، لا خبرة لهم بشئون القتال أو السياسة . هكذا كان شأن شعب الجزائر حين أغارت عليه جيوش

فرنسا فى سنة ١٨٣٠ فرأى حكامه يفرون من الميدان سراعاً ويتركونه ليواجه نيران الأعداء وحده ، فلم يقف لهؤلاء الأعداء إلا الشعب نفسه وعلى رأسه زعيمه العظيم عبد القادر الجزائرى ، وهكذا كان شأن شعب تونس فى سنة ١٨٨٠ حين أغارت فرنسا على بلاده، وشأن شعب ليبيا حين هاجمت إيطاليا بلاده فى عام ١٩١١ . وقد تكررت المأساة فى صورة أبشع فى مصر فى عام ١٨٨٢ عندما استعان خديو مصر توفيق بالإنجليز ليحموه من ثورة الشعب العربى الذى هب يطالب بحريته ويريد استرداد كرامته ، فإن هذا الحاكم الأجنبى لم يتردد فى ارتكاب جريمة الخيانة كى يتمكن من الاحتفاظ بسيادته الجوفاء على الشعب تحت ظل العدو الأجنبى المستعمر .

فالحقيقة التى كانت تكمن فى المآسى التى حلت بالشعوب العربية فى كل بقاع الوطن العربى هى أن الحكام الذين كانوا يسيطرون عليها كانوا من غير العرب ولم يكن يعنيهم من الحكم إلا أن يسيطروا وأن ينغمسوا فى حياة مترفة يتمتعون فيها بسيادة جوفاء وأبهة خرقاء ، حتى إذا جد الجد وتعرضت البلاد التى يتحكمون فيها للخطر من غزو الأعداء لم يحرصوا على شىء غير النجاة بأنفسهم واستخلاص ما يمكن استخلاصه من أموالهم وذخائرهم المكنوزة ، بل إنهم لم يترددوا فى الاحتماء بالغزاة الأعداء كى يحتفظوا بما يحرصون عليه من مظاهر السيادة والحياة المترفة .

غير أن هذه الحقيقة كانت تتراءى غامضة أمام أنظار أجدادنا قبل

أن تبدو واضحة فى عصرنا هذا بعد أن زالت الحدود المصنوعة التى أقامها الأجنبي المستعمر للتفريق بين الشعوب كى تحجب الحقيقة عنها .

ونقطة البداية لكل أمة تريد أن تحقق وجودها هى معرفة نفسها ، وصفحات التاريخ حافلة بالأمثلة التى تدل على أن الأمم تبقى مفككة مشتتة القوى ، حتى تتمكن من معرفة نفسها وجمع صفوفها وتوجيه شئون حياتها بنفسها ، وعند ذلك تستطيع أن تعرف وجهتها وتهتدى إلى طريق حياتها . فالسؤال الذى جال فى أذهان أجدادنا فى غموض حين تساءلوا « من نحن ومن هؤلاء الذين يحكموننا ويفرون أمام أعدائنا » — هو السؤال الذى يجتمع فيه اهتمامنا بما وراء ضباب القرون من حوادث تاريخنا ، والإجابة عنه هى الخطوة الأولى فى معرفتنا بأنفسنا .

وقد عمد الأعداء إلى التشكيك فى تاريخنا وتفسير حوادثه بما يلائم أهواءهم وما يساعد على إبلاغهم مآربهم من التفريق بين الشعوب العربية ، لأنهم يعلمون أن الأمة العربية قوة ضخمة وأن أبناءها إذا عرفوا حقيقة أنفسهم يكونون سداً منيعاً يحول بينهم وبين أطماعهم فى الاستغلال والسيطرة ؛ فقلما نجد مؤرخاً أجنبياً يتوخى العدل أو الاعتدال أو يلزم الحق فى كتابته عن العرب ، ولا تخلو كتابة أكثرهم اعتدالا من سوء فهم للحقائق أو من عجز عن التغلغل إلى أعماق الروح العربى .

ولهذا فنحن نشعر بالحاجة الشديدة إلى أن ننظر إلى ورائنا وأن نشمل بنظرتنا آثار خطوات أمتنا لنعرف كيف بدأت وكيف نهضت

ولنرى متى استقام لها السير ومتى تعرج بها إلى المتاهات والمجاهل ، وأن نجمع أشتات الحوادث فى نظرتنا الشاملة حتى لا نضل بين شعابها وثنياتها ومفردات تفاصيلها .

وقد دأبت طائفة من الكتاب الأجانب على ترديد بعض المزاعم الزائفة التى استخدمها الساسة حيناً من الدهر للتشكيك فى حقيقة الأمة العربية ، فقالوا إن العرب هم وحدهم العرب القدامى الذين كانوا يقيمون فى الجزيرة العربية ، فلما فتحوا البلاد الأخرى أصبحوا فيها سادة يتحكمون فى أهلها ، ثم ذهبت دولتهم وأصبحت اليوم لا تزيد على صفحة من التاريخ ولم يبق للأمة العربية وجود بين الأمم ، وأما الشعوب العربية التى تنتشر اليوم فى الأرض بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى فما هى سوى شعوب متفرقة تعاقب عليها الفاتحون بعد ذهاب الدولة العربية ، فهم أولى بأن ينسبوا إلى الدول التى تتحكم فيهم ، وكل منهم جدير بأن يلصق بالقطعة التى حددتها له الدولة التى تسيطر عليه .

ولكن هؤلاء الكتاب الأجانب لم يستطيعوا أن يزيلوا الحقيقة الحية بمزاعمهم ، فالشعوب لا تفنى شخصيتها ولا تتغير بتغير الدول ولا يمكن أن تستقر عليها صبغة يراد أن تصبغها بها المزاعم الزائفة . وقد أثبت العرب أن شخصيتهم باقية متميزة على رغم تقلب الأحوال وتعاقب الأجيال وأنهم كانوا دائماً يشعرون بسليقتهم وفى أعماق طبيعتهم بأنهم أمة حريصة على البقاء مستبسلة فى استرداد حرياتها ، فلجأ دعاة المزاعم الزائفة إلى وسيلة

أخرى للتفريق بين الشعوب العربية بإثارة النعرات القومية المفتعلة كى يقطعوا الروابط الطبيعية التى تربط بينها ، حتى تصير الأمة الواحدة مجموعة من أمم شتى . وساعد ساسة الاستغلال على إثارة هذه النعرات بعد أن مزقوا الوطن العربى إلى قطع صغرى ليزيدوا عدد الشعوب المفتتة وخلعوا عليها قوميات مصنوعة أحاطوها بحدود من الأسلاك الشائكة وأقاموا عليها حراساً لحماية خطوطها الواهنة . وكانوا يستخدمون فى هذا التمزيق طوائف من السادة المزيفين الذين سخروا أنفسهم لخدمة أعداء الأمة لقاء منافع خاصة بأنفسهم وسلطان مختلسٍ أجوف يتمتعون بمظاهره وغنائمه المسلوبة من الشعوب المقهورة . غير أن هؤلاء الساسة لم يلقوا من النجاح فى محاولاتهم ما كانوا يقدرونه لها لأن شعور العرب بشخصيتهم كان أقوى من مزاعمهم ومما بذلوه من جهودهم . فتحطمت آمالهم آخر الأمر بعد أن عاد وعى الشعوب إليها ،وأخذت حركة القومية العربية الحقيقية تحتاج دعايات الساسة الأجانب وحدودهم وجنودهم المدججة بالسلاح الواقفة لحماية الحدود المصنوعة التى أقاموها ، وأخذ السادة المزيفون الذين سخروا أنفسهم لخدمة أعداء الأمة يتساقطون واحداً بعد واحد كقطع الجروف التى تنهار أمام السيل الجارف .

وقد كان مما يبعث الأسى فى القلوب أن بعض كتاب العرب ومؤرخيهم كانوا يسايرون مزاعم الأعداء لقلة ثقتهم فى أنفسهم واغترارهم بمقدرة الأجانب الذين دأبوا على تزييف حقائق تاريخ الأمة العربية،

فكانوا يرددون ما ينقلونه عنهم فى جرأة تشبه جرأة من ينطق بما يؤمن به ، وكان لما كتبوه أثر أنكى وأفدح من أثر الكتاب والمؤرخين الأجانب ، لأنهم كانوا يتجهون بما يكتبونه إلى جماهير الأمة العربية نفسها ويقومون فيها بإذاعة ما يفتريه الكتاب الأجانب عليها .

فإذا شئنا أن نلقى نظرة شاملة على ماضى أمتنا وأن نتتبع خط سيرها كى نستطيع أن نعرف من نحن ، كان علينا أن نستقل بنظرتنا فى تاريخ أمتنا أو بقول آخر علينا أن نعيد كتابة تاريخنا بأيدينا ، مهتدين بتفكيرنا ، متوخين ما ينبغى لنا أن نتوخاه من الصدق وإيثار الحق والعدل فى كتابتنا ، فإن الصدق والحق هما الدعامتان اللتان تستطيعان البقاء وتصلحان لأن تكونا معالم الطريق .

وهذا الكتاب الذى أقدمه إلى القراء هو محاولتى لعرض ما يدور فى أذهاننا حول سؤال « من نحن » ، وهو السؤال الذى يردده أبناء الأمة العربية منذ زالت بينهم الحدود المصنوعة ، وبدأوا يلتقون ويتساءلون عن ماضيهم وحاضرهم وعما يخبأ لهم المستقبل وكيف يواجهون الحياة التى يستقبلونها على هدى من خط سير الأمة الطويل منذ بدأت السير إلى اليوم .

سؤال «من نحن ؟»

هذا سؤال ينطوى فى ضمير كل من ينتمى إلى جماعة ، فمن الطبيعى لكل فرد أن يتعرف الحقيقة التى تقوم عليها صلته بالجماعة التى ينتسب إليها . وكما أنه سؤال طبيعى بالنسبة إلى كل فرد ينتمى إلى جماعة فهو سؤال طبيعى أيضاً بالنسبة إلى كل مواطن فى وطن وإلى كل فرد من شعب أو أمة .

وللسؤال جانبان أولهما تحديد خصائص الجماعة التى ينتمى الفرد إليها وثانيهما تحديد هذه الخصائص بالنسبة إلى الفرد حتى يعرف هل يحق له أن يعد نفسه عضواً فى هذاه الجماعة .

وقلما يسأل الناس أنفسهم هذا السؤال علناً بطريقة مباشرة ، فنحن نأخذ الكثير من شئون حياتنا على أنها حقائق مسلم بها غير قابلة للتساؤل . وتحديد معنى « نحن » فى وقتنا الحاضر يختلف كثيراً عن تحديده منذ مائة عام وهو منذ مائة عام يختلف كثيراً عن تحديده فى العصور القديمة .

فلو سئل رجل يونانى كان يعيش فى أثينا فى أيام بركليس مثلا عن تحديده لمعنى « نحن » لأجاب بغير تردد أنه ينتمى إلى وطنه « أثينا » المدينة المجيدة سيدة الأوطان فى نظره . وقد طالما حارب أهل أثينا القديمة كل فكرة تدعو إلى تغيير الحدود التى تحدد جماعتهم ، وكانوا ينظرون

إلى المدن المجاورة لهم مثل « طيبة » و « إسبرطة » على أنها بلاد أجنبية خارجة عن حدود « نحن » بالنسبة إليهم . وطالما استبسل أهل « أثينا » القديمة كما استبسل أهل المدن الإغريقية الأخرى فى الدفاع عن وحداتهم المتفرقة حتى اضطروا إلى توسيع معنى « نحن » بالنسبة إليهم جميعاً فى أيام الملك فليب المقدونى والد الإسكندر فصاروا فيما بعد ينتسبون إلى دائرة أوسع تضم الإغريق جميعاً ، وما زالوا حتى ساروا جميعاً كأبناء أمة واحدة وراء الإسكندر المقدونى لفتح أقطار العالم الأخرى . ولم يكن الإغريق القدامى فى أثينا وغيرها من المدن يجهلون أنهم من عرق واحد ولا يجهلون أنهم يتكلمون بلسان واحد وأن لهم عقائد ومشارب واحدة . فحقيقتهم لم تتغير ولكن تغيرت نظرتهم إلى أنفسهم .

ونحن اليوم لو سألنا أحد أبناء اليونان المحدثين عن معنى « نحن » بالنسبة إليه لوجد سؤالنا عجيباً لأنه بديهى فى نظره ولا يحتاج إلى تحديد . فهو يونانى ينتمى إلى أمة معروفة ينتشر أبناؤها فى أقطار شتى ويعرف كل فرد منهم أنه يونانى لأنه يتكلم فى بيته باليونانية ويفكر باليونانية ويتمتع بالقراءة فى اليونانية ، وقد أشرب عادات قومه وأساليب حياتهم ويعرف أن مصيره هو مصيرهم فى الخير وفى الشر ، فهو يجد آلامهم آلامه وآمالهم آماله وهو مستعد للبذل والتضحية فى سبيل خيرهم ودفع الشر عنهم .

على أننا لو تأملنا الحقائق التى تنطوى فى حياة الأمة اليونانية الحديثة

لوجدنا أنهم لا يمثلون أبناء أثينا القدامى ولا أبناء أية مدينة يونانية قديمة أخرى تمثيلا خالصاً من الإضافات الأجنبية ، فقد خالطت دماءهم دماء من شعوب أخرى وطرأت على لغتهم تحويرات وتغييرات شتى ؛ كما تغيرت أساليب تفكيرهم وطرق حياتهم تغيراً كبيراً يجعلهم شيئاً آخر يختلف فى كثير من الخصائص عن اليونان الذين كونوا وحدتهم الأولى على يد فليب المقدونى وابنه الإسكندر الأكبر .

فى هذا المثال البسيط ما يدل على أن الأمم والشعوب تتطور مع الزمان تطوراً كبيراً فتبقى لها عناصر من الأصول القديمة وتدخل إليها إضافات من الظروف الجديدة التى تطرأ عليهم مع مرور الزمان ، فإذا قدر للأمة أن تبقى محتفظة بشخصيتها كان ذلك لأنها احتفظت بالعناصر الجوهرية من شخصيتها القديمة وهى العناصر التى تبقى وتذيب فى نفسها كل الإضافات الطارئة التى طورت شخصيتها على مر الزمن .

وقد بينا أن العناصر الجوهرية فى حالة الأمة اليونانية الحديثة هى اللغة الواحدة والتضامن الشعورى وتشرب العادات الواحدة وأساليب الحياة الواحدة ، ولا يضيرها أن دماءها خالطت دماء من شعوب أخرى أو أن أفكاراً جديدة وأساليب حياة جديدة طرأت عليها وطعمت أفكارها وأساليب حياتها الأولى .

ولزيادة إيضاح هذه المعانى نضرب مثالا آخر من إحدى الأمم أو أحد الشعوب الحديثة كالإنجليز ، وقد كان كثير من كتابهم يحاولون

التشكيك فى حقيقة أمتنا العربية . فلوسألنا إنجليزيًّا من الذين ينخرطون فى سلك البحرية أو فى الجيش الإنجليزى ويعرضون حياتهم للأخطار فى سبيل استعباد البلاد الأخرى أو فى سبيل الدفاع عن إنجلترة وممتلكاتها — لو سألنا هذا أن يحدد لنا معنى « نحن » بالنسبة إليه لعجب من سؤالنا لأنه يجد الجواب عليه بديهياً لا يحتاج إلى إيضاح أو تحليل ، فهو رجل إنجليزى . هو يتكلم الإنجليزية ويشعر بالزهو لأنه ينتمى إلى أمته الإنجليزية وقد أشرب أسلوب قومه فى مأكلهم ومشربهم وتفكيرهم فيحب ما يحبون ويطرب لما يطربون له ويرقص على طريقتهم ويغنى أغانيهم ويجد لها صدى عميقاً فى نفسه ، ويعترف بأنه ينطوى على فضائلهم وعيوبهم ولا يجد بأساً من ذلك لأنها بعض سمات قومه . وقد يخالف فرداً آخر من الإنجليز أو يعادى آخر منهم ولكنه مع ذلك ينتمى إلى المجموعة الإنجليزية ذات الخصائص المتميزة فى لغتها ومشاعرها وأساليب حياتها وتفكيرها وهى الأمة الإنجليزية . وهو لذلك يحس بأنه متضامن معها فى صورتها المعنوية التى تشمل ما ضيها ومستقبلها ، ويعمل جهده لاحتفاظها بهذه الصورة المعنوية والعمل على زيادتها وضوحاً .

على أننا حين نتأمل حقيقة الشعب الإنجليزى على ضوء ما مر به من الحوادث على توالى العصور ، لا نملك إلا أن نرى أنه فى هذا العصر لا يكاد يمت بصلة إلى الشعب الذى كان يعيش فى الجزيرة البريطانية

منذ ألف عام فقط .

فمنذ ألف سنة كان فى إنجلترة خليط من شعب قديم هو (الكلت) ومن شعوب أخرى أغارت على الجزيرة مثل الإنجليز والسكسون وقبائل الشمال من أهل الدنمرك والنرويج . كان لكل منهم لغته وطريقة حياته وهى لا تكاد تشبه فى شىء لغة الإنجليز اليوم وطريقة حياتهم . ثم أغار النورمانديون الفرنسيون على إنجلترة وحكموا الشعوب التى كانت تعيش قبلهم فى الجزيرة كما يحكم الأجانب أهل البلاد المقهورة ، فكان النورمانديون هم السادة وكان الآخرون هم الرعايا أو أنصاف العبيد . ولكن التطور أحدث أثره فى هذه الأخلاط الكثيرة على مر الزمن وكانت نتيجة التطور البطىء ما نراه اليوم فى الشعب الإنجليزى المحدد السمات والخصائص الموحد فى لغته وعاداته وطرق حياته وفى المثل العليا التى يؤمن بها ومقاييس الخلق ومعايير الخير والشر عنده والدلائل التى يميز بها بين الحسن والقبيح . فمن هذين المثالين يظهر لنا أن شخصية الشعوب تتميز بما يكون لكل منها من عناصر الوحدة فى المشاعر والتشارك فى أساليب التفكير ومقاييس الحكم على الأمور ، والتضامن فى مواقف الحياة المختلفة . ووحدة اللغة من أهم العوامل التى تؤدى إلى هذه الوحدة فى المشاعر والأفكار وهى فى الوقت نفسه أداة لتحقيق التضامن والتماسك بين أفراد الجيل الواحد من الشعب وبين الأجيال المتعاقبة على مر الزمن . والمتأمل فى تاريخ الأمم لا يجد أمة انحدرت من أصل واحد

وحافظت على عنصرها صافياً على اختلاف العصور ، وليس أبعد عن الحق من تلك النعرات التى يثيرها بعض الدعاة بين حين وآخر حين يزعمون أن شعوبهم تمتاز بصفاء دمائها وأنها تنتمى إلى أصول بشرية تمتاز عن سواها فى بعض الفضائل ، فإن الأمم جميعاً تتكون من عناصر بشرية شتى تطورت على مر السنين واندمجت وأصبحت تكون فى مجموعها خصائصها المشتركة بينها . فتحديد معنى نحن بالنسبة إلى كل أمة يشتمل على خلاصة ما انتهى إليه تطورها الذى أبقى لها عناصرها الجوهرية من اللغة الواحدة وطرق الحياة المتشابهة وأساليب التفكير المتقاربة. ونحن حين نوجه إلى أنفسنا سؤال « من نحن » لا نملك إلا أن نجيب بما يجيب به أبناء الشعوب الأخرى ، فنحن أمة عربية كما أن الألمان جميعاً فى شرق ألمانيا وغربها أمة ألمانية وكما أن اليونانيين فى شبه جزيرتهم وفى جزائرهم المبعثرة فى البحر أمة يونانية. وقد مر حين من الدهر على بعض الأمم كانت الدوافع السياسية تحمل البعض على إنكار شخصيتها وتجاهلها ولكن الحقيقة لا تزول بالأنكار أو التجاهل ، فلم تلبث هذه الدوافع السياسية أن تبددت ومضت الحقيقة فى سبيلها الطبيعى المقدور لها . ففى هذا الوطن العربى الممتد فى نطاق سوىٍّ متوسط بين الأمم من غرب آسيا إلى أقصى غرب أفريقيا تعيش أمة واحدة اجتمعت لها كل العناصر الجوهرية التى تميزها عن غيرها وتبرز شخصيتها . وإذا كانت بعض الدوافع السياسية تحمل البعض على إنكار هذه الشخصية أو تجاهلها فإن

الحقيقة لن تلبث أن تمضى فى سبيلها الطبيعى المقدور لها ولن تلبث تلك الدوافع السياسية أن تزول وتتبدد كما تتبدد السحابة العابرة . لقد نشأت هذه الأمة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأقامت معاً حضارة عظيمة مشتركة، ووهبت للإنسانية من آثار عبقريتها إضافات كان لها أكبر الفضل فى إغناء تراث الحضارة البشرية ، وعاشت معاً على السراء والضراء قروناً متعاقبة يبلغ عددها أكثر مما عاشته أية أمة أخرى من الأمم الحية الباقية فى عصرنا هذا ، وهى فى كل قطعة من هذا الوطن تعتز بعروبتها وتحلم فى حاضرها بآمال مشتركة كما تألمت فى ماضيها من آلام مشتركة ، وواجهت معاً عواصف واحدة . وسنعرض فى الفصول التالية معالم سيرة حياتها على مر هذه القرون الطوال كى تبدو الحقيقة من خلالها ماضية فى سبيلها الطبيعى المقدور لها .

سنن تصور الأمم وأدوار حضاراتها

استرعى انظر المؤرخين منذ مئات السنين أن الأمم تسير فى حياتها على سنن ثابتة تكاد تشبه سنن الطبيعة فى عمومها ودوامها ، ومن بين هؤلاء المؤرخين مؤرخنا العربى عبد الرحمن بن خلدون الذى سبق المؤرخين المحدثين فى مقدمة تاريخه الكبير إلى استخلاص القوانين التى تسير عليها الأمم فى تطورها من حالة البداوة إلى حالة الحضارة، والعوامل التى تؤدى إلى ازدهار حضارتها أو اضمحلالها . غير أنه وإن كان رائد المفكرين فى استخلاص نظريات التاريخ والاجتماع لم يخلف لنا نظرية شاملة فى سر تطور الأمم ولم يجئ بعده من العرب من خلف لنا هذه النظرية الشاملة .

وقد حاول كثير من مفكرى أوربا ومؤرخيها أن يستخلصوا من بحوثهم نظريات شاملة لسنن تطور الأمم فى الحضارة ومن أحدثهم وأعمقهم بحثاً المؤرخ الإنجليزى (توينبى) فى كتابه الضخم الذى سماه « دراسة فى التاريخ » .

والذى يهمنا هنا أن نلم إلمامة موجزة بأهم الخطوط العامة لنظرية هذا المؤرخ الكبير وقد استخلصها من بحثه الشامل فى تاريخ حضارات الأمم جميعاً شرقيها وغربيها فى قديمها وحديثها ، وهذه النظرية تلقى ضوءاً قوياً

على العوامل التى تؤثر فى الشعوب وتوجهها فى إقامة حضاراتها والأدوار التى تمر بها فى بناء تلك الحضارات ، وهى تساعدنا على إبراز معالم الطريق الذى سارت فيه الأمة العربية فى تطورها .

بدأ المؤرخ باستعراض شامل لأنماط الحضارات العالمية وبين أن بعضها نما وازدهر وآتى ثماره الخالدة فى الحضارة الإنسانية، وبعضها قضى عليه قبل أن يتم نموه ، أو مات طفلا أو زهق روحه وهو ما زال جنيناً . وانتهى به البحث إلى أن الأمم الكبرى التى كان لها الفضل فى بناء الحضارات الإنسانية منذ القدم إلى اليوم كانت تسير فى نموها وتطورها وفق مبادئ عامة تشترك جميعاً فى السير على مقتضاها .

والمبدأ الأول الذى اتخذه أساساً عاماً لنظريته هو أن الأمم تتأثر فى حياتها بعاملين متقابلين أولهما عامل المحافظة ويقابله العامل الثانى وهو عامل التحرك .

فأما عامل المحافظة فهو ميل الإنسان إلى الاستمرار على الحالة التى يألفها وكراهته لتغيير هذه الحالة ، لأن تغييرها يسبب له قلقاً ويحمله على بذل المجهود والإقدام على مواجهة المجهول . فالشعوب إذا لم تدفعها دوافع قوية تضطرها إلى تغيير حالتها المألوفة تبقى مستمرة على طريقتها فى الحياة وتعمل على تخليدها بأن يقوم كل جيل بتوجيه الجيل الذى بعده للإبقاء على أنماط معيشته وتفكيره التى اعتادها حتى تصير الأجيال الناشئة استمراراً للأجيال التى سبقتها .

وهذه الحالة إذا استمرت طويلا تؤدى إلى تقديس الأمم لمواريثها تقديساً مطلقاً وتجعلها تنظر إلى كل جديد بعين الشك والإنكار وتعده بدعة سيئة تجب أن تقاوم، لأنها تهدد حالة الاستقرار التى قامت عليها حياتها منذ القدم . وهذه الظاهرة الاجتماعية تشبه ظاهرة القصور الذاتى فى القوانين الطبيعية فإن الأجسام تبقى ساكنة إذا لم تحركها قوة دافعة تقلقلها وتجعلها تتحرك بعد سكونها .

وأما عامل التحرك المقابل لعامل المحافظة فهو الذى يطرأ على حياة الأمم ويجعلها تهتز وتتغير من حالة السكون التى استقرت عليها إلى حالة حركة تناسب الظروف التى طرأت عليها :

وهناك أنواع كثيرة من الظروف التى تطرأ على الأمم وتبعثها إلى التحرك . فقد تتغير الظروف الجوية التى تعود شعب من الشعوب أن يعيش فيها وتكون نتيجة الظروف الجديدة غير ملائمة لأسلوب الحياة التى تعودها ذلك الشعب ، فيكون عند ذلك مضطراً إلى أحد أمرين فإما أن ينزح من الأرض التى يقيم فيها إلى أرض أخرى تلائم أسلوب الحياة الذى تعوده وإما أن يعمل على تغيير أسلوب حياته بحيث يجعله موافقاً للظروف الجوية الجديدة .

فإذا قلت الأمطار مثلا فى إقليم من الأقاليم حتى أصبح ما يسقط منها غير كاف لاستمرار حياة الناس على ما كانت عليه بأن تحولت المروج الخضر إلى سهوب قليلة السخاء، كان لابد لبعض أهل ذلك الإقليم أن يهاجروا إلى إقليم آخر يكفل لهم العيش فلا يبقى فى الوطن

القديم إلا بعض من كان يقيم فيه ، ويكون هؤلاء الباقون مضطرين إلى تغيير أسلوب حياتهم بحيث يناسب ظروف الجفاف الذى حل بأرضهم . وقد حدثت أمثلة كثيرة من هذا التغير الجوى وما أعقبه من الهجرات ومن تغيير أسلوب الحياة فى المهاجرين إلى البلاد الأخرى والمقيمين فى أرضهم المتغيرة . وتكون نتيجة تغير الظروف الجوية فى كل الأحوال تحركاً للناس وتغيراً فى أساليب حياتهم وتحولا بهم من حالة قديمة استقروا عليها إلى حالة جديدة لابد لهم أن يواجهوها بما يناسبها من التجديد فى الأفكار وطرق المعيشة .

وقد ينشأ تحرك شعب من الشعوب على أثر حركة فكرية انبعثت فيه كما حدث لشعوب أوربا حين تحركت بعد استقرارها فى عصور الظلام على أثر تنبه وعيها إلى شعاع الحضارة العربية الذى انبعث إليها من الشرق والشعاع الآخر الذى وصل إليها من الآثار الفكرية اليونانية القديمة . ومن أمثلة تأثير الحركة الفكرية فى تنبيه الشعوب ما حدث لشعب فرنسا الذى هب فى ثورته الكبرى على أثر حركة فكرية قومية استمرت تؤثر فيه أكثر من قرن من الزمان . وسنرى فيما بعد أن الأمة العربية أخذت كذلك تتحرك وتتحول من الحالة التى استمرت عليها قروناً عدة على أثر الدفعة القوية التى دفعتها بها رسالة الإسلام .

ومن أهم الأسباب التى تهز الأمم وتبعث فيها حركة قوية شعورها بخطر يهدد وجودها كما لو أغار عدو عليها ، فإن الأمة إذا هددها عدو

مغير تهتز هزة قوية وتتنبه إلى أن سلامتها وحريتها فى خطر وتجد نفسها فى موقف يحملها على أن تواجه الخطر الذى يهددها ، فتتحرك للمحافظة على حياتها وحريتها . ومتى بدأت هذه الحركة تحول استقرارها إلى تحفز ينتهى بها إلى تغيير أسلوب حياتها المألوفة . ومتى بدأت تتحرك أصبح كل ما استقرت عليه معرضاً للتحول والتغير . وتتجه فى حركتها إلى طرق جديدة وتلجأ فى دفاعها عن نفسها إلى الابتكار والتجديد ، ومن هنا يبدأ دور كفاح قد ينتهى بالفوز إذا كان فى الأمة من القوى ما يجعلها تثبت للصدمة التى أصابتها وتخرج منها سليمة قوية ، أو قد ينتهى بالانهيار أو الاضمحلال إذا لم يكن فيها من القوى ما يمكنها من تحمل الصدمة ومقاومتها . فإذا انتهى أمرها إلى الفوز وخرجت بحياتها سليمة على أثر كفاحها كان ذلك ابتداء لعصر جديد من حياتها تعمل فيه على استغلال نشاطها الطارئ فى تطوير أساليب حياتها وتنطلق فى التجديد والبناء فى مجالات التفكير والعمل والتفنن .

والأمم حين تتحرك تسير على سنة اجتماعية ثابتة تشبه ظاهرة الحركة فى قوانين الطبيعة إذ أنها تستمر فى حركتها فى الاتجاه الذى اتجهت إليه ما لم تعترضها قوة مضادة توقف حركتها أو تغير اتجاهها .

وليس لمدة الزمن دخل فى تحديد فترات الجمود والاستقرار أو فترات التحرك والتجديد ، فقد تمضى على إحدى الأمم ألوف من السنين وهى محافظة على قديمها مستقرة على أسلوب حياتها المألوفة فلا يحدث فى حياتها

ولا فى حضارتها تجديد طوال هذه السنين ما دامت الظروف لا تهزها ولا تدعوها إلى إحداث تغيير فيما استقرت عليه .

ومما يسترعى النظر فى حركات الأمم أن الظروف التى تطرأ عليها وتجعلها تهاجر من موطنها الأول وتنساح فى الأقاليم المجاورة قد تحدث آثاراً متباينة ، ففى بعض الحالات تؤدى الهجرة إلى اصطدام عنيف بين المهاجرين وبين أهل البلاد التى تستقبلهم ، وقد ينجلى هذا الاصطدام أحياناً عن تخريب شامل يشبه تخريب السيل الجارف إذا انطلق فى سبيله محطماً ولا يترك وراءه إلا الدمار فلا يؤدى إلى حركة تجديد لا فى الشعب المهاجر ولا فى الشعب الذى واجه صدمته ، لأن ذلك الاصطدام العنيف يبدد قوى المهاجمين وقوى المدافعين جميعاً . وقد حدث مثل هذا عندما أغارت قبائل الهون على أوربا أو عندما أغارت جموع التتار على بلاد الدولة العباسية إذ أن سيل الغارة المدمر أفنى قوته فى التحطيم فلما هدأت دفعته آخر الأمر كان قد هدم قواعد الحضارة فى البلاد التى اجتاحها ولم يكن يحمل فى دفعته غير العنف والتدمير فبقيت البلاد التى تعرضت لتدميره حطاماً هامداً خامداً .

وقد ينجلى الاصطدام بين المهاجرين وبين البلاد التى يغزونها عن اجتياح لنظام الحكم القائم فيها فيستولى زعماء الشعب المغير على أزمة الحكم مع بقاء أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه من قبل وفى هذه الحالة يأخذ أفراد الشعب المغير فى الحلول بالبلاد التى فتحوها ويمتزجون بأهل البلاد القدامى

شيئاً بعد شيء فتتكون من امتزاجهم أمة جديدة تحمل فى أغلب الأحوال طابع الشعب المنتصر الفاتح . ومن أمثلة ذلك ما حدث فى أوربا على أثر إغارات الشعوب التيوتونية وتدميرها لنظام الحكم الرومانى وحلولها فى البلاد التى كانت الدولة الرومانية تحكمها قبلهم ، ثم امتزاجها بأهل البلاد القدامى وتكوينها للأمم الأوربية الحديثة . وأسماء أمم أوربا الحديثة ما تزال تدل على أن كل أمة منها انطبعت بطابع الشعب الذى أغار عليها فانجلترة تحمل طابع قبائل الأنجلو السكسون وفرنسا تحمل طابع الفرنج وألمانيا تحمل طابع قبائل الألمان وهكذا .

ومهما يكن الأمر فى الأسباب التى تبعث الأمة إلى الحركة ومهما تكن نتائج هذه الدفعة فإن نظرية المؤرخ توينبى تنتقل بعد ذلك إلى شرح السنن الاجتماعية التى تسير الأمم عليها فى بناء نهضاتها بعد أن تهتز هزتها القوية لأى سبب من الأسباب التى أشرنا إلى طائفة منها فيما سبق من القول .

فالأمة عندما تتحرك بعد ركودها تكون حالها شبيهة بحالة الطفل الصغير إذا بدأ يتنبه إلى ما حوله ، فهو يمد يده إلى كل شيء ويحاول أن يعرف ما يحيط به وهو يريد أن يجرب وأن يقيس قوته بالنسبة إلى ما يحيط به ، وكلما كبر وزاد إدراكه وسع دائرة معرفته وتجاربه وزاد علماً بقياس قواه بالنسبة إلى عالمه المحدود ، وكل شيء يبدو له جديداً وكل تجربة تجعله يحس إحساساً جديداً ويخيل إليه أنه أول من أدرك ما فى هذا العالم

العجيب وأنه أول من أحس بأحاسيسه، فيكون تعرفه على عالمه ممزوجاً بحماسة المستطلع الذى يرى أرضاً جديدة لأول مرة . وكلما زاد تطلعه إلى المعرفة زاد ميله إلى التساؤل فيأخذ فى التماس المعرفة عند غيره ممن هم أسبق فى الحياة منه ، ولكنه يجمع ما يجمعه من المعارف كى يجعلها مادة لتفكيره ويحصل ما يحصل من التجارب كى يكون بها شخصيته .

هكذا تبدأ الأمة فى تكوين شخصيتها وجمع المعارف مما يحيط بها وهى كلما زادت تجربة ومعرفة زاد نموها ورقيها فتأخذ فى الابتكار والإبداع والإنشاء بكل ما توافر لها من التجارب والمعارف ويكون ما تنشئه مطبوعاً بطابع الشخصية التى كونتها لنفسها .

غير أن هذا التشبيه وإن كنا نقصد به تقريب فكرة نهوض الأمم قد يؤدى إلى غموض فى الفكرة نفسها لأن الأمم ليست كائناً واحداً يتحرك بهذه الطريقة ويأخذ فى التجربة وتحصيل المعرفة على النحو الذى وصفناه ، بل هى مكونة من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يختلفون فى المقدرة والحس والذكاء، وبما قد يكون لهم من قوة الإرادة وما يكون نصيب كل منهم من المواهب الطبيعية . ولهذا فإن نظرية المؤرخ تؤكد أهمية وجود مجموعة من الأفراد النوابغ فى كل أمة ويسميهم (بالأقلية الفعالة) لأنها هى التى تؤثر فى حركة جماهير الأمة وتوجه نشاطها . وهذه الأقلية تكون أسبق الناس إلى التنبه والوعى وإلى الشعور بضرورة التجديد والبدء فى العمل من أجله . وهى التى ترتاد الطرق المؤدية إلى الترقى بالأمة التى

تنتمى إليها وتسير فى طليعتها . فوجود هذه الأقلية شرط أساسى فى نظرية توينبى لابتداء كل أمة فى النهوض والتحول من حالة قديمة إلى حالة جديدة .

فعلى ضوء هذه النظرية يمكن أن يقال إن الأمم تميل إلى أن تبقى محافظة على قديمها مستقرة على مألوف حياتها حتى تطرأ عليها ظروف تحدث فيها هزة قوية وتشعرها بضرورة التحرك لمواجهة الموقف الجديد الذى لا تلائمه أساليب حياتها المألوفة . والذين يتنبهون أولا ويهتزون أولا ويتحركون أولا لمواجهة الظروف الجديدة هم الأقلية الفعالة من أبناء الأمة الذين يأخذون على عاتقهم عبء ارتياد الطرق الجديدة ودعوة جماهير الأمة إلى السير معهم فيها .

فإذا ما بدأت الأمة تتحرك مع أقليتها الفعالة نحو حياة جديدة مرت فى مراحل تطورها واحدة بعد واحدة إلى أن تتم دورة حضارية كاملة . وتقسم النظرية هذه الدورة الحضارية إلى خمس مراحل محدودة على وجه العموم وإن كانت ظروف كل أمة هى التى تكيفها بما يناسبها .

ففى مرحلة الحركة الأولى تكون الأمة فى حالة شبيهة بالفوران وتمتاز بالقلق أو الفوضى أحياناً وتكثر فيها المصادمات العنيفة التى تتجلى فيها بطولات بعض الأفراد الممتازين الذين يحوزون إعجاب قومهم بما يظهرونه من آيات الشجاعة والمروءة ورباطة الجأش وتكون نتيجة إعجاب الجماهير بهم بداية تصوير الأمة لمثلها العليا وتكوين مقاييس القيم فيها وإقامة الموازين التى تميز بين الحسن والقبيح والخير والشر والفضائل والرذائل وهى

المقاييس والموازين التى تحكم الأمة بمقتضاها على ما هو نبيل جدير بإعجابها ورضائها وما هو دنىء يجر على صاحبه الازدراء والسخط . فى هذه المرحلة الأولى تأخذ الأمة فى تحديد مثلها وتصوير أحلامها وأمانيها وترشيح الأقلية الفعالة التى تستطيع أن تحقق فى حياتها هذه المثل والأحلام والأمانى .

وتستمر هذه المرحلة القلقة حتى تجتمع للأمة الأقلية الفعالة التى تتمكن من الانتقال بها من حالة الاضطراب والتفرق إلى حالة التجمع والوحدة من أجل تحقيق المثل المرجوة والاتجاه المتزن إليها . فالأقلية الفعالة بالنسبة إلى الأمة هى الصورة المجسدة لمثلها العليا وفضائلها وهى التى تودع فيها الأمة رجاءها فى تحقيق أمانيها .

وتمضى الأقلية الفعالة فى طريق التقدم ، وكلما مضت فى طريقها زاد اتصال جماهير الأمة بها وزادت ثقتهم فيها لأنها تستمر على إثارة وعى الأمة والدعاية لرسالتها ، وتدعيم ثقة الجماهير بما تبديه من الإخلاص والكفاية . ويتوقف نجاحها على استمرار التفاف الأمة حولها ومقدار ثقة الجماهير فيها والإيمان بدعوتها ، وكلما زاد عدد الملتفين حولها والمؤمنين برسالتها تضاعف عدد المنضمين إلى دعوتها ممن كانوا من قبل لا يهتمون بها أو يقاومونها . ويجتمع إلى هؤلاء المؤمنين عدد آخر من جماهير الأمة عن طريق التقليد والعدوى حتى يأتى وقت تسير فيه الأمة جميعاً حول أقليتها الفعالة ويتضاعف الإنشاء والبناء شيئاً بعد شىء من أجل خلق

المجتمع الجديد على أساس المثل العليا والمقاييس الجديدة التى تمثلها هذه الأقلية . وهذا هو الدور الذى تقيم فيه الأمم أسس حضاراتها وتطبعها بطابع شخصيتها .

وتتزايد حركة البناء الحضارى على مر الأيام وتزداد قوة ما دامت الأقلية الفعالة مندمجة فى الأمة ماضية فى اتجاهها موحدة فى غايتها عاملة على الملاءمة بين حياة الأمة وبين الظروف الجديدة التى تحيط بها ، مستعينة على تحقيق غايتها بنشاط جمهور الأمة الذى تدفعه معها من الداخل بوجودها مندمجة فيه . فإذا حدثت فرقة فى صفوف هذه الأقلية وانقسمت إلى فرق متعددة الاتجاه وإلى أحزاب متعارضة الاتجاه تصادمت اتجاهاتها وفقدت مقدرتها على الاستمرار فى حركة التجديد والبناء الحضارى ، وتبددت قواها فى المصادمات المتبادلة وتحولت عن تحقيق الغاية العامة إلى تحقيق غايات شتى تشوبها أنانية زعماء الفرق والأحزاب ، فيصبح المقصود هو تحقيق المصالح الخاصة بالزعماء وبالأحزاب التى تجتمع من حولهم .

ولا تلبث الأمة أن تشعر بانصراف قادتها ورواد نهضتها عن تحقيق أغراضها الكبرى فتأخذ هى فى الانصراف عنهم ولا يبقى مع كل حزب إلا من تكون له مصلحة خاصة يريد أن يصل إليها . وبهذا يتغير موقف الأقلية التى كانت تسير موحدة الصفوف فى طليعة الأمة المجتمعة حولها وتصبح طبقة منفصلة عنها تسيطر عليها من أعلى بعد أن كانت تدفعها

وتندفع معها من الداخل وهي مندمجة فيها .

وعند هذا يبدأ دور ثالث من أدوار تطور الأمة وهو دور السيطرة . فالفرق المتنافسة والأحزاب المتعارضة تشيع الفرقة بين أبناء الأمة حتى يختل أمنها ويعود الاضطراب إليها ، فلا تجد الأمة أملا فى هذه الحالة إلا أن يعود إليها أمنها وتعود إليها وحدتها بأية وسيلة من الوسائل ، وترحب عند ذلك بانتصار أحد زعماء الفرق أو أحد قادة الأحزاب على منافسيه من الفرق أو الأحزاب الأخرى فيقهرهم بالقوة ويخضع أتباعهم لسلطانه حتى يجعلهم يسلمون له القياد طوعاً أو كرهاً . فتتحول الأمة عند هذا من أمة حرة تؤمن برسالة وتتجه مع روادها نحو تحقيق أمانيها إلى أمة خاضعة لسيطرة سيد انتزع السيادة فيها بالقوة لا بالثقة والإيمان، وسادها من أعلى ولم يتجه بها من داخلها . غير أن البناء الحضارى الذى بدأ ونما وازدهر فى المرحلة السابقة لا يتوقف فجأة على أثر هذا التغير ، بل يبقى مستمراً فى سيره على الدفعة السابقة التى اندفع بها . وتحتفظ الدولة فى صورتها العامة بما كان لها من رونق بل إنها تزيد رونقاً فى ظاهرها ويتضاعف إنتاجها المادى نتيجة لما اجتمع لها من أثر نشاط الأجيال التى توفرت بحماسة إيمانها على البناء . فتصبح الحضارة أوسع دائرة ويكون مجد السلطان أكثر أبهة ويتلون البناء الحضارى بهذا المجد وهذه الأبهة فيكون أبهر للأنظار وأبدع فى المظاهر .

وتصبح الدولة المجيدة بسلطانها العظيم هى الصورة الظاهرة من الأمة

وإن كانت جماهير الأمة تصبح منعزلة عنها خاضعة لها خضوع الرعية لحكامها وليس سير الأمة مع روادها وقادتها .

وتؤثر مظاهر هذا المجد العظيم فى الشعوب البدائية المجاورة لها فتأخذ فى الاغتراف من الحضارة الباهرة ، وتسارع إلى الخدمة فى جيوش الدولة التى كانت من قبل تعتمد فى دفاعها وهجومها على جماهير شعبها ، فيتحول الدفاع عن الأمة إلى أيدى جنود مرتزقة، وتفقد الأمة حماستها للدفاع عن نفسها .

وينتهى هذا الدور من حياة الأمة إلى خسارة كبرى على شعبها، لأنه يعتزل حكامه الذين يتعالون فوقه وينصرف بثقته عنهم بل ينظر إليهم على أنهم سادة مستعدون دائماً للبغى عليه والتعسف فى حكمه ، ويزيده اعتزالا عن حكامه حين يعتمد هؤلاء الحكام على الجيوش المرتزقة التى يجمعونها من الشعوب البدائية المجاورة، ولا يلبث هؤلاء الجنود المرتزقة أن يتعالوا فوقه ويشاركوا السادة فى البغى عليه والتعسف فى حكمه . غير أن الدولة المسيطرة التى بدأت قاهرة مجيدة تحيط بها الأبهة ومظاهر الحضارة الرائعة لا تلبث أن تشعر بنتائج تعاليها عن الشعب وعزلة الشعب عنها . فالشعوب البدائية المجاورة لا تلبث أن تتجرأ عليها لأنها تعرف اعتماد الدولة عليها فى الدفاع عن أرضها . وجمهور الأمة ينظر إليها نظرة التوجس وسوء الظن ولا يهمه مصيرها ، بل يكون حريصاً على الخلاص من مظالمها . فتشعر الدولة المسيطرة بأنها تواجه جبهتين عدائيتين إحداهما جبهة الشعوب

الأجنبية من الخارج والأخرى جبهة جماهير الأمة المنعزلة عنها فى الداخل . فيبدأ عند ذلك الدور الرابع من أدوار تطور الأمة وفيه تأخذ الدولة فى الانهيار تحت ثقل أعبائها ويأخذ الاضطراب فى تمزيق أوصالها ، فقد ينتزع أحد القواد إقليماً من أقاليمها ، وقد يعتدى شعب مجاور على قطعة من أملاكها ، وقد تتعرض فى داخلها إلى ثورات جماهيرها الحانقة عليها أو إلى خروج منافس يبتغى انتزاع الحكم لنفسه كى يقيم دولة لنفسه ليحل محل الدولة القديمة فى السيطرة على جماهير الأمة .

وفى هذا الدور تبدأ حضارة الأمة فى الانحدار وتتجمد حركتها فيكون أكبر ما تستطيعه تقليد الأساليب التى ابتكرتها الأجيال السابقة والسير على أثر الأفكار التى أبدعتها هذه الأجيال . ويكون الدور الخامس والأخير من الدورة الحضارية الكاملة هو الدور الذى تتعرض فيه الدولة لصدمة عنيفة من داخلها أو من خارجها أو تصيبها أزمة من الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية فينفرط عقدها وتشملها الفوضى ويعمها الشقاء وتهدر فيها الدماء وتختل فيها مقاييس القيم وتهدر المثل العليا فإما أن ينجيها من هذه الفوضى استيلاء شخص قوى ينبع من وسط الظلام فيعيد تكوين دولة مسيطرة جديدة على أنقاض الدولة المسيطرة السابقة ، وفى هذه الحالة تستمر الأمة فى دورها الخامس نفسه وتزداد جموداً وتورطاً فى مواجهة الجهتين العدائيتين السابق ذكرهما ، وإما أن ينتهى أمرها إلى فوضى شاملة وتستولى الشعوب البدائية المجاورة على أملاكها وتنتهى بذلك دورة كاملة

من دورات حياتها وحضارتها .

فمراحل تطور الأمم كما تصورها نظرية توينبي تتلخص فى الأدوار الخمس الآتية : المرحلة الأولى مرحلة البطولة التى يسودها القلق وفيها تكثر المصادمات وتظهر البطولات وتتجلى المثل العليا للأمة .

والمرحلة الثانية دور الوحدة والتحرك حول أقلية فعالة تسير معها الأمة نحو تحقيق أمانيها وتبدأ فى بناء حضارة متميزة بطابعها ، والمرحلة الثالثة دور التحول الذى تتغلب فيه الأقلية الفعالة إلى دولة مسيطرة ، ويستمر فيها البناء الحضارى ويزداد العمران ، ولكن الأمة تبدأ فى فقد حيويتها وتأخذ فى الانعزال عن حكامها .

والمرحلة الرابعة دور سيطرة الدولة المجيدة التى تتسم بمظاهر المجد ولكنها تنطوى على عوامل الضعف والانحلال فتتعرض لعداوة جبهة خارجية من الشعوب البدائية المحيطة بها وجبهة داخلية من شعبها الذى انعزل عنها وفقد الثقة فيها .

والمرحلة الخامسة دور انهيار الدولة وشيوع الفوضى واستيلاء الشعوب البدائية على أرضها .

فلننظر الآن إلى تاريخ أمتنا العربية وأدوار حياتها على ضوء هذه النظرية .

الدور الأول من حياة الأمة العربية

(العصر الجاهلى)

كانت الجزيرة العربية مهداً للأمة العربية منذ أقدم العصور ، ولكن قلة الآثار المتخلفة عن هذه العصور لا تمكننا من معرفة الكثير من تاريخ هذه الأمة وما شهدته رمال جزيرتها العظيمة من الحوادث الكبرى . غير أنا نستطيع أن نقول استناداً على بعض الوثائق التاريخية إن طائفة عظيمة من عرب الجزيرة هاجرت إلى مصر وامتزجت بأهلها حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وإن طائفة عظيمة أخرى منهم هاجرت نحو العراق وغمرت الحضارة السومرية القديمة لتكون منها فيما بعد حضارة بابل الكبرى . وحوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حدثت هجرة ثالثة عظمى من العرب إلى سوريا وكانت نشأة الفينيقيين إحدى نتائج هذه الهجرة .

ثم خرجت من جزيرة العرب موجات هجرة أخرى، كان من بينها الآراميون الذين أقاموا حول دمشق والهكسوس الذين حلوا بمصر .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ما كانت عليه حالة جزيرة العرب فى العصور الموغلة فى القدم، ولكن بعض الباحثين يقولون إنها كانت فى وقت ما أغزر أمطاراً وأكثر خصباً شأنها فى ذلك شأن الإقليم الصحراوى الفسيح الذى يمتد من أواسط آسيا إلى شمال أفريقيا ، فلما تغير جو ذلك

الإقليم وقلت أمطاره شيئاً بعد شيء، أخذ سكانه يهاجرون إلى الأرض المتاخمة له ليجدوا فيها وطناً جديداً أصلح لحياتهم ، واضطر من بقى من أهله إلى الملاءمة بين حياتهم وبين الظروف الجديدة التى تتطلب الصبر والجلد وقوة المقاومة .

غير أن الجزء الجنوبى من جزيرة العرب كان وما يزال أكثر أمطاراً وخصباً فنشأت فيه حضارة موغلة فى القدم وهى الحضارة اليمنية التى تتصل بها أسماء دول متعاقبة كالدولة المعينية والدول السبئية والقطبانية والحميرية. وكان الجزء الشمالى من الجزيرة العربية كذلك موطناً لدول مختلفة أحدث عهداً من الحضارة اليمنية مثل دولة تدمر التى يتصل بها اسم الملك أذينة وزوجته الملكة (زنوبيا) ، وكان لها شأن كبير فى حوادث الشرق الأدنى خلال المصادمات العنيفة التى وقعت بين دولتى الفرس والروم فى القرن الثالث الميلادى ، وقد امتد ملك دولة تدمر فى زمن الملكة زنوبيا إلى العراق وآسيا الصغرى ومصر حيث ضربت النقود باسمها واسم ولدها (وهب اللات) ، غير أن دولتها لم تلبث أن تحطمت على يد الإمبراطور (أورليان) فى أواخر القرن الثالث للميلاد . وكانت مدينة (بطرة) مركزاً لدولة أخرى وهى دولة (النبط) التى استطاعت أن تصد غارات (أنتيجون) خليفة الإسكندر المقدونى فى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وقد استمرت هذه الدولة مزدهرة وبقيت (بطرة) مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب إلى أول القرن الثانى للميلاد عندما دخلت فى أملاك الدولة الرومانية .

وإذا كانت الجزيرة العربية قد بعثت بهذه الهجرات الكثيرة إلى البلاد المجاورة لها فإنها كذلك لم تخل من محاولات كثيرة للهجوم عليها من الدول الكبرى التى تعاقبت على البلاد التى حولها .

فقد سجلت الآثار الآشورية أن الملك (شالمنصر) الثالث أغار فى عام ٨٥٤ قبل الميلاد على ملك عربى اسمه (جندبو) ، وغنم ألفاً من إبله كما أن المصريين بعثوا بعثة قبل ذلك بآلاف من السنين لاستخراج النحاس والعقيق من حول مدينة (يثرب) وهى المدينة المنورة. وقد غزا الفرس أرض العراق العربى فى القرن الثالث للميلاد وسيطروا على مملكة الحيرة العربية التى يرجع تأسيسها إلى أواخر القرن الثانى للميلاد، كما سيطر الروم على دولة الغساسنة العربية التى كان ملوكها يقيمون فى (جلق) على مقربة من دمشق الحديثة .

ولما مدت الدولة الفارسية سلطانها إلى العراق العربى واتصلت حدودها بحدود الدولة الرومانية، زادت فرص الاحتكاك بين الدولتين الكبيرتين وأدى ذلك إلى حروب دموية استمرت قروناً عدة وكانت كل منهما تعتمد على العرب الذين تسيطر على بلادهم فى مساعدتها على القتال، فكان عرب العراق يقاتلون فى صفوف فارس وكان عرب الشام يقاتلون فى صفوف الدولة الرومانية .

وقد مدت الدولة الفارسية سلطانها فى أطراف الجزيرة العربية من ناحية الشرق فاستولت على (عمان) فى القرن الرابع الميلادى كما استولت

الحبشة على اليمن ، وحاول (أبرهة) الحبشى أن يستولى على مكة ، وأعد لذلك حملة عظيمة استخدم فيها الفيلة لإرهاب أهل مكة وأكثرهم من قبيلة قريش ولكن هذه الحملة انتهت إلى كارثة عظيمة ترددت أصداؤها فى الجزيرة العربية عامة ، وبقيت قريش والقبائل المجاورة تؤرخ الحوادث بعام الفيل وهو العام الذى خاب فيه أبرهة فى فتح مكة .

وقد ثار عرب اليمن على الدولة الحبشية المسيطرة عليهم بمساعدة الدولة الفارسية التى سيطرت على اليمن فى أواخر القرن السادس للميلاد .

فمن هذه الحقائق يبدو لنا واضحاً أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصر موطناً لشعب العرب ، وأنها بعثت من داخلها هجرات كثيرة كانت لها آثار عظمى فى إقامة حضارات ودول عدة فى الأقاليم المجاورة ، ومعنى هذا أن هذه الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالبلاد المجاورة لها وكان أهل تلك البلاد يمتون بصلات كثيرة إلى وطنهم الأصلى الذى يشاركونه فى اللغة ، وأن هذه الصلات كانت بطبيعة الحال تؤدى إلى الأخذ والعطاء ، وسريان مستمر لمظاهر الحضارة وآثار الثقافة بين العرب فى بلادهم وأبناء عمومتهم فى الأقطار المجاورة . ولم تكن جزيرة العرب نفسها بمنأى عن تأثير البلاد المجاورة ، فإن الفرس سيطروا على شرقها وجنوبها فى عمان واليمن كما أن الروم سيطروا على شمالها فى دمشق وتدمر وبطرة بل حاولوا غزو قلبها فى القرن الأول للميلاد فردتهم عن غزوتهم رمالها الفسيحة ، ولهذا بقى العرب لاثذين فى وسط جزيرتهم الفسيحة

محتفظين باستقلالهم، مع اتصالهم بالأقاليم المجاورة اتصالا وثيقاً على توالى العصور .

فالأمة العربية وإن كانت منذ أقدم العصور متصلة بجيرانها من كل جهة بقيت محتفظة باستقلالها فى وسط جزيرتها الصحراوية التى لم يكن شعب آخر غير العرب يستطيع أن يخترق شعابها أو يقدر على مواجهة الحياة فى أرضها .

وأول ما يسترعى النظر فى حياة العرب فى حصنهم العظيم بالجزيرة العربية قيام نظامهم الاجتماعى على الرباط القبلى ، فولاء الفرد لا يكون إلا لقبيلته وولاؤه لها لا يقف عند حد ، فأعداء القبيلة أعداؤه وأولياؤها أولياؤه . وإذا كان العربى يحمل هذا الولاء لقبيلته فإن قبيلته كذلك تحمل له ولاء مماثلا ، فهى المسئولة عن سلامته وهى التى تحميه من كل اعتداء، فإذا اعتدى أحد عليه كان عليها أن تنصره بغير تحفظ ، وأن تضحى فى سبيل نصرته بكل ما لديها من قوة ، ولا تبخل بدمائها وأموالها فى الانتقام له إذا قتل . وكان للفرد فى القبيلة أن يجير من ينزل فى جواره ويكون من واجب القبيلة أن تحمى ذلك الجار من كل اعتداء ما دام مقيماً بها ، فإذا تبين لها أنه غير جدير بحمايتها أنذرته بأنها تريد أن تتخلى عن جواره وتطلب منه أن ينزح عنها ، ولكنها لا تسمح لأحد بالاعتداء عليه حتى يرحل عن جوارها .

وكانت كل قبيلة ترشح من بينها سيداً زعيما ولا تختار زعيمها إلا عن

رضاء وطواعية لما تجده فيه من صفات السيادة، وهى الصفات التى تعدها القبيلة ذروة فضائلها . فلا بد للزعيم أن يكون شجاعاً وأن يمتاز بالحلم والكرم والمهارة فى فنون القتال وقيادة المعارك . غير أن ذلك الزعيم لم يكن حاكماً مسيطراً فالحياة فى الصحراء تسوى بين الأفراد، وكان لكل فرد فى القبيلة حق الاشتراك فى المناقشات المتصلة بمصالحها ومعارضة رأى الزعيم إذا بدا له أن رأيه غير حكيم أو غير مناسب للظروف .

فالحرية والمساواة وكرامة الفرد كانت دعامات الحياة الاجتماعية بالنسبة إلى الفرد، ووحدة القبيلة وتضامنها وتكافلها وولاء كل فرد فيها لمجموعها كانت دعامات الحياة الاجتماعية بالنسبة للقبيلة .

وأما سلوك الفرد فى حياته الخاصة فيما لا يتصل بعلاقته بقبيلته فكان مطلقاً من كل قيد . فكان مقياس القيم عندهم قائماً على الاعتداد بالفضائل الاجتماعية وصرف النظر عن كل ما عدا هذه الفضائل .

فالكرم فضيلة ذات قيمة كبرى لأنه يمثل فضل الفرد على غيره من الناس ، وكذلك كانت المروءة والشجاعة والوفاء والمحافظة على العهد فهى جميعاً فضائل اجتماعية لأنها تمثل أفضال الفرد على غيره من الناس . ولكن القسوة على الأعداء ونهب أموالهم وسبى نسائهم واتخاذهن إماء أحياناً أو زوجات أحياناً أخرى، والتمتع بنشوة الخمر وغيرها من الملذات عقب الانتصار والغيرة الشديدة التى تؤدى إلى المبادرة بسفك الدماء والإسراع إلى العنف عند أول بادرة تشعر بمس الكرامة فلم تكن تعد من

الرذائل لأنها لم تكن متصلة بعلاقة الفرد بقبيلته بل لقد كان بعض ما نعده اليوم من الرذائل يعد فضائل عند العرب مثل المقامرة لأنها كانت تعود بالنفع على الفقراء، إذ كان الفائز يوزع ما يصيبه من الربح على فقراء القبيلة .

ونظراً إلى القيمة الكبرى التى كانت لعلاقة الفرد بقبيلته كان أكبر عقاب يمكن أن يقع على أحد أبناء القبيلة أن يتبرأ قومه منه فيصبح طريداً منبوذاً، ويكون دمه مباحاً ولا حق له فى أن تثأر له القبيلة إذا اعتدى عليه أو تطالب بدمه إذا قتل . ولكن هذه العقوبة الشديدة لم توقع إلا فى أحوال نادرة يكون فيها الفرد قد ارتكب ما يجلب العار على قبيلته .

والظاهرة العامة التى تميز هذه العصور القديمة التى استمرت إلى قبيل ظهور الدعوة الإسلامية كانت المصادمة المستمرة بين القبائل المختلفة .

فكثيراً ما كانت المشاحنات تنشأ بينها إذا اصطدمت مصالحها على موارد المياه القليلة فى الصحراء أو احتك بعضها ببعض فى المنافسة على المراعى . ولكن هذه المشاحنات لم تكن السبب الوحيد فى قيام الحروب بين القبائل إذ كان القتال يثور بينها على أثر عداوة شخصية بين فرد من قبيلة وفرد من قبيلة أخرى، فتنتصر قبيلة كل منهما لصاحبها ظالماً أو مظلوماً بدافع العصبية الشديدة وينتهى الأمر إلى حروب دموية قد تتطاول لسنوات عدة . ولسنا نعرف على وجه التحقيق أسباب

الحروب المستمرة التى ثارت فى هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الأمة العربية، لأنها لم تسجل فى وثائق يمكن الرجوع إليها، وكل ما نعرفه عنها لا يزيد على أصداء بعيدة أثبتها المؤرخون ورواة الأخبار فى العصور التالية بعد أن مضى على وقوعها مئات من السنين . وكان شعراء العرب يرددون فى قصائدهم ذكر الوقائع القديمة ليفاخروا بما أحرزته قبائلهم فيها من النصر والمجد أو لما كان لأجدادهم من المآثر والمكارم ، وكانوا من ناحية أخرى يرددون فى قصائد هجائهم ما وقع لخصومهم من الهزائم أو ما روى عنهم من النقائص . وقد استمر ترديد الشعراء لأصداء الحوادث القديمة مئات من السنين بعد أيام وقوعها، فكانوا فى مدائحهم أو أهاجيهم للزعماء يذكرون ما كان للقبائل التى ينتسبون إليها من المفاخر أو المثالب . وما تزال كتب التاريخ والأدب العربى تحتوى على طائفة كبيرة من الأخبار المتصلة بوقائع الحروب بين القبائل، مثل قصص حروب بكر وتغلب التى ثارت بين القبيلتين على أثر مقتل كليب واستمرت على ما قيل عشرات من السنين ومثل قصص الحرب بين العرب والحبشة فى اليمن وهى الحرب التى كان بطلها سيف بن ذى يزن كما رددت طائفة أخرى من قصص الأبطال، كعنترة بن شداد العبسى وعروة بن الورد ، ونحن نستطيع مع قلة ما وصل إلينا من هذه السير أن نتصور ما كان عليه العرب فى حياتهم المضطربة فى جاهليتهم كما نستطيع أن نتعرف ما كانوا يعدونه من الأعمال مدعاة للإعجاب والفخر ، وما كانوا

يرونه مجلبة للخزى والهوان . فهذا العصر من تاريخ الأمة العربية يمثل دور البطولة فى حياتها .

وهو يشبه عصر البطولة اليونانى الذى تخللته حروب طروادة ، تلك الحروب التى خلدت ذكرها ملاحم الإلياذة والأوديسية التى تنسب إلى الشاعر اليونانى القديم (هوميروس) . وقد ألف العرب فيما بعد عدداً من القصص الشعبية الطويلة التى يمكن أن نقرنها بملاحم الإلياذة والأوديسية مثل قصص عنترة والزير سالم وسيف بن ذى يزن .

فالعصر الجاهلى بالنسبة إلى الأمة العربية كان عصراً خصباً حافلا بصور المثل العربية العليا وإليه يرجع الكثير مما كون الشخصية العربية ووضع لها مقاييسها فى القيم الاجتماعية والخلقية كالكرم والشهامة والوفاء وحفظ حرمة الجوار والأنفة من الذل وبذل الحياة والأموال فى سبيل المحافظة على الشرف وتقديس معنى الحرية والصبر على الشدائد ، غير أنه خلف للعرب مجموعة أخرى من الخصال التى لا تستقيم معها الحياة الاجتماعية المطمئنة ، ولا يمكن معها جمع شمل القبائل المتنافسة فى أمة واحدة ، فإن الحياة القلقة التى سادت العرب فى جاهليتهم كانت تثير فيهم العصبية الهوجاء للقبيلة كما كانت تثير فيهم الغلظة والقسوة فى معاملة الأعداء والمنافسين ولم يكن لديهم حدود خلقية فى مسالكهم الخاصة التى تتصل بعلاقتهم مع أفراد غير قبيلتهم .

غير أننا نستخلص من أخبار العرب فى جاهليتهم بعض المظاهر

الأخرى التي تدل على أنهم كانوا يشعرون برابطة عامة تجمع قبائلهم على رغم ما كان يقع بينها من المنافسات والمصادمات ، فكانوا يجتمعون في كل عام في مواسم معينة ليقيموا أسواقاً يتبادلون فيها البيع والشراء ، كما يعرضون فيها ما لديهم من فنون كالرقص والغناء ، وكان الشعر أعلى فنونهم وألصقها بنفوسهم . فكان شعراء كل قبيلة ينشدون ما أبدعوه من القصائد التي يودعون فيها ما تفيض به نفوسهم من المشاعر ويقيمون بعض كبار شعرائهم محكمين للمفاضلة بين القصائد فإذا قضوا بفوز أحد الشعراء أصبح لقبيلته فضل معترف به على سائر القبائل ، وأصبح الشاعر مفخرة أى مفخرة لقومه . وهذه المواسم العربية تشبه في كثير من الوجوه ما كان اليونانيون يقيمونه من المواسم التي يتبارى فيها الشبان في إظهار براعتهم في فنون الرياضة ، وكانت هذه وتلك من العوامل القوية على إشعار كل من اليونانيين والعرب بأنهم ينتسبون إلى أمة واحدة ، على رغم ما كان يمزق شملهم من المنافسات والحروب . وكان العرب يتهادنون في هذه المواسم فيمتنعون فيها عن القتال ويحرمون فيها الاعتداء ، ويعدون من ينتهك حرمة هذه الأوقات مجرماً يجر العار على نفسه وعلى قبيلته . فإذا وقع قتال أو اعتداء فيها عده العرب حادثاً خطيراً وتحدثت به القبائل جميعاً وقد تجتمع طائفة منها لإيقاع العقاب الرادع بالمعتدى .

وكان من أظهر دلائل شعور العرب بالرابطة العامة بينهم إجماعهم على القيام بشعيرة الحج إلى معبد واحد وهو كعبة مكة ، فيقصدون إليها

كل عام فى شهر ذى الحجة وهو أحد الأشهر الحرام التى أوجب العرب على أنفسهم فيها الامتناع عن القتال والاعتداء ، وكان موسم الحج أكبر محافل العرب وأشملها ومنه استمدت قبيلة قريش سكان مكة ، مكانتها المرموقة بين قبائل العرب . وقد بذلت محاولات شتى للقضاء على هذه الرابطة التى كانت تجمع بين العرب وتشعرهم بأنه أمة متميزة بنفسها ، وكان من أخطر هذه المحاولات ما قام به أبرهة الملك الحبشى الذى كان يسيطر على بلاد اليمن ، فإنه أنشأ كنيسة عظمى فى صنعاء تعرف باسم (القليس) وبالغ فى تجميلها لتبهر أنظار العرب حتى يحجوا إليها وينصرفوا عن الحج إلى الكعبة ، وساعده فى محاولته الإمبراطور الرومانى الكبير جستنيان فبعث إليه بالصناع المهرة والمعادن الثمينة فصارت (القليس) تحفة فنية رائعة ولكنها لم تجتذب الحجاج العرب من كل فج عميق كما كان يأمل أبرهة . فحاول أن يحطم كعبة مكة بالقوة فسار فى جيش كبير لمحاربة قريش وهدم كعبتهم وحشد فى طليعة جيشه عدداً من الفيلة الضخمة ولم يكن للعرب عهد برؤيتها ، فهالتهم ضخامتها ولم تستطع قريش أن تقف فى وجه الجيش الكبير الذى اتجه به أبرهة إليهم فصعدوا فى الجبال المحيطة بمكه واختفوا بين شعابها فلم يجد أبرهة صعوبة فى دخول المدينة والاستيلاء على الإبل التى كانت ترعى فى الأودية المجاورة لها . وحاول الملك الحبشى أن يستميل زعماء قريش فبعث إلى شيخهم عبد المطلب بن هاشم ليفاوضه فى الصلح على شرط أن تمكنه

قريش من هدم الكعبة فلم يلق فى مفاوضته نجاحاً، وهم بأن يهدمها بنفسه ولكنه عوجل قبل أن يتمم عزيمته إذ تفشى مرض غامض فى جنوده فقضى على أكثرهم واضطر أبرهة إلى العدول عما أراده وانصرف راجعاً إلى صنعاء ولكنه مات فى طريقه إليها . ولاشك أن الصحراء كانت فى هذه المرة كما كانت دائماً حصناً منيعاً للعرب فليس فيها من الطعام والماء ما يكفى لمؤونة جيش كبير وليس فيها من العمران ما يمكن لأعداء العرب أن يستظلوا به إذا أرادوا غزوهم . وكانت خيبة أبرهة فى هدم الكعبة وإخضاع قريش من أكبر الحوادث فى نظر العرب عامة حتى إنهم صاروا يؤرخون حوادثهم بالنسبة إلى العام الذى سار فيه أبرهة بفيله الضخمة لغزو مكه وكانوا يسمونه بعام الفيل .

ومن المظاهر التى تدل على شعور العرب بوحدتهم فى الجاهلية على رغم منافساتهم القبلية أنهم حاولوا تنظيم العلاقات بينهم حتى لا تقضى الفوضى الشاملة عليهم ، فكانت القبائل تعقد المحالفات فيما بينها حتى لا يتجرأ أعداؤها على مهاجمتها مفردة ، ولكن هذه المحالفات لم تؤد إلى منع الحروب فيما بينها بل جعلت حروبهم تزداد شدة لوقوعها بين مجموعات متعادية من القبائل. على أننا نلاحظ أن شعور العرب بالعدالة كان عنصراً هاماً فى حياتهم المضطربة وفى عقد محالفاتهم أو نقضها ، فإذا اعتدت إحدى القبائل على قبيلة أخرى بغير أن يكون لها مسوغ عادل لهذا الاعتداء فى نظر القبائل المحالفة لها بادر الحلفاء بالانصراف عن نصرتها .

وقد حدث مثل هذا فى الحروب التى ثارت بين أبناء العم بكر وتغلب ، فقد اجتمعت القبائل المجاورة على نصرة تغلب لأنهم رأوا فى مقتل زعيمها كليب ظلماً واعتداء من بكر ، ولكن هذه القبائل انصرفت عن نصرة تغلب حين تبين لها أن المهلهل شقيق كليب قد تعدى حدود القصاص العادل فى طلبه لثأر أخيه وبالغ فى التنكيل بأبناء عمه فانقلبت على المهلهل وحاربته عندما أصر على المضى فى الحرب حتى انتهى أمره إلى أن مات أسيراً طريداً . وحدث مثل هذا حين قام امرؤالقيس بن حجر مطالباً بثأر أبيه الملك حجر من قتلته بنى أسد فإن كثيراً من القبائل المجاورة هبت لنصرته على بنى أسد انتصاراً للعدالة حين وجدته يطالب بحق مقرر وهو الثأر لأبيه ، ولكن هذه القبائل انصرفت عن نصرته عندما وجدت أنه لا يتردد فى الغدر ولا يراعى حدود الاعتدال والعدالة فى طلبه لثأر أبيه ، وكانت نتيجة ذلك أنه ذهب إلى خارج الجزيرة لالتماس المعونة من الروم ومات فى عودته من هناك طريداً وحيداً منبوذاً . فهذه القصص فى مجموعها تبين مقاييس العدالة التى كان العرب يتمسكون بها فى جاهليتهم .

وهناك أدلة لا حصر لها فى ثنايا الأخبار الباقية من ذلك العصر وكلها تشير إلى أن محالفات القبائل فى مصادماتها كانت تقوم على أساس ما تقرره قواعد العدالة المقررة بينها . حقا إن الفوضى كانت عامة وشاملة وكانت المصادمات بين الأفراد والقبائل لا تجد ما يكبحها من قوة دولة

مسيطرة أو هيئة ذات سلطان تفصل فى منازعاتها، ولكن القبائل كانت تهب من تلقاء نفسها إلى نصرة المعتدى عليه وتتحالف ضد المعتدى وكانت لديها حدود مقررة لمعنى الحق والواجب ومعنى العدالة والمروءة .

ولم تقتصر هذه الحدود المقررة على تحديد الحقوق والواجبات فى العلاقات بين القبائل بل كانت تشمل حقوق الأفراد ومن أمثلة ذلك ما اتفقت عليه قبائل قريش فيما بينها عندما وجدت أن بعض الأقوياء من أهل مكة يعتدون على الضعفاء، وهذا الاتفاق هو المعروف فى التاريخ بحلف الفضول وهو يقرر أن القبائل جميعاً تجتمع للأخذ بناصر الضعفاء وتحول بين الأقوياء وبين الاعتداء عليهم .

ومن القواعد التى كانت موضع الاحترام عند العرب جميعاً فى قانون العدالة العرفى بينهم ما أشرنا إليه من حق الجوار فإن الذي يلجأ إلى أحد الأفراد فى قبيلة كان يعتبر جاراً للقبيلة كلها .

وقد يطول بنا الحديث إلى مدى بعيد لو أردنا أن نبين ما تجلى فى العصر الجاهلى من قواعد السلوك ومقاييس القيم والمثل العليا من خلال حوادث الاضطراب والفوضى الشاملة التى سادت قبائل العرب فى هذا العصر . وقد صارت مجموعة هذه القواعد والمثل ميراثاً عاماً للعرب وكونت فى مجموعها قانوناً عرفيًّا يخضع الجميع له خضوعاً اختياريًّا ويلتزمون حدوده من تلقاء أنفسهم فكان الخروج عليه يعتبر عندهم شذوذاً شنيعاً يقابلونه بالإنكار ويعملون على إيقاع العقوبة الرادعة بمن يخرجون عليه .

ولكن أكبر المظاهر الدالة على شعور العرب بوحدتهم كانت تتجلى حين تتعرض بعض القبائل لاعتداء أجنبي من إحدى الدول المحيطة بجزيرتهم . وقد مر ذكر امتناع القبائل عن الحج إلى القليس وابتهاج العرب جميعاً بخيبة أبرهة فى هدم الكعبة فى عام الفيل. وهناك أمثلة عدة على تجلى هذا الشعور فى مناسبات عدة ، فقد اهتزت القبائل العربية جميعاً حين نجح سيف بن ذى يزن فى طرد الحبشة من اليمن بمساعدة الملك أنو شروان ملك الفرس واعتبرت ابن ذى يزن أحد أبطالها وذهبت وفودها إليه لتهنئته بانتصاره .

وكان من أوضح الأمثلة على شعورهم بالوحدة موقفهم من وقعة ذى قار التى وقعت بين الجيش الفارسى وبين بعض بطون قبيلة تغلب على الحدود الشمالية الشرقية لجزيرة العرب ، فقد اجتمعت قبائل الحدود ووقفت مع تغلب فى شعاب ذى قار وأحرزوا فيها نصراً باهراً على الجيوش الضخمة ذات العدد والعدة وكانت رمال الصحراء من أكبر الحلفاء التى ساعدتهم على الانتصار . وقد عدت قبائل العرب هذا الانتصار من مفاخرها وابتهجت به فى طول الصحراء وعرضها .

وقد تجمعت آثار هذا الشعور وبلغت ذروتها قبيل ظهور الإسلام حتى إنه ليحق لنا أن نقول إن نفوس العرب كانت قد نضجت للوحدة فى ذلك الوقت وتبلورت فيها مواريث عصر البطولة الجاهلى واستعدت للصقل والتهذيب والتجمع لتحقيق غاية حين يتهيأ لها وجود الدافع الذى

يدفعها إلى التجمع والتحرك . فليس ببعيد من هذا المعنى ما يردده مؤرخو العرب إذ يقولون إن العرب كانوا يشعرون قبيل ظهور الإسلام بقرب انبعاث رسول منهم يجمع كلمتهم ويوجه ما فيهم من قوى كامنة وينقى حياتهم من شوائب الفوضى والقسوة والعنف ويحقق معجزة ميلاد أمة عربية موحدة .

وكانت علاقة العرب بالدول المجاورة فى العصر الجاهلى تتسم بظاهرتين تبدوان متناقضتين ولكنهما فى الحقيقة ترجعان إلى سبب واحد وهو طبيعة الجزيرة التى يقيمون فيها . كانت بلاد العرب تتوسط العالم المعروف عند ذلك فإلى شرقها تقع دولة الفرس وما يليها من البلاد ذات المدنية العريقة كالهند والصين وإلى غربها تقع الأقاليم الفسيحة التى كانت تسيطر عليها دولة الروم . وكانت الجزيرة العربية تمد جناحين منها إلى الشمال يبرزان بين الدولتين الكبيرتين فارس والروم ، فأحد الجناحين هو العراق العربى الذى سيطرت عليه الدولة الفارسية منذ القرن الثالث للميلاد والجناح الآخر هو الشام الذى سيطرت عليه دولة الروم .

وكانت كل من الدولتين الكبيرتين المجاورتين للجزيرة العربية تتحكم فى شعوب عدة على طريقة تشبه طريقة الاستغلال الذى عرف فى القرن التاسع عشر بالاستعمار ، فكانت دولة الفرس تسيطر على مجموعة من شعوب العرب والأرمن فى العراق وعلى شعوب الديلم فى جوار بحر قزوين وعدد من شعوب الترك فيما يلى نهرى سيحون وجيحون ، وكانت

دولة الروم تسيطر على جانب آخر من الشعب العربى فى الشام وعلى مجموعة أخرى من اليونان والمصريين وشعوب شمال أفريقيا .

فكانت جزيرة العرب هى القطعة الوحيدة المستقلة فى موطن الحضارات القديمة بين الدولتين الكبيرتين وكانت رمالها الفسيحة تحميها من امتداد سيطرة هاتين الدولتين إليها . وقد تعود العرب أن يعتزوا بحريتهم وأن ينظروا إلى الشعوب الأخرى نظرة تنم عن الاعتداد بالنفس حتى قيل إن أمراءهم كانوا يأنفون أن يزوجوا بناتهم من ملوك غير العرب .

ولكن العرب لم يكونوا فى وقت من الأوقات منعزلين عن العالم الذى يحيط بهم من كل جانب ، بل كانوا بحكم موقع جزيرتهم فى وسط هذا الإقليم ، يدركون بأنهم أمة وسط بين الشعوب ، يتعاملون مع الجميع ويعرفون الشىء الكثير عن خصائص بلاد الإقليم كله . كانوا منذ عهد بعيد يحملون التجارة بين الشام ومصر وبين اليمن كما يحملونها بين فارس وبين البحر الأحمر .

وكانت سفن القبائل المقيمة على الشواطئ الشرقية والجنوبية تخوض البحار إلى سواحل آسيا الجنوبية والشرقية وإلى سواحل أفريقيا الشرقية . وهناك أدلة كثيرة على أن كثيراً من العرب كانت لهم صلات وثيقة ومعرفة دقيقة بالبلاد المجاورة فمنهم من كان يتردد على مصر ومنهم من كان يتردد على الحبشة ، بل إن منهم من أقام فى سواحل الهند وأفريقيا قبل الإسلام بعهود طويلة . وقد ترددت فيما بعد أقاصيص كثيرة فى أساطير

تعكس حقيقة هامة وهى أن طوائف من العرب جاست خلال بلاد أفريقيا وامتزجت بشعوبها كما جاست خلال أواسط آسيا وامتزجت بشعوبها ، فلم يكن العرب منعزلين عن العالم المحيط بهم رغم تحصنهم كأمة فى جزيرتهم والمحافظة على شخصيتهم واستقلالهم عبر القرون . ولم يخف عليهم أن شعوب البلاد المحيطة بهم فيما بين النهرين وفى الشام ومصر وشمال أفريقيا كانت جميعاً ذات حضارة مألوفة عند العرب وذات صلات قوية بهم وأنها كانت خاضعة لحكم أجنبى يتحكم فيها بالقسر والضغط وهى تتألم وتأنف من خضوعها لذلك الحكم وتحاول الثورة عليه وتود لو أتيحت لها الفرصة لرفع نيره عن رقابها .

لهذا لم يكن بعيداً عن تصور العرب أن هذه الشعوب المجاورة تعيش فى حالة قلق وتحفز للثورة على حكامها ، مع أنه لم يخطر ببالهم فى ذلك العصر أنهم يستطيعون التدخل فى شئون هذه الشعوب ، بل لم يخطر لهم أنه من الممكن لهذه الشعوب أن تتحرر من الدولتين المسيطرتين عليهما لما كان للدولتين من مظاهر القوة والمجد وما كانت كل منهما تملك من الثروة وما لكل منهما من الجيوش الجرارة . وفى الوقت عينه لم يكن يخطر لرعايا الدولتين الكبيرتين ولا لحكامهما أن الأمة العربية الممزقة فى قبائلها المتنافسة تستطيع فى يوم من الأيام أن تجمع شملها وتصبح أمة واحدة وتكون باجتماعها قوة يقام لها وزن إلى جانب الدولتين العظمتين المسيطرتين على الأقاليم المجاورة لها .

غير أن ذلك الذى لم يخطر لأحد من العرب ولم يخطر لأحد من أبناء الشعوب الخاضعة للروم والفرس كما لم يخطر لأحد من حكام الدولتين العظيمتين قد حدث فعلا على حين فجأة، فإذا هذه الأمة الممزقة الدامية فى حروب قبائلها المتحصنة وراء رمالها تتوحد بعد فرقتها وتكون دولة تجمع شملها وترفع علمها فى مدة لا تزيد على عشرين عاماً، فتقدم للتاريخ مثالا فذاً لحدوث معجزة لم يكن أحد يتوقعها .

ولما كان تاريخ الأمة العربية فى العصور التالية متصلا أقرب الاتصال بالشعوب المجاورة لها والدولتين المسيطرتين عليها كان علينا أن نلم بشىء من تاريخ نشأة الدولتين الكبيرتين ومنشأ علاقتهما بالشعوب الخاضعة لها ، وما آل إليه حكمهما من الفساد والانحطاط فى الوقت الذى كانت فيه الأمة العربية تستعد لتحقيق المعجزة بتوحيد شملها .

جيران العرب فى العصر الجاهلى

فى الوقت الذى كان فيه العرب فى جاهليتهم على الحالة التى أجملنا وصفها كان العالم المحيط بهم يفور ويستولى القلق الشديد على شعوبه لأسباب تختلف كثيراً عن أسباب القلق والفوران فى داخل الجزيرة العربية .

ولسنا نستطيع أن ندرك حقيقة ما كانت تشعر به هذه الشعوب من الضيق والشقاء بغير أن نلم إلمامة قصيرة بما كانت تعانيه من الآلام والإذلال على أيدى حكامها الجبابرة .

فالذى يتتبع نشأة الدولة الفارسية (الساسانية) لا يسعه إلا أن يدرك أنها قامت من مبدأ أمرها على أساس القهر والاستغلال . كان مؤسس هذه الدولة أردشير بن بابك مغامراً استطاع أن ينتزع الحكم فى إمارة صغيرة فى قلب هضبة إيران ، ثم أخذ يبسط سلطانه بالقوة على من يليه من الأمراء الذين تقسموا أقاليم الدولة الفارسية القديمة ، فى عصر ملوك الطوائف ، الذى أعقب استيلاء الإسكندر الأكبر على بلاد الفرس . وامتد ملك الساسانيين شيئاً بعد شىء ، نحو الشرق والغرب حتى أخضع

شعوب الترك شرقاً والديلم والأرمن شمالا وكان الشعب العربى المقيم فى العراق من بين هذه الشعوب التى غلبت على أمرها ودخلت بالقهر فى هذه الدولة الجديدة .

ولكن هذه الشعوب بقيت متحفزة للتخلص من سيطرة الدولة الساسانية فما كان يخلو حكم أحد ملوكها من حملات واسعة النطاق لإخضاع الثورات التى كانت تهب فيها الشعوب ثائرة بين حين وآخر لترفع عن رقابها نير الحكم الفارسى الشديد .

وكانت قبائل العرب الخاضعة للفرس من أكثر الشعوب ثورة على سادتها، فثارت مرة بعد مرة للتخلص من سيطرتهم وتعرضت لنكبات شديدة فى أعقاب ثوراتها إذ كان الملوك يقمعون ثوراتها ويوقعون بها أقسى صنوف التنكيل حتى لا تكون مثالا يشجع الشعوب الأخرى على الثورة . ومن أمثلة هذا التنكيل ما أوقعه الملك سابور ذو الأكتاف الذى أطلق عليه العرب ذلك اللقب لأنه كان يعذب شيوخ القبائل الثائرة بخلع أكتافهم وتقطيع أوصالهم .

ولكن المصادمات بين هؤلاء العرب وبين دولة الفرس المسيطرة عليهم لم تنقطع برغم هذا التنكيل فعمل ملوك فارس على تجنبها باستمالة أمراء العرب الخاضعين لحكمهم وكان مقرهم فى الحيرة على الحدود المتاخمة للجزيرة العربية ، فكان هؤلاء الأمراء أعواناً للفرس على تهدئة قبائل العرب عنهم كما كانوا أعوانهم فى حروبهم مع دولة الروم .

غير أن ذلك لم يكن كافياً لاستقرار الأمور بين دولة الفرس والعرب حتى إن الملك كسرى إبرويز بعث بحملة كبيرة لغزو العرب فى قلب جزيرتهم وكانت نتيجتها موقعة (ذى قار) التى أشرنا إلى انتصار قبائل العرب فيها .

ولم تكن الشعوب الأخرى الداخلة فى حدود دولة الفرس بأقل تحفزاً للخلاص من نير حكمها ، فكانت الثورات لا تكاد تنقطع فى إقليم أو آخر من الأقاليم وكان الملوك لا يحفظون هيبتهم إلا بتجريد الحملات الحربية على الشعوب لإخضاعها والتنكيل بها .

وليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يمكننا من ذكر تفاصيل الثورات التى كانت تهب فى داخل الدولة الفارسية من جانب الشعوب الخاضعة لحكمها رغبة فى الخلاص من طغيانها، ولكن المؤرخ العربى ابن جرير الطبرى يذكر فى تاريخه الكبير عبارات عامة تدل على مقدار ما اتصف به الحكم الفارسى من الفساد والظلم بصفة عامة .

قال الطبرى فى حديثه عن مدة حكم الملك سابور المعروف بذى الأكتاف إنه جرد حملة لإخضاع العرب الذين كانوا يقيمون على سواحل فارس الجنوبية وسواحل بلاد العرب الشرقية « فأفشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت به كسيل المطر . . . ثم عطف على بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب منهم فلحق بالرمال ثم أتى اليمامة ففعل بها مثل ذلك ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره ولا بجب من

جبابهم إلا طمه . ثم عطف على بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة الفرس والروم بأرض الشام فقتل من وجده بها من العرب . . . إلخ » .

وكانت نتيجة هذه القسوة أن العرب كانوا يتحينون الفرص للوثوب عليه مرة بعد أخرى ويوقعون به وبجيوشه خسائر فادحة حتى اضطر فى أواخر حكمه أن يترضاهم وعاد فأسكن قبائل تغلب وعبد القيس وبكر ابن وائل فى مقاطعات كرمان وتوج والأهواز .

وقال المؤرخ العربى نفسه فى حديثه عن مدة حكم الملك يزدجرد إنه كان سيئ الظن برعاياه شديد الإيقاع بهم حتى إنهم « اجتمعوا وشكوا ما ينزل بهم من ظلمه وتضرعوا إلى ربهم بتعجيل إنقاذهم منه » .

وقال فى حديثه عن الملك بهرام جور بن يزدجرد إنه قضى حياته فى حروب لإخضاع رعيته الثائرة وأنه خطب فى أهل مملكته أياماً متوالية حثهم فيها على لزوم الطاعة وأعلمهم أن نيته التوسعة عليهم وإيصال الخير إليهم وأنهم إن زالوا عن الاستقامة نالهم من غلظته أكثر مما نالهم من أبيه . . . » وفى هذا القول دلالة واضحة على أن رعيته كانت تتحفز للثورة عليه فهو يعدها بالخير إذا هى هدأت وأسلست له القياد ويهددها إذا هى ثارت بالعقوبة الشديدة التى لا تقل عن إيقاع أبيه بها .

وقد استمر ملوك فارس على عسفهم بالشعوب التى يحكمونها فكان لا يخلو حكم أحدهم من حملات حربية لإخضاع ثورة أو أخرى فى ناحية من نواحى الدولة حتى كاد حكم دولة ساسان يكون سلسلة متصلة

من الحروب الدموية فى داخل البلاد وخارجها . ويقول المؤرخ العربى عند حديثه عن حكم الملك كسرى (أبرويز) :

« إن كسرى طغى لكثرة ما جمع من الأموال وأنواع الجواهر والأمتعة ولكثرة ما غنم من بلاد العدو ، فبطر وشره شراهة شديدة وحسد الناس على ما فى أيديهم من الأموال . . . وسام عمالُه الناس سوء العذاب فاستفسدوهم بذلك وبغضوا إليهم كسرى وملكه .

وقال فى موضع آخر : « واحتقر كسرى الناس واستخف بما لا يستخف به الملك الرشيد الحازم وبلغ من عتوه وجرأته على الله أنه أمر رجلاً كان على حرس بابه الخاص أن يقتل كل مقيد فى سجن من سجونه فأحصوهم فبلغ ذلك ستة وثلاثين ألفاً » .

ويصف المؤرخ نتيجة هذه المظالم فقال إن الثورة هبت ضد كسرى حتى اضطر إلى الهروب لينجو بنفسه واختار الثوار ولده شيرويه ليكون ملكاً عليهم واضطروه إلى قتل أبيه .

وما كاد شيرويه يتولى الملك حتى قتل إخوته وكان عددهم سبعة عشر أخاً ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا فمات بعد ثمانية أشهر . واستمر العرش ينتقل سريعاً من ملك إلى آخر أسوأ منه وكل منهم ينتهى من حكمه بكارثة لانتشار الفوضى فى البلاد وفساد نوايا الشعوب نحو حكامها ، وعسف الحكام برعاياهم وفساد أخلاقهم .

فهذه اللمحات القليلة التى أوردناها من التاريخ تستطيع أن تبين

لنا صورة عامة مما بلغه حال دولة الفرس من الفساد والاضطراب في داخل أرضها وما بلغته حال الشعوب الرازحة تحت سيطرتها من البؤس والشقاء . أما دولة الروم فكانت نشأتها أشد اتصالاً بالسيطرة والاستغلال من نشأة دولة فارس، إذ بدأت روما كمدينة صغيرة أخذت تبسط سلطانها على القرى المجاورة ، وكانت تسكنها شعوب شتى تختلف عن شعب روما في الجنس وتمتاز عليه في الحضارة . وما زالت روما تمد حدود سلطانها حتى استولت على شبه جزيرة إيطاليا ثم أخذت توسع سلطانها على جزائر البحر الأبيض المتوسط إلى أن انتهى أمرها إلى التصادم مع دولة قرطاجنة في شمال أفريقية . وما زالت في حروبها مع هذه الدولة حتى قضت عليها قضاء تامًّا وأصبحت أكبر قوة في حوض البحر الأبيض المتوسط فما جاء القرن الأول للميلاد حتى كانت روما الصغيرة قد بسطت سلطانها على أعرق البلاد حضارةً وهي مصر والشام وبرقة وما يلي ذلك من السواحل، حتى وصلت إلى أقصى بلاد المغرب . فصار الروم بذلك سادة الشعوب ذات الحضارة العريقة على حين لم تكن لهم أصول عريقة في حضارة أصيلة ، فكان حكمهم لتلك الشعوب قائماً على القهر والعنف والإرهاب ، لا ينظرون إليها إلا نظرة المسيطر المستغل الذي يريد أن يمتص خيراتها ويكبلها بالقيود خشية من وثوبها للخلاص .

فكانت هذه الشعوب تشعر منذ بداية حكم الروم بقلق شديد من الحكم الأجنبي وبالأنفة من الخضوع لدولة تسومها الذل وتعاملها بكبرياء

الدولة المسيطرة . ولم يكن فوق هذا كله بين دولة الروم وبين هذه الشعوب رابطة حضارية تقرب ما بينهم ، إذ كان الرومان أجانب عن حضاراتها كما كانوا أجانب عن جنسها .

فبدأ حكم الروم للشعوب ذات الحضارة القديمة أجنبياً واستمر أجنبياً أكثر من ستة قرون .

وكانت نظرة دولة الروم إلى الشعوب المقهورة التى تسيطر عليها نظرة تجمع بين التعالى والاستغلال ، فكان الجيش الرومانى يظهر سطوة الدولة بأسوأ مظاهرها، وجباة الضرائب يستنزفون ما لدى الشعوب المقهورة من ثروة ليبعثوا بها إلى خزائن روما للإنفاق على أبهة الأباطرة وحاشيتهم، ومجموعة كبرى من الأعيان المترفين ، وجماهير صاخبة تعيش عاطلة فى العاصمة الكبرى (روما) تطلب من السادة ما يشبع نهمها من الخبز والخمر ومناظر اللهو الفظيعة . كانت المسارح الكبرى فى العاصمة ترتج بالجماهير المتزاحمة لمشاهدة المصارعات التى تنتهى بالقضاء على حياة المصارع المهزوم أو لمشاهدة المصارعات بين الوحوش المفترسة أو المصارعات بين هذه الوحوش المفترسة وضحايا البشر الذين أوقعهم نكد الحظ تحت غضب أولى الأمر القساة . وما زالت مناظر اللهو تتنوع وتزيد فظاعة كلما زاد حكام الدولة طغياناً وزادت الجماهير العاطلة وحشية . وانحدرت مقاييس القيم شيئاً بعد شىء فى الدولة الرومانية حتى بلغت من الانحطاط ما لا يكاد يوجد له مثيل فى أشد الشعوب الهمجية وحشية . وكان لهذا

أثره فى زيادة حرص حكام الدولة الرومانية على سلب خيرات الشعوب الخاضعة لهم وزيادة التعسف فى حكمهم .

وقد صور المؤرخ الإنجليزى (جيبون) ما وصلت إليه روما — شعباً وحكومة — من الانحطاط تصويراً مفصلا فى تاريخه الكبير الذى عنوانه « انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها » ونرى من المناسب أن نأتى هنا ببعض فقرات منه : قال :

« كان ظلم الأغنياء يزيح الأعباء الجائرة عن أنفسهم ويلقيها على العامة من الشعب ، فكان الأغنياء يسلبونهم ويخدعونهم حتى لقد بلغ من شدة وطأة ديوان مصادرة الأموال فى اغتصاب أموال الناس وإيقاع ألوان العذاب عليهم أن كان رعايا الإمبرطور (فالنتين) يؤثرون حكم البرابرة وهو أخف هولاً بالنسبة إليهم ، أو يلجأون إلى الغابات والجبال هرباً بأنفسهم . بل إنهم كانوا يضطرون إلى الهبوط إلى أدنأ مراتب الإنسانية ويرضون أن يصيروا عبيداً مسخرين للسادة . وقد أدى هذا إلى أن عامة الشعب كرهت لقب المواطن الرومانى وتبرأت منه ».

وقال المؤرخ فى حديثه عن مناظر الملاهى الرومانية :

« إننا لو قصرنا النظر على صيد الحيوانات الوحشية مهما أنكرناه وكرهنا ما فيه من قسوة ، لاكتفينا بأن نعترف بأنه ما من أمة قبل الرومان ولا بعدهم بذلت من التفنن والإنفاق ما أسرفت فيه الدولة الرومانية على صيد الوحوش لتسلية أهلها » .

وأخذ المؤرخ يصف فى تفصيل كيف كان المسرح الفسيح يعد لعرض قتل الوحوش وكيف كانت تنقل إليه الأشجار الضخمة حتى يصير مثل غابة ثم تحشد فيه أنواع الوحش . ويقول بعد ذلك :

« وتقع المأساة فى اليوم التالى وهى تتمثل فى قتل مائة أسد وعدد مماثل من أنثى الأسد ومائتى فهد وثلثمائة دب » .

وقد بلغ عدد ما قتل من الوحوش فى معارض اللهو الشعبية مئات الألوف كما بلغ الضحايا من البشر المظلومين الذين قتلوا فيها أضعاف ما قتل من الوحوش .

وقد صور المؤرخ الإنجليزى حياة القسطنطينية فى حكم الإمبراطور جستنيان فبين مقدار ما آلت إليه حالة الدولة وسادتها وأعيانها من الفساد والانحلال الخلقى إلى جانب ما انحدرت إليه من الطغيان والظلم بأهل البلاد والشعوب الخاضعة للإمبراطورية، ولسنا نستطيع أن نذكر هنا كل ما قاله المؤرخ الإنجليزى من وصف هذا الانحطاط الخلقى ، ولهذا نكتفى ببعض ما قاله محاولين أن نخفف من شدته بما لا يذهب بقصد المؤرخ . قال فى صدد حديثه عن المرأة التى صارت فيما بعد زوجة الإمبراطور جستنيان وهى (ثيودورا) :

« نشأت ثيودورا ابنة لأسرة فقيرة ، والتمست رزقها من العمل على مسارح العاصمة الكبرى . وكانت حسناء بارعة الجمال ولكنها تمثل عصرها فى الانحدار الذى هوى إليه فى الأخلاق . . . كانت فى أول

حياتها تعرض محاسنها لطلاب المتعة وهم جمع مختلط من أهل العاصمة ومن الأجانب الذين كانوا يفدون عليها من كل مرتبة اجتماعية ومن كل مهنة . . .

فلما سيطرت على مباهج العاصمة تنازلت فرضيت أن تصاحب أحد أعيان مدينة صور ، وكان قد عين حاكماً على أنطابوليس (برقة) ولكن هذه العلاقة لم تدم طويلا ، فذهبت إلى الإسكندرية حيث قضت حيناً فى بؤس شديد ثم عادت إلى القسطنطينية مجهدة وكانت تعرض محاسنها على أهل كل مدينة تمر بها . . . وكانت تحاذر فى مهنتها الغامضة أن تقع فى المحذور الذى كانت تخشاه وهو أن تعقب نسلا ، ولكنها مع ذلك صارت أمًّا مرة واحدة فجاءت بولد لأب عربى ، عرف فيما بعد أنها أمه » .

ويمضى المؤرخ بعد ذلك فيتحدث عن ذلك الولد كيف ذهب إليها بعد أن صارت ملكة وشريكة للإمبراطور العظيم جستنيان فى حكم الدولة الرومانية العظيمة وكيف أنه دخل إلى قصرها بدعوة منها ثم لم يخرج منه ولم يعثر له على أثر فيما بعد . فهى على قول المؤرخ جديرة بأن تكون قاتلة ولدها ، كى تخفى سرًّا يعرض مكانتها للأقاويل فى العاصمة .

ويستمر المؤرخ الإنجليزى فى وصف ثيودورا زوجة الإمبراطور العظيم فيقول عنها :

« فأصبحت هذه المرأة (. . . .) معبودة كملكة وهى التى دنست

مسارح قسطنطينية فى وسط جموع لا حصر لها من النظارة . وسارع إلى تكريمها علية القوم من حكام عظام ورجال دين أتقياء وقواد مظفرين وملوك أسرى» .

ويتحدث المؤرخ نفسه عن امرأة أخرى وهى زوجة أكبر قواد جستنيان القائد المظفر بلزاريوس . واسم امرأته (أنطونينا) فيقول :

« كانت أم أنطونينا إحدى راقصات المسرح ، ولكنها (أى أنطونينا) استطاعت أن تكون رفيقة للملكة (ثيودورا) ثم صارت بعد ذلك عدوتها ثم صارت خادمة لها ، فأقرب المقربات إليها . وكانت قبل زواجها من بلزاريوس متزوجة من رجل آخر ولكنها لم تخلص له .

ويمضى المؤرخ فى وصف مسالكها الشائنة وهى زوجة للقائد الكبير فيصف كيف فاجأها الزوج يوماً وهو على رأس الجيش الرومانى فى شمال أفريقيا ، وكانت متلبسة بجريمة الخيانة مع أحد الشبان . ولكنها بهتت زوجها واستطاع الشاب شريكها فى الخيانة أن يرتدى ملابسه ويخرج ، واستطاع القائد الكبير أن يكذب عينيه ويغضى عن جريمة امرأته .

هكذا يتحدث المؤرخ الكبير عن زوجة القائد المظفر الذى كان الرجل الثانى فى الدولة ، فلا يسع القارئ لهذا الوصف إلا أن يعجب أن تكون هذه حالة الدولة المسيطرة التى تتحكم فى بلاد الشرق ذات الحضارة العريقة ومقاييس القيم العليا .

لهذا تعددت المصادمات طوال حكم الرومان لهذه البلاد بين الشعوب وحكامها وكم أدت هذه المصادمات إلى كوارث وآلام وكم أدت إلى إراقة دماء وتعذيب شهداء .

وكان أباطرة الروم الأول يأمرون الشعوب بعبادتهم كآلهة على عادة الوثنية القديمة التي تؤله الملوك، فإذا رفضت الشعوب ذلك أوقع الأباطرة بها إيقاعاً شنيعاً . فلما ظهرت المسيحية لاذت بها هذه الشعوب ورفضت عبادة الأباطرة رفضاً صريحاً فقابل الأباطرة هذا الرفض بالاضطهاد واعتبروا المسيحيين ثواراً على الدولة وقوانينها وأوقعوا بهم أشد أنواع التنكيل عقاباً لهم على رفض العبودية .

ولكن المسيحية انتشرت بين الشعوب برغم هذه القسوة وكان انتشارها سريعاً بين أهل الشام ومصر وشمال أفريقيا فبدأت سلسلة من سطوات العسف والظلم الذى لم يسبق له مثيل فى الشناعة ، فأزهقت أرواح ألوف من الشهداء وما زال التاريخ القبطي يذكرنا بهؤلاء الشهداء الذين راحوا ضحية اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس .

ولم يقتصر اضطهاد الروم لأبناء الشعوب المقهورة على عهود الأباطرة الوثنيين فقد استمر الاضطهاد بعد أن اعتنق الأباطرة الدين المسيحى ، فإن الشعوب المقهورة ميزت نفسها عن الدولة المسيطرة عليها باتباعها لمذهب دينى خاص بها . وحاول الأباطرة إرغامها على اتباع المذهب الرسمى ولكنها أصرت على التمسك بمذهبها الخاص ، فلجأت

الدولة إلى العنف مرة أخرى وأوقعت بأتباع المذاهب المخالفة للمذهب الرسمى صنوفاً من التنكيل والتعذيب لا تقل فى شناعتها عن تنكيل الأباطرة الوثنيين بالمسيحيين الأوائل من أبناء هذه الشعوب . فكانت البلاد الخاضعة للدولة الرومانية من الشام إلى المحيط الأطلنطى مسرحاً دامياً تتمثل فيه أبشع مناظر القسوة الوحشية .

إذن فقد كانت النفوس فى كل أنحاء الإقليم الخاضع لدولتى الفرس والروم ثائرة قلقة ، شعوب كارهة لحكامها محتقرة لهم سيئة الظن بهم تشعر بأنهم ليسوا منها ولا يمتون إليها بصلة فى الحضارة ولا فى العواطف ولا القيم . وكان الحكام من ناحية أخرى يعرفون ما تنطوى عليه قلوب هذه الشعوب من الكراهة لهم وهم يشعرون بالتعالى عليها ولا ينظرون إليها إلا كشعوب مسخرة لا غاية لحكمها إلا ابتزاز ما لديها من الثروة لينفقوا منها وتنفق منها الدولة وأعيانها على ما هم عاكفون عليه من اللهو والترف . فلم يكن لهذه الحال من مآل إلا إحدى نهايتين فإما أن ترغم الشعوب على التخلى عن شخصيتها وحريتها وتنسى كل ماضيها العريق وتقلع عن المقاومة وتستسلم للعبودية وإما أن تصبر على المكاره وتتحمل ما يصب عليها من العذاب وهى محتفظة بروح المقاومة حتى تتاح لها فرصة تمكنها من القضاء على حكم الطغيان الذى يعذبها . وقد اختارت هذه الشعوب الخطة التى أملاها عليها تاريخها وعراقة حضارتها. فصبرت وتحملت أقسى صنوف الأذى ، وحاولت الثورة على الطغاة مرة بعد مرة برغم ما كانت الدولة

تحشده لها من القوة لإخماد ثوراتها ، وبقيت تترقب الحوادث وتنتظر الفرص التى تمكنها من الخلاص مما هى فيه من العذاب .

وفيما كانت الشعوب المسكينة ، تقاسى الآلام تحت وطأة حكم الروم والفرس طوال عدة قرون ، كانت الدولتان المستعمرتان لا تنقطعان عن إثارة الحروب فيما بينهما ، وكانت ويلات تلك الحروب تزيد هذه الشعوب البائسة بؤساً . لم تكد تنقطع الحرب بين الدولتين منذ القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس ، وكانت كل منهما تتقلب بين النصر حيناً والهزيمة الطاحنة حيناً آخر ، وقد اتخذت هذه الحروب فى القرن السادس صورة أبشع مما سبق لها لتمكن الحقد والغل من الجانبين فتحولت الحروب من مواقع قتال بين جيشين إلى حروب إبادة وتدمير شاملين . وكان العرب بحكم موقع بلادهم المتوسط بين الدولتين يجدون فرصاً كثيرة للاشتراك فى هذه المعارك المتبادلة كما يجدون فيها فرصاً كثيرة للاطلاع على ما آلت إليه حال الشعوب الخاضعة للدولتين من البؤس والشقاء .

الدور الثانى من حياة الأمة العربية

١ ــ الرسالة الجديدة

بينما كانت الحروب ثائرة بين دولتى الروم والفرس وكل منهما تريد القضاء على الأخرى لتنفرد بالسيطرة على الشعوب ، كان العرب يتابعون تقلب الحوادث فى دهشة ويتساءلون فيما بينهم ماذا يكون مصير ذلك الصراع العنيف . كان صراع الدولتين الكبيرتين أشبه شىء بموجات المد والجزر فتصطدم جيوشهما الجرارة وتتدافع كالموج المضطرب ، فتنحسر جيوش الفرس تارة وتتبعها كتائب الروم حتى تصل إلى طيسفون عاصمة الفرس ثم ترتد جيوش الروم متقهقرة وترتد عليها كتائب الفرس فتجتاح الشام ومصر وآسيا الصغرى وتصل إلى قريب من البوسفور وتوشك أن تثب عبر الخليج إلى القسطنطينية عاصمة الروم .

ولم يقتصر العداء بين الفرس والروم على شن تلك الحروب المدمرة فى أرضهما بل كانت كل منهما تعمل على إثارة المتاعب للأخرى فى ميادين أخرى بعيدة عن بلادهما ، فالإمبراطور الرومانى جستنيان يحرك الحبشة لتغزو بلاد اليمن ويساعدها على غزو قلب الجزيرة العربية كى يتخذ بلاد العرب منفذاً إلى ثغور الفرس من ناحية البصرة وكى يحشد فرسان العرب للقتال فى أسفل بلاد أعدائه ليضربوا فى ظهورهم فى وقت

هجومه على بلادهم من الشمال ، والملك الفارسى الكبير أنوشروان عدو جستنيان الرهيب يبعث بكتيبة من جيشه لتحارب الأحباش وتحرض عرب اليمن على قتالهم وطردهم من جنوب الجزيرة العربية . ولما هزم الأحباش وطردوا من اليمن أبقى أنوشروان طائفة من جنده فى اليمن وأقام عليها والياً من قبله كى يكفل السيطرة على مداخل البحر الأحمر من الجنوب ويهدم سيطرة أساطيل الروم على مياه ذلك الطريق المائى الهام الذى يصل بين الشرق والغرب .

فالقتال الذى طال عهده بين الدولتين أصبح فى القرن السادس الميلادى صراعاً مستميتاً كان لا يمكن أن ينتهى إلا بهلاك إحدى الدولتين .

وقد حدثت فى أثناء هذه الحرب الضروس حادثة لم يفطن إليها أحد فى ضجة الحوادث لأنها كانت لا تزيد على ميلاد طفل وضعته سيدة من أسرة شريفة فى مكة وهى آمنة بنت وهب التى فجعت وهى حامل بموت زوجها الشاب النبيل الجميل عبد الله بن شيخ قريش الحكيم عبد المطلب بن هاشم . وكان مولد هذا الطفل اليتيم فى عام الفيل بعد أن ارتدت جيوش أبرهة عن مكة عائدة إلى صنعاء بالخيبة والوباء الغامض يفتك بها ويصرعها مثل عصف مأكول .

وعلم شيخ قريش بميلاد حفيده فأسرع إليه ليضمه إلى صدره ويتخذه ولداً فى مكان ابنه عبد الله الذى عجل الموت إليه فى عودته من

رحلته إلى الشام . واختار الشيخ لحفيده اسمًا نبيلاً لم يسبق إليه إلا قليل من العرب وهو (محمد) ، وكان أهل مكة عند ذلك فرحين بالنجاة العجيبة التى دبرتها لهم الأقدار بتحطيم جيش أبرهة .

واستمرت الحرب الهائلة بين الروم والفرس وكانت القوافل الآتية من الشمال تحمل إلى قلب الجزيرة العربية آخر أنبائها وهى تدل على انتصار الفرس حينا وعلى انهزامهم حيناً آخر والحياة تمضى فى سبيلها فى الجزيرة العربية وشيخ قريش يضم حفيده إليه ولا يكاد يفارقه، حتى إذا بلغ الطفل الخامسة أو السادسة من عمره امتحنته الأقدار بموت أمه النبيلة وهى فى عنفوان شبابها ، فصار الشيخ أشد لهفة على حفيده حتى كان يفزع كلما افتقده ولم يجده قريباً منه فلا يهدأ قلبه حتى يجده . وكانت عينه البصيرة ترعاه وترقب حركته وتتوسم فيه أنه سيكون رجلا عظيماً . ولما بلغ الطفل اليتيم الثامنة من عمره مات جده الرحيم فبقى فى كنف عمه شقيق أبيه (أبى طالب) بن عبد المطلب ، فكان مثل أبيه رفيقاً به لا يرتاح إذا غاب محمد عنه ، فإذا ذهب إلى رحلة من رحلاته إلى الشام للتجارة وتعلق به الطفل لم يتردد فى أن يصحبه ويفيض عليه من بره وعطفه ما يجعله يشعر بدفء الأبوة الرحيمة .

وكبر الصبى فكان يرعى الغنم مع بعض لداته من صبيان قريش ثم كبر فاشتغل بما يشتغل به الشباب من قومه فى التجارة حتى بلغ سن الخامسة والعشرين وقد عرف بين الناس بالصدق والأمانة وكرم الخلق

والوفاء . وكان فى مكة امرأة من ذوات الشرف والثروة وهى السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت مثل الموسرات من نساء مكة تشتغل بالتجارة فتستأجر بعض الرجال ليتجروا بمالها على أن يكون لهم نصيب من الربح ، فعرضت على محمد أن يخرج إلى الشام للتجارة بمالها على أن تعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره من التجار . وبعثت معه بغلام لها اسمه (ميسرة) ليساعده فى فى عمله أو ليحمل إليها الأنباء عما يرى من خلاله ، فلما رجع محمد من رحلته وباعت السيدة ما حمله إليها من المتاجر ربحت ربحاً عظيماً وأخذ خادمها يحدثها بما شهد من نبل خلق محمد وسماحته . فعرضت السيدة نفسها على محمد كى يتخذها زوجة، وكان زواجه منها خير ما وفق إليه فى حياته إلى ذلك الحين إذ كانت خديجة مثالاً أعلى للزوجة الصالحة الوفية الحكيمة .

وكانت حياة محمد فى بيته صورة من صور السعادة والسلام والطمأنينة ، فكان يخلو إلى نفسه بعيداً عن مكة ليتعبد ويتأمل ويفكر حتى إذا بلغ الخامسة والثلاثين كان قد عرف بين قومه بالزهد والورع فوق ما سبق لهم أن عرفوه عنه من الصدق والأمانة والنبل والوفاء . وأرادت قريش أن تعيد بناء الكعبة لتجددها بعد تلف أصابها ، وأعدت للبناء عدته وهدمت المبنى القديم حتى بلغت به الأساس وأخذت تقيم البناء الجديد حتى وصلت إلى مكان الحجر المقدس الذى كان يروى أنه بقية من أول بناء للكعبة وهو الحجر الأسود ، فاختلفت بطون القبيلة فيمن يكون له شرف

وضع ذلك الحجر فى مكانه . واشتد الخلاف بين زعماء البطون حتى كاد يؤدى إلى القتال ، فاقترح أحد عقلائهم أن يحكموا أول من يقبل عليهم من داخل المدينة وكان محمد هو ذلك الرجل . فحكم بينهم بأن يوضع الحجر فى ثوب ويشترك ممثلو البطون جميعاً فى رفعه إلى مكانه ، فلما بلغوا به مكانه أزاحه محمد بيده فوضعه به وتيمن قومه بذلك لثقتهم فيه وتقديرهم لفضله .

ثم بلغ محمد سن الأربعين وبدأ الوحى ينزل عليه يأمره بأن يدعو الناس إلى تطهير نفوسهم من نقائصها وفتح عقولهم إلى أسرار الوجود ، وكانت السنوات الأربعون التى مرت من حياته إرهاصاً لتاتى هذه الرسالة العليا ، لأنها صفت نفسه وصقلتها وهذبتها . فقد ولد يتيماً من أبيه ثم لم يلبث أن صار يتيماً من أمه وهو طفل ، ثم مات جده الذى احتضنه منذ ميلاده وهو ما يزال صبيًّا ، فكانت هذه الحوادث تكشف له حقائق الحياة مجردة وتحمل قلبه الصغير على مواجهتها بمشاعر أرهفها الحزن وأحاسيس غسلتها الدموع وتجعل عقله يتنبه إلى أنه وحيد لا يستند إلى ثروة موروثة ولا إلى غرور جاه ولا إلى كبرياء سلطان . فكان من أعمق مشاعره أن الله تعالى هو الذى أحاطه بعنايته منذ وجده يتيماً فآواه ووجده ضالا فهداه ووجده عائلا فأغناه وعوضه عن كل ما نزل به من الآلام بعقل صاف يفكر فى الحقائق المجردة حتى يجلوها ونفس طاهرة تجعل له فى قلوب الناس منزلة تفوق منزلة أصحاب الجاه الموروث والسلطان القاهر .

ولو أراد محمد وهو فى سن الأربعين وكمال العقل والرجولة أن يسعى إلى مجد الحياة أو إحراز الثروة لكان ذلك من أيسر الأمور عليه فقد عرف قومه فضله وأمانته وكان يستطيع أن يبلغ من السيادة فيهم ما يؤهله له شرف نسبه وشرف نفسه وكان يستطيع أن يبلغ من الغنى ما تؤهله له ثقة الناس فيه ، ولكنه حين تلقى الوحى الذى يأمره بدعوة الناس إلى تطهير نفوسهم وإزالة غشاوات الغرور والجهل والخرافة عن عقولهم لم يلتفت إلى شىء مما يغرى بالراحة والعافية والمجد الدنيوى وامتلأ قلبه إيماناً بأن قيامه بهذه الدعوة هو الغاية التى أعدها له الله تعالى لحياته . ولقد أشفق فى أول الأمر من تحمل عبء هذه الدعوة واعترته رهبة شديدة منها إذ كان يدرك ما يتطلبه القيام بها من مواجهة الشدائد ومعاناة المتاعب فقد كان يعرف أنه سيبدأ بدعوة عشيرته وقومه الأقربين من قريش وهم قوم أشداء استطاعوا لشدة بأسهم أن يكونوا أقوى قبائل العرب وأبعدهم صيتاً وأكثرهم غنى ، وقد أقاموا حياتهم على قواعد ثابتة من تقاليد العرب فى الجاهلية والإباحية الخلقية للأفراد ، فكان يعرف منذ نزل عليه الوحى بدعوة الناس إلى الحياة المطهرة أنه سيلقى عنتاً شديداً من زعماء قومه وأنهم سيتنكرون له ويجحدون فضله ويناصبونه العداوة حرصاً على نظام حياتهم الذى ألفوه وأقاموا عليه سيادتهم ومجدهم ، بل إنه كان يعلم أن هؤلاء الزعماء سيؤلبون عليه عامة القوم الذين يسيطرون عليهم فيحشدونهم لمقاومة دعوته . واختار محمد بغير تردد أن يصدع بالدعوة التى أمره الله تعالى

بإبلاغها ، وكانت زوجته الوفية الحكيمة خديجة أول من آمن بها وشجعه على المضى فيها .

ولم يلبث أهل مكة أن أخذوا يتحدثون عن محمد الذى عرفوه وعرفوا نسبه ومكانته فيهم واختلفت آراؤهم فيما سمعوه منه بعد أن أعلن أنه مكلف بإبلاغهم رسالة أمره الله بأن يؤديها إليهم . فكان بعضهم يستمع إلى الآيات التى يقرؤها عليهم فتصل إلى أعماق قلوبهم فتهزها وتدخل إليها أشعة وضاءة من الأمل والإيمان والسمو وكان البعض الآخر يسمع بها فيحس بما تنطوى عليه من الخطر عليه وعلى سيادته وأطماعه . كانت هذه الآيات تذكر الناس بأنهم مخلوقون من عنصر واحد فليس فيهم من خلق ليكون سيداً ومن خلق ليكون مسوداً وأن المفاضلة بينهم تكون بمقدار ما يتصف به كل منهم من مكارم الأخلاق لا بمقدار ما يكون عنده من المال أو ما له من الجاه والسلطان ، وكانت تدعوهم إلى عبادة إله واحد يعرف كل صغيرة وكبيرة ولا تخفى عليه خافية فى الضمائر وهو يحاسب الناس ويجزى المحسن بإحسانه ويجزى المسىء بإساءته سواء كان عظيماً بين قومه أو ضعيفاً فيهم وتدعوهم إلى الاستقلال فى الرأى والاعتداد بالنفس فلا ينبغى لأحد أن يقبل الذل ولا أن يستخذى للقوة بل يأمر كل مستضعف إلى الهجرة من موطن الهوان كى يستعيد كرامته فى أرض الله الواسعة . وأحس السادة فى مكة بالخطر الذى يهدد سلطانهم فأخذوا يتنكرون لمحمد ، وللدعوة الجديدة التى جاء بها لإقامة الحياة على أساس

من المساواة والحرية والعدالة بين الناس . وقد بلغ منهم الضيق بالرسول مبلغاً لم يستطيعوا الصبر عليه حين دعاهم إلى التخلى عن أنانيتهم وكبريائهم دعوة صريحة ، وغضبوا أشد الغضب لما كانت آيات القرآن الكريم تعنفهم به على ضلالهم فى الحياة وما كانت تنذرهم به من العقاب إذا استمروا على ما هم فيه من الظلم والجحود . وفى أثناء تحفز زعماء مكة لهذه الرسالة الجديدة جاءتهم الأنباء عن موقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس وعدتها القبائل جميعاً نصراً مؤزراً للعرب على الدولة الكبرى الباغية المسيطرة على الشعوب ، فأعلن الرسول عليه الصلاة والسلام اغتباطه بذلك النصر وعده انتصاراً لدعوة الوحدة العربية التى تدعو إليها رسالته ، ولكن زعماء قريش لم يظهروا اغتباطاً بها فكان موقفهم منها مخالفاً لموقفهم من انتصار اليمن على الحبشة . بل إنهم أظهروا ابتهاجاً عظيماً حين جاءتهم الأنباء بما أصابه الفرس من الانتصار فى حربهم المستميتة ، لأن الفرس كانوا أقرب إليهم من الروم فهم يعبدون النار ولا ينكرون على الوثنيين عبادة آلهتهم فكانوا يعللون أنفسهم بأن الفرس إذا انتصروا على الروم وصاروا سادة العالم لم يدعوا فرصة لمحمد أن ينشر رسالته التى تزلزل الأرض من تحت سلطانهم . وواصلت جيوش فارس تقدمها ففتحت الشام ومصر وزحفت على آسيا الصغرى حتى نزلت بشواطئ خليج البسفور توشك أن تعبر إلى القسطنطينية عاصمة دولة الروم فأعلن سادة قريش شماتتهم فى الدولة التى تؤمن بالمسيح وهو النبى الكريم الذى أشادت به آيات القرآن

الكريم، وظنوا أن انتصار الفرس على هذه الدولة يحمل فى طياته معنى خذلان أتباع المسيح وما أحراه أن يكون مقدمة لخذلان رسالة الإسلام التى دعا محمد إليها، وانتظروا النهاية التى توشك أن تكون محتومة حين يدخل كسرى أبرويز على رأس جيوشه إلى عاصمة الروم الكبرى ليقيم عليها والياً من قبله كما فعل جده أنوشروان حين هزم الحبشة فى اليمن وأقام عليها والياً من قبله يحكمها باسمه .

ولكن الدعوة الإسلامية كانت قد استقرت فى قلوب المؤمنين بها وهم ما يزالون قلة فى مكة، وأنزلت على الرسول آية الروم التى تبشر بعودة الريح إلى جيوش الرومان وأنهم « من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فآمنوا بما بشرت به الآية من أن الروم منتصرة بعد حين بغير شك . ولكن الذين لم يؤمنوا برسالة الإسلام سخروا من الآية الكريمة وتندروا بها فى مجالسهم وبلغ من أحدهم العجب أو الغيظ أن ذهب إلى أبى بكر الصديق صاحب الرسول وأول من آمن بالرسالة السامية فراهنه على عشر نياق إن تغلبت الروم حقاً أخذها أبو بكر وإن تم النصر لفارس أخذها الرجل منه . فقبل أبو بكر ذلك التحدى بعد أن زاد قيمة الرهان من عشر نياق إلى مائة .

وكانت إحدى العجائب المعجزة أن جيوش فارس المنتصرة التى بلغت شواطئ البوسفور واستولت على الشام ومصر لم تلبث أن عادت مدحورة إلى بلادها وكرت جيوش الروم المهزومة فانتصرت عليها أعظم الانتصار

واستردت ما استولى عليه الفرس من البلاد وانطلقت فى بلاد فارس حتى بلغت قريباً من العاصمة طيسفون .

فلم يزد هذا الانقلاب العجيب سادة قريش إلا حنقاً وسخطاً ولم يكن أحد منهم يحسب فى أبعد ظنونه أن ذلك الدين الجديد الذى بعث به محمد سيكون فى بضع سنين أكبر معجزة ظهرت فى العالم على مر العصور والدهور ، وأن الدعوة التى بدأ النبى يدعوهم إليها ولا يزيد أتباعها على عشرات من الناس ستكون بعد قليل أعظم دعوة إنسانية بعثت إلى العالم ، وأنها ستتيح للعرب أعظم فرصة أتيحت لأمة أن تكون هى حاملة رسالة هذه الدعوة الإنسانية السامية إلى شعوب العالم جميعاً ، بعد أن توحدهم لأول مرة فى تاريخهم الطويل وتضمهم جميعاً لأول مرة تحت علم واحد ولتحقيق غاية واحدة هى نشر الرسالة الجديدة بين الناس جميعاً .

وكان سادة قريش منذ ضاق صدرهم بدعوة الإسلام وما توجهه إليهم آيات القرآن من التعنيف قد عمدوا إلى إثارة أهل مكة على المؤمنين الضعفاء الذى سارعوا إلى تلبية الدعوة الإسلامية فكانوا يضطهدونهم أنكر الاضطهاد ويعذبونهم أشد العذاب فى وحشية تعيد سيرة وحشية الوثنيين الرومانيين فى تعذيب المسيحيين الأوائل ، ولكن المؤمنين كانوا يصبرون على هذا الأذى الشديد ولا يخضعون لإرادة مضطهديهم فى النكول عن إيمانهم فاتجهوا إلى الرسول نفسه بالأذى وحرضوا عليه السفهاء من العامة ؛ فكانوا يحاولون الاعتداء عليه بكل ما اجترأوا عليه من وسائل السخرية

حيناً، والسب أو إيقاع الأذى حيناً آخر ، ولكن شخصية الرسول كانت من أكبر العوامل على كبح جماحهم عنه ، ومضى فى إبلاغ رسالته والدعوة إلى الإسلام غير عابئ بما يحاول هؤلاء السفهاء أن يلحقوه به من الأذى وكان لا يعتمد فى نشر دعوته إلا على قوة الحق الكامن فى رسالته . والإسلام قائم على السلام الذى يملأ قلوب المؤمنين بالثقة والاطمئنان إلى الحق، فلا يعتمد فى الدعوة على قوة سوى قوة الحق، ولا يحتكم إلى مبدأ سوى مبدأ العدالة . فاستمر الرسول يدعو قومه إلى أن يفتحوا أعينهم إلى ما حولهم لأن كل ما حولهم من آيات الله ، ويدعوهم إلى أن يعرفوا نسبتهم إلى الكون الذى يحيط بهم كى يشعروا بالعلاقة الوثيقة بينهم وبين هذا الوجود. فالتأمل والبحث والمعرفة من الواجبات التى دعا إليها الإسلام لأنها هى الوسائل التى تؤدى إلى الاطمئنان والسلام ، والحقيقة عند الإسلام هى غاية التفكير وهى فى الوقت عينه وسيلة إلى غاية أسمى منها وهى الإيمان والاطمئنان والسلام .

وقد دعا الإسلام إلى الأخوة الإنسانية ووكد هذه الأخوة أعظم التوكيد . فالله خلق الإنسانية من أصل واحد وجعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيما بينهم ويتعاونوا، لا ليتعادوا ويتفانوا، ودعا إلى المساواة بين البشر فليس فيه تفرقة بين سيد ومسود ولا بين لون من الخلق ولون آخر ، بل الخلق جميعاً سواسية كأسنان المشط وإنما يكون التفاضل بينهم بقدر ما يكون حظ كل منهم من التقوى ، وما التقوى فى حقيقتها إلا الحرص

على المكارم والبعد عن الرذائل والمظالم .

وشعار الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الذى لا ينبغى لأحد أن يشرك معه غيره من آلهة زائفة ولا أن يخضع لإرادة غيره مهما بلغ من السيطرة وعظمة السلطان ، هو الله الذى خلق الأكوان وهو الذى أنشأ الوجود ، وهو الذى يدل على وجوده كل كائن من الكائنات والذى تتمثل قدرته فى كل ظاهرة من الظواهر فى الأرض أو فى السموات . قد دعا الإسلام الناس إلى أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لتأمل ما فى الوجود ليروا فيه البرهان على وجود الله ، كما دعاهم إلى التفكير فيما بينهم وبين أنفسهم كى يعرفوا حقيقة ما جاءت به رسالته من الآيات . فالله يعلم كل ما ينطوى فى الضمائر ، وعلمه يحيط بكل ما فى الوجود مهما بلغ من الدقة أو الخفاء . وكل فرد موكول إلى ضميره فلا رقيب عليه سوى هذا العلم الإلهى المحيط بالوجود كله ، وكل فرد مسئول عن تصرفه فلا سيطرة لأحد عليه سوى إرادته التى توجهه إلى الخير إن كان يريد لنفسه الخير أو توجهه إلى الشر إن كان يريد لنفسه الشر .

فكان ما تنطوى عليه رسالة الإسلام من العدل والاعتدال وتحكيم العقول فى شئون الحياة والتحرر من قيود الجمود والنظم القائمة التى تحمى أطماع الطامعين وسيطرة الأنانيين — كان ذلك من أكبر العوامل على تزايد عدد المؤمنين يوماً بعد يوم على رغم محاولات الاضطهاد والأذى المتكرر للرسول والمؤمنين الذين لبوا دعوته . وفزع سادة قريش من سرعة

انتشار الإسلام بين الناس حتى لقد كانت الزوجة تؤمن به وهى زوجة لرجل غير مؤمن وكان الابن يلبى الدعوة وأبواه منكران لها ، فحاولوا أن يستميلوا الرسول بعد أن عجزوا عن مقاومة دعوته بالاضطهاد والأذى فتوسلوا إليه بعمه الطيب أبى طالب وهو الذى كان منه فى منزلة الوالد الرحيم فبعث الشيخ إلى الرسول فلما دخل عليه قال له : « يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد جاءوا يسألونك أن تكف عن ذكر آلهتهم وأن تعبد إلهك كما تشاء » فأجاب الرسول يخاطب السادة بما معناه : لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غير أن تؤمنوا بالرسالة التى كلفت بالدعوة إليها . فغضب سادة قريش أشد الغضب وضيقوا على الذين آمنوا حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة إلى الحبشة بإذن من الرسول وبقى هو ليواصل دعوته متعرضاً للأذى المتزايد من القساة العتاة الذين زاد الغضب قسوتهم عنفاً فكان ذلك داعياً إلى زيادة انتشار الإسلام ، وكان من بين من آمن عمه حمزة بن عبد المطلب وهو أحد فرسان الشبان المعروفين بالشجاعة والسطوة ، ومنهم عمر بن الخطاب وهو كذلك أحد شجعان قريش وكان معروفاً بالإقدام والصراحة . فزاد فزع زعماء مكة وعزموا على انتهاج خطة شاملة للقضاء على مقاومة محمد نفسه فعقدوا معاهدة فيما بينهم على مقاطعته ومقاطعة أسرة بنى هاشم جميعاً ما دام أبو طالب شيخهم لم يستطع تحويل الرسول عن دعوته ، فحصروا بنى هاشم فى شعب من شعاب مكة وتعاهدت بطون قريش على الامتناع

عن معاملتهم فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يصاهرونهم أو يجاملونهم بشيء ، واستمرت هذه المقاطعة سنتين أو ثلاثاً والرسول وأسرته صابرون على ما وقع عليهم من الشدة من أثر هذه المقاطعة . وذهب وفد من سادة قريش إلى الحبشة ليحرضوا النجاشي (ملك الحبشة) على طرد من لجأ إلى بلاده من المسلمين ، ولكن هذه الوسائل جميعاً لم تؤد إلى القصد الذى قصد إليه زعماء مكة فإن الإسلام كان ما يزال ينتشر فى سرعة متزايدة كلما زاد اضطهاد السادة لأتباعه ، بل إن قسوة الاضطهاد حملت بعض عقلاء قريش على السعى فى نقض المعاهدة التى عقدها الزعماء على مقاطعة الرسول وأسرته ونجحوا فى ذلك نجاحاً جعل الزعماء يفكرون فى القضاء على الرسول نفسه .

وقد نزلت بالرسول محنة جديدة وذلك بموت السيدة خديجة زوجه ، وموت عمه أبى طالب عقب نقض معاهدة المقاطعة ، ففقد عند ذلك زوجه الوفية التى كانت تؤنسه بإيمانها الراسخ وقلبها العاطف وعقلها الحكيم وفقد عمه الشيخ الذى كان يضفى عليه جاهه ويجمع كلمة بنى هاشم على حمايته ، وزاد سادة قريش فى عنفهم عليه فلم يبق له إلا أن يوجه الدعوة إلى قبائل العرب فى خارج مكة . ولكنه لقى من سادة هذه القبائل ما لقيه من سادة قريش حتى أتاح له الله الاتفاق مع طائفة من أهل المدينة أن يهاجر إلى مدينتهم ليقيم بين ظهرانيهم وينشر دعوة الإسلام وهو فى حمايتهم .

ولما علم زعماء قريش بذلك عزموا على أن يقضوا على محمد قبل أن يتمكن من الهجرة إلى يثرب (المدينة) ، فقد رأوا من قبل أنهم كلما زادوا فى التضييق عليه وكلما اشتدوا فى اضطهاد المؤمنين بدعوته زاد الإسلام انتشاراً وانتقل من دائرة أضيق إلى دائرة أخرى أفسح وأرحب . وأخذوا يدبرون فيما بينهم المكائد لاغتياله وأعدوا لذلك خطة إجماعية تشترك فيها بطون قريش جميعاً حتى لا يستطيع بنو هاشم أن يقوموا فى وجهها للدفاع عنه . وأمر محمد أصحابه بالهجرة إلى المدينة أولا وبقى هو حتى اطمأن إلى أن أكثرهم قد سبقه ثم خرج خفية من مكة مع صاحبه الأوفى أبى بكر الصديق ، وتم له اللحاق بأصحابه فى المدينة آخر الأمر فكانت هذه هى الهجرة المباركة التى اعتز بها الإسلام وتحرر من قيود قريش .

ولكن زعماء مكة لم ييأسوا من متابعة مقاومتهم للدين الجديد الذى أعجزهم فى مكة فأخذوا يعدون العدة للإيقاع بمحمد وأصحابه فى يثرب وصادروا أموال المسلمين فى مكة وبعثوا كتائبهم لتحريض القبائل الضاربة حول المدينة على الإغارة عليها ، فاضطر الرسول أن يخرج من المدينة فى جمع من أصحابه ليعمل على سل ما بثه سادة قريش فى قلوب القبائل من عداوته ونجح فى ذلك مع بنى ضمرة وهى بطن من بطون كنانة حول المدينة ، وخرج جيش من مكة قاصداً إلى المدينة فبعث الرسول جمعاً آخر من المهاجرين للقائهم فعاد جيش قريش إلى مكة بغير قتال وفر منهم عدد من المسلمين الذين خرجوا مع الجيش كى يتمكنوا من الوصول إلى المدينة

واللحاق بأصحابهم المسلمين . وبعث الرسول بعد ذلك بقليل جمعاً آخر من أصحابه بقيادة عمه حمزة بن عبد المطلب إلى أرض قبيلة جهينة حيث كان أبو جهل أحد القساة من زعماء قريش يعمل على إثارة القبائل ضد المسلمين . وهكذا مضى نحو سنتين على مقام الرسول فى المدينة وهو يشعر بما تدبره قريش له من خطط الاعتداء ويعمل على إحباط خططهم. ولكن بعض من أثارتهم قريش من القبائل المجاورة للمدينة استطاع أن يسطو على سرح المدينة وأن يسلبه ، فلم يكن للرسول إلا أن يواجه ذلك الاعتداء المتكرر بالدفاع عن رسالته وعن أصحابه وعن المدينة التى تعرضت للهجوم عند هجرته إليها بعد أن كانت من قبل آمنة تخشى القبائل بأسها .

وبدأ الاصطدام العنيف بين الجانبين آخر الأمر فى موقعة بدر الكبرى وكان عدد المسلمين لا يزيد إلا قليلا على ثلثمائة على حين كان عدد محاربى قريش نحو ألف ، وانتهت الموقعة بفوز ماحق انتصر به الضعفاء على الأقوياء، وأصحاب المال القليل والعدة الضئيلة على أصحاب الثروة الضخمة والعدة الكاملة ، لأن الفقراء كانوا أحرص على انتصار رسالتهم منهم على حفظ حياتهم .

وهكذا انتهت محاولات سادة قريش للقضاء على الدعوة الإسلامية فى مهدها الجديد باستخدام القوة الحربية إلى انتصار باهر للمسلمين ، وانطلقت دعوتهم مرة أخرى إلى مجال أوسع وأرحب فى أنحاء الجزيرة

العربية كلها . وعاد سادة قريش من المعركة يشعرون بمرارة الهزيمة وغصة الخيبة ، وثارت فى نفوسهم مشاعر الغيظ والأنفة فوقفوا كل أموالهم ونشاطهم على الاستعداد للانتقام فى معركة بعد أخرى — أحد والخندق وحنين وعشرات غيرها من المصادمات الصغرى—ولكن حشد القبائل العربية لعداوة المسلمين وكل ما أدى إليه ذلك من المواقع انتهى إلى سريان الدعوة الإسلامية فى القبائل القريبة والبعيدة وأخذ من آمن بها يدعو إليها فى حماسة لا تقل عن حماسة أول المسلمين إيماناً ، وبعد ثمان سنوات من الهجرة تمكن المسلمون من فتح مكة وهى معقل أعداء رسالتهم واضطر السادة الطغاة إلى التخلى عن عداوتهم وبدأوا يفكرون فى موقفهم من الدعوة الجديدة حتى تبينوا آخر الأمر أنهم كانوا يقاومون دعوة فيها خيرهم وخير العرب وخير الإنسانية جميعاً .

ولم تمض إلا عشر سنوات من الهجرة حتى كانت قبائل العرب قد اجتمعت كلها على الإسلام وانتقلت الدعوة مرة أخرى إلى مجال آخر أوسع وأرحب — إلى العالم الفسيح وراء الجزيرة العربية .

وكان الرسول فى أثناء هذه السنوات وما واجهه فيها من الشدائد والعداوات ، لا ينفك يجاهر بأنه رسول إلى الناس جميعاً وأنه إنما جاء مبشراً ليدعوهم إلى الخير وإلى السلام والسعادة وأنه لم يجئ مسيطراً ليحكم ولا ليتحكم فيهم . وبعث برسل من أصحابه إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية أو خارجها ليدعوهم إلى الدخول فى الإسلام وليحملهم ،

مسئولية الآثام التى يتورطون فيها والمظالم التى يوقعونها برعاياهم . وبلغت أصداء انتصار الإسلام وانتشاره فى ربوع البلاد العربية إلى الشعوب الخاضعة لدولتى الفرس والروم كما بلغتهم أصداء الرسالة الإسلامية والمبادئ الإنسانية التى تدعو إليها ، فعرفت هذه الشعوب أنها رسالة تصدق رسالتى عيسى وموسى والنبيين من قبلهما ، وأنها تقول إن الناس سواء فى حقوقهم وأن الشعوب جميعا سواء فى حقوقها ، لا فرق بين سيد ومسود ولا بين حاكم ومحكوم وأن واجب الحاكم هو العدل فى الرعية وأن العبيد أنفسهم يستطيعون أن يصبحوا أحراراً وأن الضعفاء يستمدون القوة من الحق فى نظام شامل يكفل للجميع العدالة .

وأخذ الناس يتساءلون عما ينبغى لحكامهم نحوهم ودب القلق فى قلوبهم ، ولاح لهم بريق من الأمل فى هذه النهضة الجديدة التى بدأت دعوتها تصل إليهم . ولما جاءت رسائل (محمد) عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والأمراء تدعوهم إلى اتباع الرسالة الجديدة استقبلها بعضهم بقبول حسن مثل ملك الحبشة والمقوقس زعيم القبط بمصر . ورفضها البعض الآخر ، لأنهم أحسوا بما تنطوى عليه هذه الرسالة من خطر على طغيانهم وتوجسوا منها خوفاً على سلطانهم ، فأخذوا يعدون أنفسهم وما لديهم من قوة ويلتمسون ما يستطيعون التماسه من الوسائل لمواجهة ذلك الخطر الذى يهددهم .

٢ ـ بعد انطلاق الأمة العربية

لم يكن عجيباً أن يشعر حكام دولتى فارس والروم بالهزة الشديدة التى أحدثتها أصداء الوحدة العربية فى الشعوب الخاضعة لسيطرتهما ، فقد كانت جزيرة العرب منذ القدم لا تهدد الدولتين إلا بإغارات صغيرة تقوم بها القبائل على الحدود وكان من اليسير لهما أن تتحاشيا الاصطدام بها بعد أن تبين لهما أن الاصطدام بالعرب يحملهم على جمع كلمتهم والوقوف معاً فى وجه المهاجم الأجنبى. وكانت سياسة الفرس والروم نحو قبائل العرب تقوم دائماً على تشجيع المنافسات بينها حتى ينصرف بعضها إلى حرب بعض ، ومن أجل هذا اتخذت كل منهما حلفاء من القبائل واعترفت بزعمائها ملوكاً أصدقاء لها ليكونوا عوناً لها فى استمالة القبائل العربية الأخرى إلى صفها . فكان العرب يتصادمون ويتحاربون وكلا الدولتين آمن على حدوده منهم جميعاً . فلما توحدت القبائل تحت علم واحد فى دولة تجمع شملهم كان ذلك حدثاً عجيباً يحدث فى جزيرة العرب لأول مرة فى التاريخ المعروف . وكان اجتماع شمل العرب على رسالة دينية ذات مثل إنسانية عليا يجعل خطر وحدتهم أشد . فوحدة العرب فى ذاتها تمثل قوة جديدة فى ميدان السياسة الدولية فى الشرق الأوسط ، ولكن رسالتهم

بالجديدة كانت تمثل انقلاباً خطيراً فى مبادئ السياسة والحكم وتهدد النظام الاستغلالى الذى تقوم عليه الدولتان الكبريان من أساسه .

ولم يكن عجيباً كذلك أن يشعر الحكام بآثار هذه الدعوة الجديدة فى صفوف الشعوب الخاضعة لها وأن يتوجسوا خوفاً من انتشارها بينها .

وبدأ الروم يحشدون جيوشهم على حدود الجزيرة العربية ، كما بدأوا يحرضون الملوك العرب الخاضعين لهم على مبادأة النهضة العربية بهجومهم قبل أن يستفحل أمرها . وهناك أدلة كثيرة على ذلك نذكر منها مثلاً ورد ذكره فى صحيح البخارى وذلك أن سيدنا عمر بن الخطاب وأصحابه كانوا يتحدثون فيما بينهم فى السنوات الأخيرة من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن غزوة منتظرة تقوم بها غسان ضدهم ، وكانوا يسمعون أن غسان « تنعل الخيل لغزو المسلمين » . وقد بلغ توجس المسلمين من أن يفاجأوا بحرب الروم أن سيدنا عمر كان يوماً فى بيته فى مدة حياة الرسول فجاءه صاحب من الأنصار فى ساعة العشاء فضرب بابه ضرباً شديداً ، ففزع عمر وحسب (خطأ) أن الزائر ما جاءه فى تلك الساعة إلا لينذره بغارة غسان على المسلمين .

ولما زاد توجس العرب من ناحية الروم رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يستطلع الحقيقة ، فبعث لهذا الغرض سرية إلى الحدود الشمالية بقيادة زيد بن حارثة فما كادت تصل إلى (مؤتة) حتى وجدت حشود الروم متربصة هناك ، ووجدت جيشاً جراراً من الروم يحيط بها من

كل جانب . ودارت بين السرية الصغيرة وهذه الجموع الكبيرة معركة باسلة قتل فيها القائد زيد بن حارثة وتبعه جعفر بن أبى طالب وهو القائد الذى عين ليخلفه إذا استشهد ثم قتل القائد الثالث وهو عبد الله ابن رواحة ، وكاد جيش الروم يفنى السرية كلها لولا شجاعة جنودها وحكمة خالد بن الوليد الذى تمكن بقيادته البارعة أن يخرج ببقايا السرية من المأزق الحرج . فكانت هذه البعثة الاستطلاعية مؤكدة لتربص الروم بالعرب خشية أن تمتد دعوتهم إلى الشعوب المغلوبة التى تتحفز للثورة عليهم إذا حانت لها فرصة .

وأراد الرسول بعد ذلك أن يتحقق من الأمر بنفسه ليعرف مدى الخطورة فى تلك الحشود الرومانية فذهب على رأس سرية متجهاً إلى الشمال حتى وصل إلى تبوك ، متكلفاً عناء عظيماً فى هذه الرحلة مع أنه كان قد نيف على الستين وكان الحر شديداً لا يكاد يطيقه الأشداء من الرجال ، كما كانت العدة ضئيلة والمئونة قليلة . وتحقق الرسول عليه الصلاة والسلام من خطورة الموقف حتى إنه بدأ منذ عودته من تبوك فى إعداد جيش ليرابط عند الحدود الشمالية كى يكون طليعة ينذر العرب إذا ما تحرك الروم لغزوهم ، واختار لقيادة ذلك الجيش شاباً صغيراً وهو أسامة بن القائد الذى استشهد فى موقعة مؤتة وهو زيد بن حارثة .

غير أن الرسول لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يبعث بذلك الجيش إلى الشمال ، فبدأ الخليفة أبو بكر الصديق عهده بتسيير هذا الجيش نحو

الحدود الشمالية تنفيذاً لإرادة الرسول .

فمن الواضح إذن أن الأمة العربية قد انتفضت فى ظرف عشرين عاماً ونهضت نهضة عجيبة لم يتوقعها أحد من جيرانها وأتمت وحدتها على أساس رسالة عالمية طلعت على الدول والشعوب بمبادئ جديدة كانت بمثابة ثورة دينية خلقية اجتماعية لتدعو الناس إلى طريق أفضل فى الحياة ولتدعو الدول إلى أسلوب أعدل فى الحكم ، وأن هذه الانتفاضة العظيمة كانت أملاً للشعوب المقهورة وخطراً شديداً شعرت به دول الاستغلال المسيطرة عليها وأخذت تستعد للقضاء عليه . وقد كانت دولة الفرس عند ذلك مشغولة بالثورات الداخلية وبالاضطرابات التى مزقتها فلم تستطع أن تحشد جيوشها لغزو العرب كما فعلت دولة الروم ولكنها أعدت خطة أخرى لتمزيق وحدتهم كما سيأتى ذكره .

ولا شك فى أن دولتى الفرس والروم كانتا تنتظران وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام على أمل أن تتداعى وحدة العرب إذا خلا مكانه وحرم العرب من تأثير شخصيته العظيمة التى كانت تمثل الرسالة الكبرى التى وحدتهم ، بل إنهما لم ينتظرا حدوث وفاته بل سارعتا فى السنتين الأخيرتين من حياته فى تدبير الخطط لتمزيق الوحدة العربية ، وكان اعتمادهما فى هذه الخطط على مساعدة طائفة من زعماء القبائل الذين كانوا يشبهون سادة الفرس والروم فى كبريائهم وكراهيتهم لمبادئ المساواة والعدالة والتحرير التى جاء بها الإسلام .

وقد بدأ تنفيذ هذه الخطط فى أواخر حياة الرسول فى وقت واحد وبأساليب واحدة أو متشابهة فهى جميعاً تبدأ بظهور جماعة من المغمورين فى القبائل يدعون أنهم أنبياء ، وكان من وراء كل منهم طائفة من الزعماء العرب المنافقين يساعدونهم فى الخفاء . ففى اليمن التى كانت خاضعة لحكم الفرس ظهر الأسود العنسى وزعم أنه نبى ، وعلى الحدود الشرقية المتاخمة للفرس ظهر مسيلمة وزعم كذلك أنه نبى ، وعلى الحدود الشمالية المتاخمة للروم ظهر طليحة الأسدى وادعى النبوة . ومما يسترعى النظر فى هذه الحركات جميعاً أنها على الحدود المتاخمة لدولتى الروم والفرس فى الشمال والشمال الشرقى من جزيرة العرب أو فى اليمن التى كان الفرس أنفسهم يحكمونها منذ جلاء الحبشة عنها . ومما يدل أكبر الدلالة على اشتراك حكومتى الفرس والروم فى تدبير هذه الثورات أن جيشاً كبيراً من العرب حشد فى الوقت عينه فى العراق الخاضع للفرس وتولت قيادته امرأة ادعت النبوة هى الأخرى واسمها سجاح . وسارت سجاح بجيشها الكبير إلى أرض العرب وأخذت تثير قبائل الحدود الشرقية وما زالت حتى اتصلت بمسيلمة فجمعت صفوفها بصفوفه كى تهبط كلها على المدينة . فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى كانت الفتنة تضطرم فى جبهات ثلاث والأمداد والمساعدات تبعث إليها من الفرس والروم .

واتفقت سجاح مع مسيلمة فى معاهدة لم تعرف تفاصيل شروطها

ثم عادت إلى موطنها فى العراق تاركة بعض جموعها تحت قيادة حليفها. فكان من أول ما اهتم به الخليفة أبو بكر أن يقضى على هذه المكيدة لشعوره وشعور العرب المسلمين بأنها تستند إلى مدد أجنبي خطير. ولم يمض إلا أشهر قلائل بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى أطفئت هذه الثورة كما يطفأ لهيب الهشيم، وقضى العرب على هذه المحاولة الفارسية الرومانية الأولى.

أما ثورة الأسود العنسى فى اليمن فإنها بدأت وانتهت فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد اجتمع له عدد من الفرسان يبلغ عددهم سبعمائة ولسنا ندرى على وجه التحقيق من أين جاءوا، فكان يحارب بهم ويفاجئ القبائل المتفرقة التى أسلمت، وقتل شهر بن بازان عامل الرسول على اليمن وتزوج بامرأته وتحكم فى مدينة صنعاء تحكماً يدل على أنه لم يكن رجلاً سوياً بل تدل أعماله على شذوذ عقلى خطير وقد فتك به ثلاثة من المسلمين. وما كاد أهل صنعاء يعلمون بمقتله حتى ثاروا بأتباعه فهربوا من صنعاء بعد أن اختطفوا عدداً من أبنائها، ولكن أهل المدينة تعلقوا بعدد منهم وحبسوهم عندهم حتى رد أبناؤهم إليهم فأطلقوا سراحهم. وقد بقيت هذه الجماعة من الفرسان تنتقل من مكان إلى مكان وتثب فجأة على الآمنين حتى أسدل عليها ستار من النسيان بعد أن تمكن الخليفة الأول من القضاء على بقيتهم الغامضة، وأما طليحة الأسدى فإنه لم يثبت أمام جيش المسلمين بل سارع بالفرار إلى سورية لاجئاً إلى دولة الروم.

فهذه الحوادث جميعاً تشير بوضوح إلى أن الخطر الأكبر الذى كان يهدد الدولة العربية فى أول نشأتها كان آتياً من ناحية دولتى الفرس والروم ولم تكن الثورات التى أهاجها أدعياء النبوة إلا من تدبيرهما بمساعدة طائفة من الزعماء الذين أرادوا التحلل من القيود التى وضعها الإسلام على سيطرتهم وتحكمهم فى الضعفاء والتخلص من الحدود الخلقية والاجتماعية التى تحول بينهم وبين الانطلاق مع سجايا الجاهلية الهوجاء .

ومهما يكن من الأمر فإن هذه الفتن لم يكن لها فى الحقيقة ما كان يلوح على ظاهرها من الخطر ، فالذى نستطيع أن نستخلصه من الحوادث أنها فاجأت المسلمين فى أول الأمر فأفزعتهم خوفاً على رسالتهم وعلى وحدتهم الجديدة ، حتى إن الخليفة أبا بكر بعث إلى أسامة بن زيد يأمره بالعودة إلى المدينة بعد أن سار بجيشه نحو حدود الشام كى يستعين بجيشه على إخماد تلك الفتن . ولكن الخليفة وجماهير المسلمين الذين حافظوا على عهودهم كانوا هم الكثرة الكبرى ولم يلبثوا أن عادوا إلى ثباتهم وواجهوا الأزمة التى اعترضتهم واستطاعوا فى أقل من ستة أشهر أن يقضوا عليها القضاء الأخير . وكان للخليفة أبى بكر الصديق أكبر الفضل فى هذا الانتصار بما أظهره من الثبات والإيمان والثقة فى نفسه وقومه وقد امتاز فوق ذلك بشجاعة لا يتصف بها إلا العباقرة من قادة الأمم .

وكان ساعده الأيمن فى جهاده خالد بن الوليد الذى برهنت موقعة مؤتة من قبل على براعته الفذة فى قيادة الجيوش ، كما برهنت مواقع السنوات

التالية على أنه كان من أفذاذ قواد الجيوش فى العالم إذ ذاك كما كان من أعظمهم حكمة وكياسة فى معاملة جنوده وأعدائه على السواء .

وقد أظهرت هذه الفتن للعرب أن وحدتهم ورسالتهم لن تكون آمنة من مكايد الفرس والروم إلا إذا أثبتوا لهما أنهم أهل لمقاومتهم والوقوف فى وجه جيوشهم إذا دعا الأمر إلى ذلك ، ولم يكن لهم بد من تتبع الذين دبروا هذه المكايد وأثاروا تلك الفتن عليهم ، فهم حين يوجهون الجيوش إلى العراق والشام لا يزيدون على أن يكونوا بسبيل الاحتياط لأنفسهم حتى لا يعيد أعداؤهم الكرة عليهم مرة بعد مرة .

٣ ـ تكوين أمة عربية جديدة

ما كاد خالد يفرغ من القضاء على ثورة شرق الجزيرة حتى دعاه أبو بكر لمواصلة الزحف على محرضى تلك الثورة فى العراق ، فاتجه خالد بجنوده إلى العراق ، ثم أعاد أبو بكر تكوين الجيش الذى كان تحت إمرة أسامة وبعث به إلى حدود سورية . وهكذا بدأ زحف العرب على الجبهتين معا .

والظاهر أن زعماء القبائل العربية المقيمة فى العراق تحت سلطان الفرس أدركوا من فشل محاولتهم فى إثارة القبائل فى شرق الجزيرة العربية أن قوة النهضة العربية الجديدة أكبر من أن تحطمها محاولاتهم ومحاولة سادتهم الفرس، فسارعوا إلى مصالحة خالد بن الوليد والخضوع له وقبلوا أن يدفعوا الجزية وأن يكونوا تبعاً لسيادة العرب . وبعث خالد من فوره بعد ذلك النصر إلى المدائن عاصمة فارس خطاباً شديد اللهجة يتوعد حكامها ويقول فى خطابه :

« فالحمد لله الذى فض خدمتكم . . وسلب ملككم ووهن كيدكم » .

فهو يذكرهم « بخدمتهم » الذين أطاعوهم فى إثارة الفتنة ويذكرهم بكيدهم الذى كانوا يكيدونه للنهضة الجديدة العربية .

وما كاد خطاب خالد يصل إلى حكام الفرس حتى بادروا بجيوشهم إلى

لقائه وتقدم أكبر أبطالهم إلى الحرب عند ما وجدوا أن الأمر قد صار جداً مرّاً، وأن محاولاتهم فى الكيد لنهضة العرب قد عرضتهم لمواجهتهم داخل بلادهم. وكان من أشد الفرس عداوة للعرب قائد اسمه (هرمز) وقد عرف بتحريضه لزعماء القبائل العربية على الثورة كما عرف بالتعصب الشديد ضد نهضة العرب الجديدة. وكان هرمز عنيفاً فى كبريائه مثل عنفه فى تعصبه حتى لقد قيل إنه حشد الجنود بالقهر والقسر للقتال بل قيل إنه قرنهم بالسلاسل فى صفوف متراصة حتى لا يفروا من المعركة. ولكنه هزم هزيمة منكرة عند أول لقاء مع العرب فى تلك المعركة التى يسميها العرب ذات السلاسل. ولم يمض إلا أشهر قليلة على بدء الحرب حتى كان الجانب الغربى من العراق قد صار فى أيدى الجيش العربى. وليس يعنينا هنا أن نتتبع ميادين الحرب ووقائعها بل يعنينا شىء واحد وهو ما نستخلصه من سهولة الفتح العربى وسرعته وما نستخلصه من أن العرب كانوا يحاربون جنود الدولة وحدهم، على حين كان أهل البلاد معتزلين جانباً لا يمدون يداً لمساعدة هؤلاء الجنود. بل هناك من الأدلة ما يظهر لنا أن أهل البلاد كانوا يؤثرون أن تنجلى المعارك سريعاً عن هزيمة جيوش الفرس حتى يتخلصوا من مظالم الدولة الطاغية.

روى الطبرى فى تاريخه أن خالد بن الوليد اجتمع بقادة حصون الحيرة يفاوضهم فى التسليم فقال لهم: « ويحكم أما أنتم عرب؟ فما تنقمون من

العرب ؟ أو أنتم عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » فلم يسع هؤلاء القادة إلا أن قالوا : « بل نحن عرب عاربة وأخرى متعربة وليس لنا لسان إلا بالعربية » ثم سارعوا إلى التسليم وقبلوا أن يدفعوا الجزية لقاء احتفاظهم بدينهم المسيحى .

وقد حدث مثل ذلك فى مواقف كثيرة أخرى حتى سلمت للعرب كل البلاد بين الفرات ودجلة فى أقل من عام واحد .

أما الجيش الذى وجهه أبو بكر إلى حدود الروم فقد وجد جيوش الروم متحفزة للهجوم . وتبين للعرب أن خطر الهجوم الرومى يتطلب حشد قوى أكبر لمواجهته فبادر أبو بكر بإعداد ثلاث فرق اختار لها ثلاثة من أكبر شجعان العرب وأمهرهم فى القيادة وهم : عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وأمر عليهم جميعاً أبا عبيدة بن الجراح وبعث فى الوقت عينه إلى خالد بن الوليد يأمره بالسير إليهم لمساعدتهم إذا فرغ من جبهة العراق . وبلغ مجموع كل هذه القوى التى حشدها أبو بكر لقتال الروم ستة وأربعين ألفاً على حين كانت جيوش الروم المحشودة على الحدود تزيد على مائتين وأربعين ألفاً .

وكانت الحرب فى ميدان الروم بالشام تجرى على نسق الحرب فى ميدان فارس ، فلم يحدث التصادم فيها إلا بين العرب وبين جنود الدولة على حين كان أهل البلاد ينتظرون أن تنجلى المعارك سريعاً وهم يتمنون أن يزاح عنهم نير الحكم الرومانى الفاسد . فلم يمض عام على بدء القتال

حتى كان العرب سادة الميدان وتم لهم الانتصار الحاسم فى وقعة اليرموك الكبرى فكانت خاتمة مجيدة لحكم الخليفة العربى الأول أبى بكر الصديق، ومدته لا تزيد إلا قليلا على سنتين .

وقد استمرت الحرب بعد وفاة أبى بكر فى ميدانى فارس والروم لإتمام فتح البلاد وتجلى فى أثنائها مبلغ انصراف قلوب رعايا الدولتين عن حكامهم الطغاة ، بل إن هؤلاء الرعايا زادوا ثقة فى العرب لما لمسوه من اعتدالهم ونزاهة مسالكهم معهم فى أثناء الحرب فلم يؤخذ على جنودهم ما يؤخذ على الجنود المنتصرة من الزهو أو الإفساد فى الأرض أو الاعتداء على الأنفس الآمنة أو الأعراض المصونة ، وكانت أوامر الخليفتين أبى بكر وعمر صريحة وصارمة تحض على التمسك بقواعد الإسلام فى مروءة الحرب ، ولنضرب لذلك مثلاً من الأوامر التى كان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يبعث بها إلى قادته وجنوده ، إذ قال يخاطبهم : « إذا لقيتم العدو وهزمتموه فاطرحوا الشك وآثروا البقية عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به — وكان عندهم أماناً — فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية ، وإن الخطأ بالغدر هلكة ، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم ، واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم » .

وفى الوقت الذى كانت جنود العرب تسير على هذا النهج الإنسانى

كانت جيوش فارس والروم تنتهج وهى منهزمة منهجاً آخر جديراً بأن يكون مسلك الجيوش الأجنبية إذا كانت متوحشة وتعمل على التنكيل برعايا دولة معادية ، مع أنه كان ينبغى لها أن تكون حامية لهؤلاء الرعايا . قال ابن جرير الطبرى يصف مسلك جنود القائد الفارسى الكبير رستم : « وخرج رستم من " كوثى " حتى ينزل فى (بُرس) فتغصب أصحابُه الناس أموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج الأهلون إلى رستم وشكوا إليه ما يلقون فى أموالهم وأبنائهم فقام رستم فى جنوده قائلا : يا أهل فارس والله ما أسلمنا للعرب إلا أعمالنا فى هؤلاء الرعايا ، وهم " أى العرب" لهم ولنا حرب ، فهم أحسن منكم سيرة » .

ويروى الطبرى قصصاً كثيرة أخرى عن أحاديث كانت تجرى بين العرب وبين خصومهم وفيها يظهر بوضوح أن رعايا الدولتين كانوا يصرحون فى غير تردد أنهم يرحبون بالمبادئ التى يسير عليها العرب ويحقدون أشد الحقد على الطغاة الذين يتعسفون فى حكمهم . وكانت الطبقات الدنيا من شعب فارس تجاهر بترحيبها بمبادئ العرب وتظهر حنقها من سوء معاملة حكامها . بل إن الجنود الذين جندوا من أهل البلاد لتعويض الجيوش عما فقدته من صفوفها كانوا يستسلمون ولا يقدمون على القتال .

وحدثت أمثلة كثيرة مثل هذه فى ميدان الروم بالشام فلما ذهب خالد بن الوليد إلى شمال الشام لإتمام الفتح أرسل إليه أهل حمص ثم

أهل قنسرين يطلبون الصلح بغير قتال وأضاف أهل قنسرين قائلين إنهم عرب : « وإنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه » فقبل خالد منهم ولم يشتط فى شروط الصلح معهم .

ومما يسترعى النظر فى حوادث الشام أن الخليفة عمر عندما ذهب ليتسلم بيت المقدس بنفسه جاءه رجل من أهل المدينة يناديه قائلا « يا فاروق أنت صاحب إيلياء » ولفظ « فاروق » فى لغة السريان معناه « المنقذ » فنداء الخليفة به يدل على أن أهل بيت المقدس كانوا يعدون فتح العرب إنقاذاً لهم .

وتدل صيغة الكتاب الذى كتبه الخليفة لأهل بيت المقدس على أسمى مراتب العدل والاعتدال من أمة منتصرة لم يحولها الانتصار عن جادة العدالة والرحمة والنزاهة . وهناك أمثلة كثيرة تدل على ما بلغه العرب من الشهامة والمروءة فى معاملتهم للمهزومين أنفسهم ، ومن ذلك أنهم أسروا قائداً من أكبر قواد الفرس وأعنفهم وأشدهم عداوة للعرب وأكثرهم غدراً فى أساليب حربه واسمه الهرمزان . فلما مثل بين يدى الخليفة عمر فى المدينة كان الجزاء المنتظر له أن يقتل لقاء من قتلهم من العرب بالغدر فى حروبه ، ولكنه احتال على الخليفة فسأله أن يتريث فى عقابه حتى يشرب لشدة عطشه ، فأجابه الخليفة إلى مطلبه ، وألح الهرمزان على الخليفة ألا يقتله حتى يشرب ، مدعياً أن الخوف يحول بينه وبين تذوق الماء ، فوعده عمر بذلك . فرمى الهرمزان الكأس التى قدم له الماء فيها ، وقال

لعمر : « إنك وعدتنى ألا تقتلنى حتى أشرب هذا الماء وها أنا لم أشربه » وغضب الخليفة لخديعته ولكنه رأى ألا مفر له من الوفاء بوعده وإن كان خدع فيه . فهو قد أخذ نفسه بما أمر به قواده وجنوده « إن الخطأ بالوفاء بقية» ولنذكر أن هذا الهرمزان المخادع لم ينس عداوته وغدره وكان من بين الذين قامت حولهم الشبهة القوية بالمشاركة فى اغتيال الخليفة عمر . وقد توالى هجوم الروم والفرس على العرب بعد انتصارهم الأول وتحرير عرب العراق والشام من سيطرتهم إذ كانوا ما يزالون يؤملون أن يستعيدوا حكمهم الجائر على الشعوب المسكينة التى بدأت تتنفس الصعداء ، فلم يجد الخليفة عمر بدًّا من المضى فى الحرب حتى النهاية وزحفت الجيوش المنتصرة شرقاً إلى ما بقى من دولة فارس وغرباً نحو مصر وشمال أفريقيا واستطاع العرب برغم قلة عددهم وبداوة عدتهم أن ينتصروا على جيوش منظمة تفوق أعدادهم أضعافاً وتفوق عدتهم كثيراً . وكان السر الأكبر فى ذلك النصر المتوالى أن العرب كانوا يحاربون جيوش الفرس والروم وهى مستندة إلى فراغ .

لم يكن وراء تلك الجيوش شعوب تدعم قوتها وتشد أزرها بل كانت الشعوب تخذلها وتعين بكل وسيلة ممكنة على هزيمتها ، فما يكاد العرب يهزمون الجيوش حتى يتم لهم الفتح وتتصل علاقتهم بأهل البلاد اتصالاً سهلا . ويسجل الطبرى حادثة وقعت أثناء حروب الفتح فى مصر وهى حادثة لها دلالتها الكبرى على شعور أهل مصر نحو العرب ومسلك العرب

نحوهم ونحن نثبتها هنا لطرافتها : أخذ العرب فى بعض مواقع القتال فى مصر بعض السبايا من أهل البلاد ، فبعث صاحب الإسكندرية إلى قائد العرب عمرو بن العاص يطلب إليه أن يردهم . فأرسل القائد إلى الخليفة عمر يستطلع رأيه فى ذلك فبعث إليه عمر أن يخير هؤلاء السبايا بين الإسلام والبقاء مع العرب وبين العودة إلى قومهم ، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار العودة إلى قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على مثله . فجمع العرب السبايا ليخيروهم كما أشار عمر ، ووقف العرب والمصريون ينتظرون نتيجة التخيير ، فكانوا إذا اختار أحد السبايا الإسلام والبقاء مع العرب كبر العرب تكبيرة عالية ثم حازوا الرجل إليهم ، وإذا اختار الرجل العودة إلى قومه صاح المصريون صيحة فرح وحازوا صاحبهم إليهم . ويذكر المؤرخ العربى اسم شاب من المصريين الذين كانوا فى ذلك الوقت بين السبايا وهو (أبو مريم) ، فلما خير فى الفريق الذى ينضم إليه اختار الفريق العربى فحازه العرب إليهم ، وكان أبوه وأمه وإخوته واقفين فى صف المصريين فوثبوا إليه وجعلوا يجاذبون العرب إياه حتى شققوا ثيابه . وقد صار هذا الرجل فيما بعد عريفاً فى جيش العرب . فهذا الموقف لا يدل على عداوة مرة بين أهل مصر وبين العرب ، كما أن المثل الذى ضربه المؤرخ فى حالة (أبى مريم) يدل على أن وجود ذلك الشاب مع العرب مدة أسره لم يجعله يكرههم أو يحقد عليهم بل جعله يختارهم ويرضى بالانضمام إليهم .

وهذا الأسلوب الذى وصفه الطبرى فى تخيير هؤلاء السبايا يدل فى مجمله على أن اختيار أهل مصر للإسلام لم يكن فيه شىء من الإكراه أو الإرهاب ، فإن تكبير العرب اغتباطاً كلما انضم أحد المصريين إلى صفوفهم كان يدل على ترحيبهم بانضمامهم إلى صفوفهم كما أن هتاف المصريين عندما يختار أحد السبايا الرجوع إليهم يدل على تعادل الكفتين وحرية الاختيار . ولم يكن فى الموقف كله ما يدل على حقد من جانب أو على كبرياء وعنف من الجانب الآخر . وقد وصف الطبرى كذلك ما حدث من أهل أفريقيا عندما هزم العرب جيوش الروم هناك فقال إنهم سارعوا إلى الدخول فى الإسلام وحسن إسلامهم » . وقد احتفظ أهل الشام ومصر وأهل شمال أفريقيا بمودتهم للعرب وولائهم لحكم الدولة العربية حتى فى أحلك الأوقات التى ثارت فيها الحروب بين الأحزاب العربية المتنافسة على الحكم بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، واستمر هذا الولاء إلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى أواخر الدولة الأموية .

وهناك من المؤرخين المغرضين من يحاول التشكيك فى ولاء الشعوب التى ضمتها الدولة العربية إليها بحجة أن بعضها هب ثائراً ضد حكامه فى أواخر القرن السابع الهجرى وفى القرن الثامن .

والحقيقة التى ينبغى للمؤرخ أن يعتد بها هى أن هذه الشعوب أصبحت تنظر إلى نفسها بعد مضى نحو قرن من تاريخ الفتح العربى على أنها

شعوب عربية ولها الحق فى أن تسودها العدالة التى عرفتها منذ ابتداء الفتح العربى . غير أن عمال الدولة بدأوا يتعسفون فى حكمهم فى أواخر عهد الدولة الأموية أو بقول أدق عند ما زال جيل الخلفاء الأمويين العظام وبدأت أمور الدولة تختل على أيدى الأمويين المتأخرين الذين انصرفوا إلى الترف واللهو واختاروا عمالهم من بين المقربين إليهم فلم يحسنوا الاختيار فى بعض الأحوال . وكان تعسف هؤلاء العمال فى حكم البلاد التى عهد إليهم بحكمها تعسفاً شاملا أغضب الناس جميعاً سواء كانوا من العرب الأصليين أو من أبناء الشعوب التى امتزجت بالعرب . فلم يكن عجيباً أن يتذمر سكان البلاد من حكم هؤلاء العمال ويهبوا لمقاومة عسفهم .

فتذمر الشعوب لم يكن مبعثه كراهة العرب بل كان مبعثه حرص هذه الشعوب على تحقيق العدالة ورفض العسف الذى ظهر من العمال الذين أساء الخلفاء المتأخرون اختيارهم . ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما حدث فى شمال أفريقيا فى مدة الخليفة هشام بن عبد الملك ، كما جاء فى تاريخ ابن جرير الطبرى . يقول هذا المؤرخ الكبير إن أهل شمال أفريقيا بعثوا وفداً منهم إلى الخليفة ليقدموا إليه شكواهم من بعض المظالم التى أوقعها بهم عاملهم . وكان أهل شمال أفريقيا قد أسلموا منذ أول الفتح وحسن إسلامهم فكانت شكواهم لا تزيد على تظلم قوم من عسف وقع عليهم فلجأوا إلى الحاكم الأعلى الذى يقرون له بالولاء كى يزيل ذلك العسف عنهم . غير أن وفدهم وجد باب الخليفة مغلقاً دونهم، فانتظروا

طويلاً ليأذن لهم الخليفة بالمقابلة ، ولكن الحاشية المحيطة بهشام حالت بينه وبين الوفد فانصرفوا إلى بلادهم غاضبين . وعلم هشام بانصرافهم بعد حين وأظهر ما يدل على الأسف لعودتهم إلى بلادهم خائبين . وكانت نتيجة غضب الوفد أن هبت فى شمال أفريقيا ثورة احتجاج شديدة نبهت الخليفة إلى ما ينبغى له من العمل على رفع الظلم عن رعيته الغاضبة ولم يلبث الثائرون أن عادوا إلى ولائهم بعد رفع الظلم عنهم ، ولم يحدث فى وقت من الأوقات أن تنكر أهل شمال أفريقيا لقوميتهم ولا لولائهم للإسلام الذى اختاروه ديناً منذ البداية . بل إنهم كانوا يحرصون على إرجاع أنسابهم إلى أصول عربية قديمة حرصاً منهم على تدعيم قوميتهم العربية واعتزازهم بها .

وقد حدثت حركات تذمر أخرى فى الوقت عينه فى بلاد أخرى ، ففى مصر مثلا هبت ثورات موضعية فى مدة حكم هشام بن عبد الملك أيضاً وكان الباعث عليها سوء حكم بعض العمال المحليين إذ أن تلك الثورات كانت تحدث فى أقاليم محدودة من بلاد الريف . وقد استمرت هذه الهبات تحدث بين حين وآخر حتى بلغت حداً خطيراً عند ما هبت ثورة عامة فى أيام الخليفة العباسى المأمون . ومما يسترعى النظر فى هذه الثورة أن أكثر شعب مصر اشترك فيها سواء كانوا من العرب الأصليين أو من المصريين الذين أسلموا أو من المصريين الذين احتفظوا بدينهم المسيحى . واضطر الخليفة أن يذهب بنفسه إلى مصر لينظر فى أمر الثورة بنفسه ،

ويتعرف أسبابها . ولما تبينت له الحقائق وعرف أن أهل مصر لم يثوروا إلا أنفة من الظلم الذى أوقعه بهم عمال الدولة ، وجه أعنف اللوم إلى هؤلاء العمال وبين لهم أنهم المسئولون عن تذمر أهل البلاد وأوعدهم بالعقاب إذا لم يعدلوا فى حكمهم .

فالذى يظهر جليًّا من خلال الحوادث التى أعقبت الفتح العربى أن الشعوب التى دخلت فى الدولة العربية الجديدة أصبحت لا تنظر إلى نفسها على أنها شعوب متميزة تريد المحافظة على شخصيتها الأولى وتعمل على الانعزال بنفسها عن حكامها ، بل صارت تنظر إلى نفسها كشعوب عربية تكون فى مجموعها أمة عربية واحدة تمتد من العراق إلى المحيط الأطلنطى .

والمؤرخ الإنجليزى جيبون يقول فى ذلك عبارة ذات دلالة إذ يقول : « إن الشعوب التى كانت من قبل خاضعة لدولتى الروم والفرس أخذت تمزج دماءها بدماء العرب الوافدين عليها حتى أصبح ما بين نهر الفرات والمحيط الأطلنطى أمة واحدة منتشرة على سباسب الرمال فى آسيا وأفريقيا ». ومما له دلالة كبرى على هذا الامتزاج الصريح أن الجيوش العربية التى عبرت المضيق من شمال أفريقيا لفتح الأندلس كانت مزيجاً من العرب ومن البربر أهل شمال أفريقيا ، وكان قائدها طارق بن زياد بربريًّا ، وكانت الجيوش التى قادها موسى بن نصير لتعزيز جيش طارق بن زياد مكونة كذلك من مزيج من عرب الجزيرة العربية وأهل الشام وأهل مصر والبربر أهل شمال أفريقيا . والطبرى حين يذكر ذلك

يقول عن أهل مصر الذين اشتركوا فى فتح الأندلس إنهم (قبط مصر) .

إذن فقد شهد القرن السابع الميلادى (القرن الأول الهجرى) ميلاد أمة جديدة على أنقاض دولتى الفرس والروم وهو ميلاد لم يسبق له مثيل للشعوب التى تقطن هذا الإقليم الفسيح الذى يعرف اليوم بالشرق الأوسط . لقد سبق على حكم هذا الإقليم دولتان كبريان لم تستطع إحداهما أن تحول الشعوب التى تحكمها إلى أمة مندمجة فيها ، فبقى كل شعب منها منعزلاً فى طى نفسه ويجاهد أن يبقى متميزاً عن جنس الدولة التى تحكمه ، وتتحكم فيه وتذله وتنظر إليه نظرة السيد إلى جنس مقهور . ولكن العرب استطاعوا فى أقل من مائة عام أن يكتسبوا ثقة أهل البلاد وأن يجتمعوا معهم على أساس المساواة والعدالة ليكونوا معاً أمة واحدة : يشهد المؤرخ جيبون بأنها أصبحت تمتد من العراق إلى المحيط الأطلنطى ، وهى أمة ذات لغة واحدة وثقافة واحدة ومشاعر واحدة ، حتى لقد كان أبناء الشعوب المتعربة يؤتمنون على ما يؤتمن عليه العرب فى حربهم وسلمهم ، فقد شاركوا فى فتح البلاد الأخرى كلما دعا الحال إلى زحف جديد وشاركوا فوق هذا فى إقامة الحضارة الجديدة التى بدأت تمد جذورها وترسل أغصانها الغضة وتوشك أن تزدهر وتؤتى ثمارها .

وقد حاول المؤرخ جيبون كما حاول غيره من المؤرخين أن يعللوا هذه الظاهرة الفذة ، فذهبوا فى ذلك مذاهب شتى فيقول جيبون مثلا فى صدد حديثه عن اندماج العرب بالبربر : « إن البربر يشبهون العرب البدو فى

جو بلادهم ومساكنهم ونوع طعامهم ، فأدى ذلك إلى أن البربر أسلموا سريعاً وحسن إسلامهم وتعلموا العربية واعتزوا بها وتسموا بأسماء عربية بل انتسبوا إلى أصول عربية » . غير أن هؤلاء المؤرخين لم يستطيعوا أن يتغلغلوا إلى الأسرار العميقة فى طبيعة العرب وطبائع الشعوب التى اندمجت معهم فى الأمة العربية الجديدة، ونرى أن نجمل هنا ذكر الأسباب التى نعتقد أنها هى التى أدت إلى سرعة اندماج العرب بالشعوب التى فتحوا بلادها .

وأول هذه الأسباب أن العرب لم يذهبوا إلى تلك البلاد كسادة مستعمرين ينظرون إلى شعوبها نظرة استعلاء ، بل ذهبوا إلى هناك يحملون رسالة إنسانية عالية يدعون فيها إلى المساواة والعدل والحرية .

فلما تم لهم النصر وحلوا بين ظهرانى أهل البلاد كان اندماجهم بهم أمراً طبيعيًّا لم تحل دونه الحوائل من ناحية استعداد العرب النفسى ومن ناحية أسلوبهم فى التعامل والتعايش مع أهل البلاد .

والسبب الثانى فى سرعة اندماج العرب بالشعوب الأخرى هو ما امتاز به العرب أبناء الصحراء من الشيم الأصيلة فى طباعهم كالوفاء بالعهد وحفظ حق الجوار والأنفة من الظلم والتعفف عن الحرمات وتقديس الحرية والكرامة ، فإن الشعوب التى فتح العرب بلادها كانت ترى الفرق واضحاً بين هؤلاء الفاتحين وبين السادة المتكبرين السابقين الذين كانت مسالكهم معهم تناقض هذه الصفات . كانت هذه الشعوب متعطشة إلى أن يكون دستور حياتها قائماً على هذه المبادئ فاطمأنت إلى الفاتحين

الوافدين إليها منذ البداية ، وانعكس مقتها لسادتها السابقين إلى ترحيب واضح بالعرب ولم تجد على نفسها غضاضة أن تضم نفسها إلى صفوفهم وأن تعتنق مبادئهم.

والسبب الثالث هو ما كان يمتاز به العرب من المرونة الطبيعية ؛ فمن خصائص العربى فى باديته أن يواجه ظروف الحياة كما يجدها إذ لا مفر له من مواجهتها والملاءمة بين نفسه وبينها . فهو يتحمل الجوع إذا لم يجد طعاماً حتى يجد الطعام فيقبل عليه ويصيب منه ما يشاء ، وهو يكتفى بأخشن الملابس وأقلها إذا لم يجد سواها ولكنه يعرف كيف يتأنق فى ملبسه إذا سمحت له الظروف بالتأنق . كان العربى يظهر فى بلاط كسرى وقيصر وهو قادم من باديته القاحلة فكأنه وهو بين السادة المترفين فى ذلك البلاط أحد أبناء الأعيان ممن تعودوا آداب المحافل الاجتماعية . وهو يستطيع أن يتحكم فى سلوكه تحكماً دقيقاً ولا يتهاون فى الوقت عينه فى أمر يمس كرامته أو يشعره بالزراية . وقد يعود بعد ذلك إلى خيمته أو مراعى إبله أو إلى ساحة القتال مع قبيلته فإذا هو البدوى المنطلق الخالص البداوة . فالطباع المنطوية فى أعماقه والمثل العليا التى يقدسها ، والقيم التى يحرص على الأخذ بها لا تتغير ولا تتبدل ، ولكنه يقدر أن يواجه مواقف الحياة بمرونة عظيمة .

وقد كانت هاتان الخصلتان المختلفتان المجتمعتان معاً فى عرب البادية القدامى من أكبر العوامل على سرعة الانسجام بين العرب و بين الشعوب

التى امتزجوا بها – طباع إنسانية فيها كل عناصر القوة ولا مفر من تغلبها على كل ما يواجهها من الطباع وقد اقترنت بها مرونة عجيبة تسمح للعرب بأن يواجهوا ظروف الحياة المختلفة ويلائموا بين أنفسهم وبينها وهم دائماً محتفظون بخصائصهم الأصيلة المنطوية فى أعماق طبيعتهم البدوية .

ومما يجدر بنا ذكره هنا أن العربى الذى يعيش فى البادية لا يجد مفراً من التمسك بقانون عرفى عادل فى معاملته مع غيره ، لأنه لا يجد فى صحرائه حكومة مسيطرة تستطيع أن تنظم علاقاته بغيره من الناس . ومن أجل هذا نشأت بين عرب البادية منذ القدم مجموعة من قواعد السلوك الاجتماعى لها فى نفوسهم جميعاً ما يشبه القداسة ، وهذه القواعد يمكن أن نجمعها تحت معنى واحد وهو معنى المروءة . فعندما حل العرب بين الشعوب الأخرى فى البلاد التى فتحوها . كانت قواعد المروءة من أكبر العوامل على تنظيم علاقاتهم الاجتماعية بمن حولهم من الأهلين ، وكان لها الفضل فى تقوية المودة فيما بينهم بغير نظر إلى وجود حكومة مسيطرة تنظم لهم هذه العلاقات .

وكان الدليل الواضح على سرعة اندماج العرب بالشعوب الأخرى هو سرعة انتشار لغتهم بين هذه الشعوب . فمن الثابت أن اللغة العربية انتشرت انتشاراً واسعاً فى البلاد التى انضمت إلى الدولة العربية منذ القرن السابع الميلادى ، حتى إن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك لم يجد

صعوبة فى جعلها لغة الدولة الرسمية ، فصارت سجلات الدولة ومكاتباتها جميعاً تكتب بالعربية فى جميع الأقطار وكان القائمون على ذلك بغير شك طائفة من أبناء الشعوب المتعربة ، إذ أن العرب لم يكونوا فى ذلك الحين قد حذقوا القيام بمثل هذه الأعمال .

وكان انتشار اللغة العربية بين الشعوب الداخلة فى الدولة العربية من أكبر العوامل على الإسراع بتعريب هذه الشعوب نفسيًّا وتيسير التمازج بينها وبين العرب الأصليين . ومما يسترعى النظر أن هذه الشعوب المتعربة حافظت على اللغة التى تلقتها مثل محافظة العرب الأصليين عليها ، وأكبر دليل على ذلك أن هذه اللغة بقيت سليمة حتى وصلت إلى وقتنا هذا وهى فى صورتها الأولى . فالشعوب التى تلقتها جعلتها ميراثاً لها واعتزت بها وتشاركت جميعاً فى خدمتها والتأليف بها وفيها وأبقتها على مر الزمن صافية كما ورثتها ، بعد أن أضافت إليها الكثير من آثار عبقريتها . لقد مر الآن على بدء انتشار اللغة العربية فى البلاد التى فتحها العرب أكثر من ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك بقيت محتفظة بصورتها وكيانها وأسلوبها . وإذا كانت هناك لهجات محلية عربية نشأت فى الأقطار المختلفة فإنها جميعاً ترجع عن قرب إلى أصلها العربى مع شىء من التحريف فى الكلمات أو العبارات أو طرق النطق .

فالشعوب المتعربة كانت صاحبة فضل كبير على اللغة العربية إذ أغنتها وأخلصت لها وجعلتها لأنفسها ميراثاً شرعيًّا تحافظ

عليه وتنمى ما تنطوى عليه من ثروة ثقافية كما أن العرب كان لهم كذلك فضل كبير على هذه الشعوب إذا أتاحوا لها حياة جديدة تختلف كل الاختلاف عن حياتها خلال القرون العشرة السابقة حين كانت تعتبر رعايا خاضعة لدول أجنبية مسيطرة متعالية فوقها .

وكان اندماج العرب بالشعوب المتعربة فوق هذا كله تطوراً عفوياً لا تشوبه مواقف أو مصادمات عنيفة بين العناصر المكونة للأمة الجديدة ، ويظهر لنا الفرق واضحاً بين تكوين الأمة العربية وبين تكوين غيرها من الأمم الحديثة إذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الحوادث الدامية التى تخللت تطور إحدى الأمم الحديثة الأوربية ولتكن الأمة الإنجليزية .

فالأمة الإنجليزية الحديثة تكونت من مجموعة كبيرة من العناصر . كان أولها البريطانيون الأوائل الذين أخضعوا لحكم الرومان منذ القرن الأول للميلاد . ولما ضعفت الدولة الرومانية حلت فى بريطانيا جموع كبيرة من القبائل الجرمانية فى القرن الخامس للميلاد وكان أهمها قبائل (الإنجليز والسكسون) الذين كونوا الطبقة الحاكمة وأذلوا البريطانيين الأوائل وطردوهم إلى أطراف الجزيرة الشمالية والغربية . واستمر الحكم فى أيدى الإنجليز والسكسون نحو ستة قرون أخرى حتى أغار (النورمان) على بريطانيا فى القرن الحادى عشر للميلاد . وكان الفتح (النورمانى) بدء المرحلة الثالثة فى التطور الطويل للأمة الإنجليزية الحديثة . وكان عهد الحكم (النورمانى) عهد ذل وبؤس وفقر سواء للعنصر

(الأنجلوسكسونى) أو للعنصر الأول البريطانى .

وقد سجل التاريخ وصفاً مفصلا لقسوة ذلك الحكم نقتطف منه بعض عبارات عامة لتبين إلى أى حد بلغ تعسفه بالأهلين جميعاً .

يقول المؤرخ الإنجليزى (هَلَم) : « وعلاوة على مظاهر القسوة التى وقعت على الإنجليز بعد كل ثورة كانوا يقومون بها ضد النورمان أضرب مثلين من وقائع التدمير الشامل التى ذاع ذكرها فقد دمرت ولاية يوركشير تدميراً كاملا كما دمر إقليم الغابة الجديدة " نيوفورست " ... فبقيت هاتان الولايتان تسع سنوات وليس فيهما قرية مأهولة، بل لم يبق فيهما كائن حى » .

وجاء فى يوميات وليام أحد مؤرخى الإنجليز القدامى :

« لم تبق قرية مأهولة بين يورك ودرهام إذ أن الحرائق والتقتيل والتدمير حولت ذلك الإقليم إلى خراب وحولته إلى برية ما تزال مواتاً إلى اليوم (أى بعد ستين سنة من الفتح النورمانى) .

وقد استولى وليم الفاتح النورمانى على أملاك أكثر أعيان الإنجليز السكسون واستولى النورمان على كل وظائف الحكم ووظائف الكنيسة واضطر كثير من الأعيان الإنجليز إلى الهجرة حتى وصلوا إلى القسطنطينية ودخلوا فى خدمة حرس الإمبراطور الرومانى . وكان نير النورمان على عامة الأهلين أشد وطأة، فقد حرم عليهم إيقاد الأنوار فى بيوتهم فى الليل وجعلت عقوبة الإعدام جزاء على المخالفة حتى لا تتاح لهم فرصة للاجتماع

فى الليل والتآمر على الثورة ضد مظالم الفاتحين .

وقد اعتبر الفاتحون أهل البلاد جميعاً أشباه عبيد وأقاموا قلاعاً عدة فى طول البلاد وعرضها لإرهابهم وإخضاعهم ، وكان يحرم عليهم أن يمارسوا الصيد من البرارى والغابات كى يحفظوا الحيوان البرى كله لإمتاع سادتهم الفرسان النورمان بالصيد . وكان من قواعد الحكم عند النورمان أنه إذا وجد قتيل فى ناحية من النواحى ولم يتحقق الحاكم أنه من أهل البلاد الأصليين (الإنجليز السكسون) فرضت غرامة كبيرة على أهل تلك الناحية لاحتمال أن يكون ذلك القتيل (نورمانياً) .

وقد استمر هذا العسف عدة قرون تخللتها مصادمات دموية كثيرة حتى أمكن بعد نحو خمسة قرون أخرى أن تبدأ عناصر الأمة الإنجليزية فى الاندماج لتكوين أمة جديدة تسعى إلى إظهار إرادتها واسترجاع حقوقها الإنسانية .

فيمكننا أن نقول ونحن مطمئنون كل الاطمئنان إن تطور الأمة العربية واندماج العناصر المكونة لها كان مثالا فذاً فى تاريخ الأمم الحديثة التى سجل التاريخ تفاصيل حوادثها .

وقد كان من آثار الامتزاج العفوى السمح الذى امتازت به الأمة العربية أن الشعوب المتعربة تقبلت اللغة العربية وثقافتها تقبلا سريعاً بغير تحفظ ، فتكلموا بالعربية وكتبوا بها وتشربوا بثقافتها حتى إننا لا نجد فرقاً بين ما كتبه العرب الخلص وما كتبه أبناء الشعوب المتعربة

من ناحية المبادئ الخلقية والأصول الاجتماعية ومقاييس القيم والمثل العليا . فقصائد المدح التى كان ينشدها الشعراء من أبناء الشعوب المتعربة تتغنى بالفضائل التى يتغنى بها الشعراء الذين ترجع أنسابهم إلى أرومات عربية أصيلة . كلهم يشيد بالفضائل التى أشاد بها شعراء العرب القدامى فى حياتهم بالبادية ، وكلهم ينكر الرذائل التى أنكرها العرب فى حياتهم السالفة ، كما أن مبادئ الرسالة العربية الإسلامية كانت المبادئ المعترف بها عند الجميع .

هكذا كان هذا الاندماج وما ترتب عليه من قبول الشعوب جميعاً للغة العربية وثقافتها هو السر فى سلامة اللغة العربية والاحتفاظ بها فصحى نقية طوال ثلاثة عشر قرناً منذ أيام الفتح العربى إلى أيامنا الحاضرة ، ولسنا نكاد نجد أمة أخرى احتفظت بلغة الفاتحين كما احتفظت الأمة العربية بلغة العرب الذين لم يكونوا إلا عنصراً من عناصرها ، بل إن العرب لم يحتفظوا طويلاً بعنصرهم المحض لسرعة امتزاج دمائهم بدماء الشعوب الأصليين فى البلاد عن طريق المصاهرة التى لم يمنع منها اختلاف الدين بين زوج مسلم وزوجة غير مسلمة تصبح أماً لجيل جديد من شباب عربى اللغة واالثقافة .

فاللغة الإنجليزية الحاضرة مثلا ليست هى لغة النورمان ولا لغة الإنجليز أو السكسون القدامى وليست لغة البريطانيين الأصليين الذين سبقوا هؤلاء فى أرض إنجلترا . بل إنها لا تكاد تشبه اللغة الإنجليزية التى كان الناس يتفاهمون

بها فى تلك البلاد منذ خمسة قرون . ومثل هذا يمكن أن يقال عن اللغات الحية الأخرى كالفرنسية والألمانية .

وقد كان بقاء اللغة العربية حية محتفظة بكيانها سليماً وبصورتها كاملة عاملا قويـًّا على غزارة الإضافات النفيسة للثروة الثقافية للأمة العربية الجديدة ، فهذه اللغة كانت بمثابة رباط متين بين ماضى الأمة وحاضرها وكانت بمثابة وعاء ضخم لثقافات قرون متوالية وعبقريات متعددة . فالأمة العربية فى وقتنا هذا مدينة بدين حضارى ثقافى عظيم للأجيال التى تعاقبت بعد الفتح وكان لها الفضل فى إحداث ذلك الاندماج العفوى الذى تحدثنا عنه بين العرب وبين الشعوب المتعربة بسرعة منقطعة النظير وبصورة كاملة ليس لها شبيه فى تاريخ الأمم . ولا نجد بدًّا هنا من أن نعرج على سؤال له علاقة وثيقة بهذا الحديث عن اندماج العرب بالشعوب الأخرى فى مثل هذه السرعة وفى مثل ذلك الكمال .

فهل حدوث الاندماج بين العناصر المختلفة التى تكون أمة من الأمم يستلزم مضى مدة معينة على اجتماع تلك العناصر معا ؟ هل هناك مقياس زمنى نعرف به متى أتمت إحدى الأمم صهر عناصرها المختلفة وتكوين أمة متماسكة مندمجة ذات كيان واحد متميز ؟ والجواب على هذا واضح فى ثنايا ما قدمناه من حديثنا هذا . فالزمن ما هو إلا رمز اتخذه الإنسان ليعبر به عن حركة معينة ، والزمن الذى تعارف الإنسان عليه كى يعد به الساعات والأيام والأشهر والسنوات، لا مغزى له بالنسبة لتكوين الأمم .

ونحن حين نقول إن تطور أمة معينة قد حدث فى مدى قرن أو عدة قرون ، فمعنى هذا أن العوامل التى أدت إلى هذا التطور كانت من القوة بحيث أحدثت أثرها فى تلك المدة .

فالعبرة فى تكوين الأمم إنما تكون بقوة العوامل التى تؤثر فى تطورها . قد تستغرق إحدى الأمم ألوفاً من السنين فى حالة ركود فلا يحدث فيها تطور ملحوظ ، وقد تستغرق أمة أخرى قرناً واحداً أو بضع عشرات من السنين للوثوب من حالة إلى حالة أخرى ، والمعول فى سرعة التطور أو بطئه إنما يكون على قوة العوامل التى تحدث التغيير فى الأمة .

فميلاد الأمة العربية الجديدة فى مدى قرن واحد بعد الفتح واختلاط العرب بالشعوب الأخرى ، ثم نمو هذه الأمة ونضجها كأمة واحدة مندمجة العناصر فى مدى قرنين وزوال الفروق بين هذه العناصر التى تكونها وأخذها فى بناء حضارة ذات طابع متميز — كل ذلك كان ناشئاً من قوة العوامل التى أثرت فى تطورها .

٤ ـ الدولة العربية

مرت الأمة العربية في مدة القرنين الأولين من حياتها بتجارب متنوعة لا نستطيع هنا إلا أن نجمل اتجاهاتها العامة لأن تفاصيلها جديرة بأن تخفى عنا سلسلة اتصالها وتطورها ، وكان من أهم هذه التجارب محاولاتها المتعددة فى تكوين صورة واضحة لدولتها ونظام الحكم فيها .

وكان من الطبيعى أن يواجه العرب فى أول الأمر مواقف لم يسبق لهم عهد بمثلها ، إذ كانت حياتهم السابقة فى الجزيرة العربية قائمة على نظام القبيلة والولاء لها كما مر ذكره ، وكان أسلوب حياتهم اليومية فى الصحراء يختلف كثيراً عن أساليب الحياة اليومية فى البلاد التى وجدوا أنفسهم فيها . وكانت أول مشكلة واجهتهم هى كيف يقيمون نظاماً مركزياً للحكم يكفل لهم الإبقاء على وحدة القبائل فى جزيرتهم كما يكفل لهم الإشراف على حكم البلاد الواسعة التى آل إليهم حكمها . وكان عليهم مع مواجهة هذه المشكلة أن يحدثوا كثيراً من التغيير فى أساليب إدارة الأقاليم التى تكونت منها دولتهم كى تكون هذه الأساليب متسقة مع مبادئ رسالتهم الإنسانية التى حرروا شعوب تلك الأقاليم على أساسها .

فكانت هاتان الضرورتان تحتم عليهم أن يقوموا فى وقت واحد بتدبير عملى لتنظيم أداة الحكم المركزى، وتنظيم آخر للإشراف على الأمن والعدالة

بين القبائل فى جزيرة العرب المترامية الأطراف، وتنظيم ثالث لإدارة الأقاليم التى فتحوها وإدخال ما ينبغى لهم إدخاله على نظمها من التغيير كى تتسق مع المبادئ الإسلامية .

ولم يكن من الممكن لهم فى بادئ الأمر أن يجدوا مثالاً صالحاً يحتذونه فى إقامة الحكم المركزى ، إذ لم يكن من الممكن أن يتخذوا الحكم المركزى فى فارس أو فى بلاد الروم مثالا لهم وهم الذين يعرفون ما كان ينطوى عليه كل من هذين النظامين من الفساد والطغيان . فالصعوبة التى واجهها العرب كانت صعوبة كبرى فى إقامة دولتهم المركزية ووضع نظام للحكم فى بلادهم وفى الأقاليم التى فتحوها ، ولم يكن أمامهم إلا الاجتهاد فى التفكير والابتكار وبذل الجهد فى إقامة ذلك النظام على أساس العدل والحرية والمساواة التى تأمر بها رسالتهم الإسلامية . ولم يكن من المتيسر لهم فى أول الأمر أن يتخصص بعض قادة الرأى من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام فى إقامة التنظيم العملى وأن يتخصص آخرون فى رسم خطط الفتح، وغيرهم فى بحث الأصول والمبادئ التى جاء بها الإسلام فى أسس الحكم، فكان كبار الصحابة يقومون بهذه الأعمال جميعاً ويشتركون بالرأى فى كل ميدان من ميادينها . فكانوا هم الذين يقودون الجيوش وهم الذين يرسمون نظام الحكم وهم الذين يبحثون فى المبادئ والأصول ويرجع إليهم الناس للفتوى فى أمور دينهم ودنياهم وللحكم فيما يقوم بينهم من المنازعات والقضايا .وكانت الظروف المحيطة

بالعرب عند وفاة الرسول تدعو إلى البت السريع فى إقامة نظام عملى للحكم كيما يواجهوا ما كان يحيط بهم من المؤامرات والثورات المدبرة التى أسلفنا وصف خطوطها العامة .

وكان اجتماع كبار الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة فى يوم وفاة الرسول حدثاً تاريخياً عظيم الأهمية . فقد أدرك المجتمعون بذكائهم الفطرى أن الموقف لا يحتمل توسيع شقة الخلاف فى الآراء . فمع أنهم تناقشوا مناقشة حرة صريحة وأبدى كل منهم رأيه كما تعود العرب أن يبدوا آراءهم فى قوة وثقة بالنفس فإن شعورهم بدقة الموقف وخطورته جعلهم يسارعون إلى قبول الرأى الذى وافق عليه أكثرهم واختاروا أبا بكر وهو أول من آمن برسالة الإسلام ليكون خليفة النبى محمد عليه الصلاة والسلام . واكتفوا جميعاً بأن يسموه خليفة الرسول ولم يحددوا حقوقه عليهم ولا واجباته نحوهم لأنهم قنعوا بأن يسير فيهم وفق سيرة الرسول وأن يلزم بقدر اجتهاده ما يراه متسقاً مع القواعد التى جاء بها الإسلام ، فيرجع إلى المبادئ التى نص عليها القرآن وإلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا أشكل عليه الأمر ولم يجد سنداً من الكتاب أو السنة اجتهد برأيه على هدى الكتاب والسنة .

وقد أجمل الخليفة الأول الخطة التى عزم أن يسير عليها فى حكم الأمة فى خطبته الموجزة التى وجهها إلى الناس عقب مبايعته إذ قال ما معناه : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى

وإن رأيتمونى على باطل فقومونى . ألا إن الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه .أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

فى هذه الكلمة الموجزة وضع أبو بكر مبدأين عظيمين فى الحكم أولهما، أن المرجع الأخير فى الحكم هو الأمة التى لها أن تساعد الحاكم وتسير معه إذا رأته على حق والتى لها أن تقومه إذا حاد عن الحق ، والمبدأ الثانى أن الحاكم إذا أطاع ما أمر به الله فى رسالته إلى الإنسانية ، كان من واجب الناس أن يطيعوه ، وأما إذا عصى ما جاءت به هذه الرسالة فإن الأمة تكون فى حل من طاعته .

وقد أشار أبو بكر فى هذه الخطبة إلى واجب هام من الواجبات التى تحتمها عليه رسالة الإسلام وتعمد أن يؤكد هذه الإشارة بتكرار معناها مرتين عند ما أعلن أن أضعف الناس قوى عنده حتى يأخذ الحق له وأن أقوى الناس ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . فهو فى هذه الإشارة الخاصة يعلن على الناس أن أساس الحكم هو المساواة بين الناس فى الحقوق فليس فى دستور الإسلام مجال لمحاباة الأقوياء ولا تجاهل لحقوق الضعفاء .

فمن الحق أن نقول إن الأمة العربية أخذت على عاتقها فى يوم السقيفة أن تطبق دستورها بنفسها على نفسها . لقد كانت تتطلع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى مدة حياته لتتلقى منه الهداية فى كل أمر

من أمور دينها ودنياها . فلما رأت أن مكانه فيها قد خلا كان لا بد لها من أن تفكر وأن تجدد وأن تبتكر الوسائل التى تمكنها من مواجهة أمور دينها ودنياها وفق رسالة الإسلام التى آمنت بها . فيوم السقيفة هو أول عهد الأمة العربية بتحمل مسئولية أمورها بنفسها . وقد بدأت فى تحمل هذه المسئولية ببراعة وذكاء فكان أول ما اهتدت إليه بفطنتها أن تتفق على اختيار خليفة الرسول بالانتخاب ، وأن تتفق على اتباع الرأى الذى يراه أكثرها . فلما اتفقت الآراء أو أكثرها على اختيار أبى بكر ليكون حاكمها الأعلى أبى ذلك الخليفة العظيم إلا أن يبين للناس رأيه فى الخطة التى ينبغى للحاكم أن يسير عليها وأن يؤكد أن للأمة مرجع الأمور كلها وأن عليها أن تراقب أعمال الحاكم فتساعده إذا سار على وفق منهج الرسالة الإسلامية وتقومه إذا حاد عنها وتخلع طاعته إذا عصاها بل إنه من الحق أن نقول إن يوم السقيفة يمثل حدثاً هامًّا فى تاريخ الإنسانية جميعاً ، لأن العالم كله كان فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة إلى توكيد حق الأمة فى اختيار حاكمها وإلى بيان أن مرجع الأمور كلها يكون إليها وأن طاعة الأمة لحاكمها تتوقف على طاعته لأحكام دستور شامل تؤمن به الأمة ولا تتسامح فى الخروج عليه أو عصيانه .

وقد بقيت هذه المبادئ حية فى أعماق ضمير الأمة العربية على مر الدهر على رغم تقلب الظروف واختلاف الدول وعلى رغم ما اتخذه الحكم من صور قريبة أو بعيدة عن المثال الأعلى الذى رسمت صورته فى يوم

السقيفة . فإن أحكام الدستور الإسلامى بقيت أساساً لعقيدة الأمة العربية فى حياتها العامة ، وكان لها الفضل فى حماية حرياتها وعصمتها من الهبوط إلى مثل ما هبطت إليه الشعوب الأخرى . فلم يجرؤ حاكم فى وقت من الأوقات حتى فى أشد العصور ظلاماً على أن يسوم الأمة العبودية أو أن يعسف بالأفراد ويذلهم ويسلب كرامتهم كما تجرأ الحكام مثلا فى بلاد أوربا فى العصور الوسطى أو كما تجرأ الملوك والأمراء فى فرنسا على رعاياهم قبل الثورة الفرنسية .

وقد استمرت محاولات الأمة العربية طوال حكم الخلفاء الأربعة الأول للملاءمة بين نظام حكمها وبين ظروفها مع الاحتفاظ بالسير على منهج رسالتها . وكانت طريقة اختيار عمر للخلافة غير طريقة انتخاب أبى بكر ، إذ كانت الحروب بين العرب وبين الروم والفرس دائرة على أشدها عند وفاة أبى بكر .

وقد أدرك هذا الخليفة الأول العظيم خطورة الموقف فاحتاط للأمر قبل وفاته وأوصى الأمة بمبايعة عمر بن الخطاب وقال فى كتاب وصيته ما معناه: إنه وهو موشك أن يفارق الدنيا وأن يقبل على الدار الآخرة يوصى الأمة بمبايعة عمر بن الخطاب ، فإن هو بر وعدل فذلك علمه به وظنه فيه وإن جار وبدل فلا علم له بالغيب وإنما أراد الخير . وأردف هذه الوصية بالآية الكريمة « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

فهو قد اجتهد فى رأيه ليحافظ على مصلحة الأمة فى ذلك الوقت

الخطير ، وأوصى الأمة بمبايعة رجل عرفه كما عرفته الأمة وقدرت فضله . غير أنه لم يجعل وصيته مطلقة من كل قيد بل نبه الأمة إلى أن مرجع الأمر كله إليها ، فإذا جار عمر وبدل ما عهده أبو بكر فيه وما عهدته فيه الأمة ولم يلزم منهج الرسالة المقدسة التى لا ينبغى لأحد أن يفرط فى شىء منها فإنه لا يتحمل وزره ويتبرأ منه . ولاشك أن الآية الكريمة التى استشهد أبو بكر بها فى كتابه تحمل عمر مسئولية عظمى أمام ضميره وأمام ربه كما أنها تشير من طرف خفى إلى أن الأمة فى هذه الحالة تكون فى حل من بيعته حتى تحقق تهديد الآية الكريمة التى توعد الظالمين بسوء المصير فى الدنيا وفى الآخرة.

وقد رحب الناس بولاية عمر للخلافة كما كان منتظراً ، ولم يقصر عمر بن الخطاب فى تحقيق ما توقعه أبو بكر منه ، وكان طوال مدة حكمه يؤكد حق الأمة فى مراقبته كما يؤكد واجبه فى التزام أحكام رسالة الإسلام فى كل كبيرة وصغيرة من شئونه الخاصة وفى كل ما يصدر عنه من الأحكام والآراء فى الشئون العامة . وما تزال أجيال الأمة العربية تذكر موقفه يوم قام فى المسجد خطيباً وكان مما قاله للناس « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » فرد عليه أحدهم قائلا « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا » فلم يعقب على هذا الرد إلا بقوله « الحمد لله الذى جعل فى الأمة العربية من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » فهو يقر فى صراحة نبيلة بسيطة أن الأمة هى صاحبة الحق فى تقويم اعوجاجه ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة فى ذلك .

وكان عمر بن الخطاب من أقوى رجال التاريخ شخصية ومن أقدرهم على التنظيم وأحرصهم على النظر فى كل أمور رعيته .

كان يصدر فى كل أمر من أموره عن ذكاء ممتاز وبصيرة نافذة وكانت صفة العدل سجية فيه وصفة الاعتدال طبعاً راسخاً فى نفسه . أما تواضعه فقد كان تواضع العظيم الذى يزداد عظمة فى تواضعه . وكان من المنتظر منه أن ينظم طريقة اختيار الخليفة كما نظم أموراً أخرى كثيرة من أساليب الحكم والإدارة ولكنه قتل غيلة على غير انتظار وما تزال الأمة العربية فى أشد الحاجة إليه وإلى عبقريته . وكان اغتياله مدبراً على ما يظهر من الأخبار الواردة عنه ، تنفيذاً لمؤامرة أجنبية قصد بها حرمان العرب من شخصيته العظيمة قبل أن يتمكن من ترسيخ أصولها وإرساء قواعدها ، ففقدت الأمة العربية بفقده زعيماً عظيماً وأملاً كبيراً .

فلما اغتيل فجأة شعر بأن واجبه الأخير نحو أمته يقضى عليه أن يبادر بابتكار طريقة سريعة لاختيار الخليفة بعده حتى لا تقع الفرقة بين زعماء الصحابة وتتعرض مصلحة الأمة للخلل فى ذلك الوقت الذى كان فيه العرب يوغلون فى أرض الروم والفرس ويشتبكون فى القتال مع جيوش ضخمة حشدتها هاتان الدولتان فى محاولتهما اليائسة للمحافظة على سيطرتهما وسطوتهما بشعوب آسيا وأفريقيا .

وكانت الطريقة التى ابتكرها عمر اختياره لأهل « الشورى » وهم ستة من كبار الصحابة وأعلاهم فى الناس قدراً ، لما عرفوا به منذ بدء الدعوة الإسلامية

من قوة الإيمان والفضل والزهد فى الدنيا والحكمة فى الرأى، وكان يرى أن كل واحد منهم أهل لتولى الخلافة ولكنه لم يشأ أن يتحمل المسئولية فى اختيار أحدهم فوكل ذلك إليهم ليختاروا من بينهم رجلاً يرضونه للخلافة ويقدموه إلى الأمة لتبايعه اعتماداً على رأيهم فيه .

ووقع اختيار أهل الشورى آخر الأمر على عثمان بن عفان وهو أحدهم وتمت له البيعة الخاصة من أهل الشورى وأعقبتها البيعة العامة من أهل المدينة ومن كان حاضراً هناك من العرب .

وكانت مدة حكم عثمان امتحاناً عسيراً للأمة العربية فى حياتها السياسية ، فقد كان شيخاً كبير السن عندما ولى الخلافة وقيل إنه كان قوى الشعور بالعبء الثقيل الذى ألقى على عاتقه . فيقول الطبرى إنه عندما خرج ليصلى بالناس لأول مرة بعد انتخابه كان « أشد الناس كآبة » وكانت خطبته تفيض بما يدل على هذه الكآبة .

وكان من أول ما أمر به أن بعث إلى عمال الأقاليم بكتب تدل على أنه كان شديد الحرص على اتباع نهج عمر وأبى بكر فى توجيه الحكم ؛ فإنه بعث إليهم يقول : « إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة » ويقول : « إن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ؛ فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ؛ ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ؛ ثم العدو فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

وبعث إلى قواده الجند يقول فيما قال : إنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغنّى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » .

واستقامت الأمور لعثمان كما استقامت لعمر بن الخطاب من قبله مدة الأعوام الأولى من حكمه إلا أن بعض أعماله أغضبت بعض كبار الزعماء من فضلاء الصحابة مثل سعد بن أبى وقاص وهو أحد الستة أهل الشورى فإن عثمان عزله عن ولاية الكوفة ومثل عمرو بن العاص فإنه عزل كذلك عن ولاية مصر .

وتوالى انتصار الجيوش العربية فى مدة هذه السنوات وزادت آفاق الفتح اتساعاً حين جهز معاوية بن أبى سفيان حاكم الشام أسطولاً لغزو الروم فى البحر ليرد غزوات أساطيل الروم التى كانت لا تنقطع عن سواحل الشام، فما زالت غزوات البحر تتوالى حتى بلغ العرب قسطنطينية وحاصروها، وكان أول أمراء البحر البطل عبد الله بن قيس الحارثى الذى جمع بين البسالة والشهامة وكرم النفس ، وظهر بعده نبوغ عبد الله ابن سعد بن أبى سرح فى قيادة الأساطيل فوق ما كان له من البراعة فى قيادة جيوش البر .

غير أن الأمور بدأت تختل بعد مضى سبع سنوات من حكم عثمان ، ولسنا نستطيع أن نتبين الحقائق من خلال الأخبار المتضاربة عن الحوادث

التي تدل على ذلك الاختلال . وكل ما يمكن أن يقال عن يقين أو ما يشبه اليقين : إن بعض الألسنة بدأت تنطلق بذم عثمان وانتقاد سياسته ، وإن أكثر هؤلاء الذين كانوا يطلقون فيه ألسنتهم كانوا يحقدون على عماله لسبب أو لآخر من دوافع الكراهة .

وليس هذا موضع تفصيل الحوادث وبيان البواعث عليها فلسنا نقصد إلا أن نقول إن كل ما وجه إلى عثمان من الذم والنقد لا يعتمد على حقائق ثابتة بل كانت تحيط به شبهات تجعله أقرب إلى أن يكون افتراء محضاً.

طعن محمد بن أبي حذيفه على عثمان لأنه ولى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح على مصر وكان ذلك على أثر مشاحنة بين الشاب محمد بن أبي حذيفة وبين عبد الله بن سعد قائد الأسطول الذى انتصر على الروم فى موقعة الصوارى ، وقد بدأت بينهما المشاحنة على أثر مخالفة محمد للقائد وتقريع قائده له . وأخذ بعض الشبان من أهل الكوفة يطعنون على عثمان بأنه ولى على الكوفة الوليد بن عقبة واتهموا الوليد بشرب الخمر ومخالفة بعض أوامر الدين وشنعوا عليه بذلك واتخذوا التشهير به ذريعة على الطعن الشديد فى عثمان ، وكل الأدلة الظاهرة تدل على براءة الوليد بن عقبة مما شنع به هؤلاء عليه لأنهم كانوا يحقدون عليه لعداوة خاصة بينهم وبينه .

وكان من أسباب الطعن على عثمان تصديه للصحابى الكبير أبى ذر واستدعائه من الشام حيث كان يقيم ونفيه إلى الربذة ، فى موضع منعزل فى شمال المدينة. وكان أبو ذر يكره ما طرأ على العرب من الغنى

بعد أن اتسعت لهم الفتوح ويرى أن المال الذى يعود إلى الدولة من وراء فتوحها لا ينبغى أن يؤول إلى بعض الناس دون بعض بل يجب أن يرد على الناس جميعاً حتى لا يكون بينهم فروق كبيرة من غنى وفقر . وكان يدعو الأغنياء فى حماسة كى يواسوا الفقراء من أموالهم ، فتلقف الفقراء تلك الدعوة وولعوا بها وأوجبوها على الأغنياء حتى شكا هؤلاء ما يلقون من الجماهير الفقيرة فشكا معاوية إلى عثمان ما يثيره أبو ذر من بواعث الثورة بين الفقراء ، فأمر عثمان باستدعاء أبى ذر إلى المدينة وأوصى معاوية بالترفق به . ولما لقيه عثمان حدثت بينهما مناقشة عن الدعوة التى يدعو إليها أبو ذر وانتهت المناقشة بأن قال له عثمان : « يا أبا ذر علىّ أن أقضى ما على وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وعلىّ أن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد » فلم يرض أبو ذر بذلك واستأذن فى الخروج من المدينة غاضباً فأقام بالربذة .

وقد اتخذ الحاقدون على عثمان ذلك الخلاف بينه وبين أبى ذر وسيلة للطعن فيه وإثارة الناس عليه .

وكثر الطعن على عثمان لأسباب أخرى ترجع جميعاً إلى بواعث خاصة من الحقد الشخصى أو دسائس الأعداء حتى ذاعت المطاعن على عثمان بين الناس وهم بين مصدق ومكذب ، إلا أنها فتحت أبواب الفتنة على الحكم وفتحت آذان الناس لقالة السوء بعد أن كانت تتعفف عنها .

وكانت النهاية المحتومة لتلك المطاعن مجتمعة أن أثيرت الفتنة فى المدينة

نفسها ، وتطورت الحوادث سريعاً من سوء إلى سوء أعظم منه حتى تعقد الموقف وأدى إلى ثورة هوجاء انتهت بقتل الخليفة الصحابى الشيخ . وكانت مدة حكم عثمان نحواً من اثنى عشر عاماً يمكن اعتبارها فترة تحول عظيم فى تاريخ الأمة العربية لأن آثار حوادثها الخطيرة امتدت إلى ما بعدها ، وكانت لها آثار كبرى فى حوادث السنوات التالية ، بل كانت لها آثار هامة فى توجيه الحكم فى الأمة العربية .

وكان من آثار الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان انقطاع سلسلة التطور الذى تتبعناه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فى نظام الحكم .

وقد انتخبت الجماهير الثائرة بالمدينة الإمام على بن أبى طالب للخلافة وهو أحد أهل الشورى الستة الذين اختارهم عمر قبل موته لاختيار الخليفة بعده . كما أنه من أكبر الصحابة ومن أعظمهم جهاداً وأكثرهم زهداً وورعاً وقد عاصر الدعوة الإسلامية من مبدئها وكان أول من آمن بالرسالة ومن أشد الناس حرصاً على خير الأمة العربية ومصلحتها . ولكن الثورة التى انتخبته فى وقت اشتداد عصفها حالت دون استقرار الأمر له ، ورفض بنو أمية قوم عثمان أن يبايعوه واستعدوا للخروج عليه كما أن بعض كبار الصحابة لم يرتاحوا إلى عنف الجماهير الثائرة ورأوا فى طريقة انتخابهم لعلى نوعاً من الإرهاب الذى يمنع حرية الانتخاب ويبطله .

ومهما يكن الأمر فإن الخليفة الرابع تعرض منذ بداية حكمه لمعارضة شديدة من نواح عدة ، ولم يكن الجمهور الثائر الذى انتخبه سلس

الانقياد له ، وكان هو نفسه يشعر بذلك من أول الأمر ، فلم يظهر ارتياحاً إلى تولى الخلافة فى ذلك الجو العاصف ، ولم يرض بمبايعة الناس له إلا بعد أن ألحوا عليه وناشدوه أن يقبل البيعة حتى تهدأ الفتنة ولا تتعرض مصلحة العرب للأذى ، وكان قبوله لها بعد أن تردد ستة أيام من يوم مقتل عثمان.

وليس أسوأ ما حدث هو سيطرة الثوار على انتخاب على ؛ فقد كان من الممكن أن يكون ذلك الانتخاب الثائر حلقة من سلسلة تطور أسلوب اختيار الخليفة ، بل كان من الممكن أن يصير الانتخاب بعد ذلك على أساس أكثر قرباً من أسلوب الانتخاب الديمقراطى الحديث ، الذى تشترك فيه الجماهير كلها فيكون اختيارهم للخليفة مباشراً من درجة واحدة بعد أن كان فى أول الأمر يحدث بطريقة غير مباشرة على درجتين إحداهما البيعة الخاصة والأخرى البيعة العامة . غير أن هذا التطور لم تتح له الفرصة كى ينضج ويؤتى ثماره لأن الأمة شغلت طوال مدة علىّ بنزاع حربى مستمر انتهى بانتزاع الخلافة بالقوة والغلبة بدلاً من توليها بالاختيار الحر والرضى .

وكان أول من تصدى لحرب على اثنان من كبار الصحابة وهما طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام وقد أنكرا إرهاب الجماهير عند انتخاب على للخلافة . وخرجت معهما أم المؤمنين عائشة فحضرت القتال معهما وكانت تركب على جمل فسميت تلك الوقعة بوقعة الجمل .

وقد فقدت الأمة العربية فى هذه الوقعة طائفة من زهرة شبابها وكهولها

وكان من بين من قتل فى أعقابها الزعيمان طلحة والزبير . وكان انتصار على فى هذه الوقعة حاسماً فلم يبق من الحزب المعارض الذى حارب مع طلحة والزبير بقية تذكر . وما كاد على يفرغ من موقعة الجمل حتى بدأ الصراع بينه وبين بنى أميه الذين اتخذوا مقتل عثمان ذريعة إلى إثارة غضب أنصارهم وأتباعهم ،وكان زعيمهم معاوية يسيطر على الشام منذ تولى حكمها فى أيام الخليفة عمر . فكان جنوده بالشام مخلصين له متعودين طاعته ، وكان يسودهم نظام دقيق وعليهم قادة من رؤساء القبائل الموالية لبنى أمية . واتخذ معاوية المطالبة بدم عثمان ذريعته إلى حرب على إذ كان ابن عم عثمان وولى دمه على عادة العرب فى الجاهلية وهى عادة أقرها الإسلام .

ومهما يكن الأمر فإن موقف معاوية من المطالبة بدم عثمان لقى قبولاً من طائفة كبيرة من العرب كما أن موقف على لقى قبولاً من طائفة كبيرة أخرى إذ أصر على أن توقيع العقاب على الذين قتلوا عثمان من حق الخليفة الشرعى ، فهو الذى يوقعه بعد تحقيق يبين من هم القتلة ويظهر استحقاقهم للعقوبة .

وحدث الاصطدام بين جيشى على ومعاوية عند (صفين) وكان قتالاً شديداً استمر عدة أيام سالت فيه دماء كثيرة وقتل فى أثنائه عدد ضخم من أبطال العرب فى الجانبين . ولكن النصر ترجح بين الجانبين حتى لجأ معاوية إلى خدعته المعروفة ، فأمر برفع المصاحف على الرماح وأعلن الالتجاء إلى أحكام القرآن لتكون هى الفيصل فى الخلاف بين الفريقين . فأحدثت هذه الخدعة أثرها فى صفوف جيش على ، فتفرقت آراؤهم فرأى

منهم فريق أنه لا مفر لهم من الاستجابة إلى من يطلب تحكيم القرآن إذ هو دستور العرب المقدس وأنهم لم يخرجوا إلى حرب معاوية ليطلبوا الانتصار على غيرهم من المسلمين رغبة فى المجد أو السيطرة أو الاستيلاء على الحكم، بل انتصاراً للحق الذى يقرره هذا الدستور . فإذا كان معاوية وأصحابه قد رضوا بحكم القرآن فلابد لهم من الرضى بهذا التحكيم . ولكن فريقاً آخر من أصحاب على كره أن يلجأ إلى التحكيم لأنه رأى فى ذلك نوعاً من التردد الذى يدل على أنهم لم يكونوا على ثقة من أنهم على الحق عندما ساروا إلى قتال معاوية . وإذا كان على يقبل ذلك التحكيم فإن ذلك يكون اعترافاً منه بتردده فيكون الذين ناصروه وقتلوا فى أثناء معركة الجمل ثم فى معركة صفين قد ضحوا بحياتهم فى سبيل غير واضحة ولم يكونوا على ثقة من أنهم كانوا ينصرون الحق . ولا نرى ضرورة لذكر تفاصيل ما حدث فى ذلك التحكيم وحسبنا أن نقول إنه انطوى على خدعة نجحت فى توهين قوة على ولكنها كانت خيبة خلقية شنيعة لبنى أمية . وكان اتّباع على لرأى الكثرة الذين رضوا بالتحكيم سبباً فى تضعضع أمره شيئاً بعد شىء إذ اتخذ ذريعة لخروج بعض أتباعه عليه وتصديهم لعداوته وهم الذين كرهوا قبوله للتحكيم وهؤلاء هم الفرقة التى سميت منذ ذلك الوقت بالخوارج.

وقضى الخليفة الرابع سائر مدة خلافته فى صراع مستمر مع الخوارج ومع معاوية حتى قتل غيلة على يد أحد غلاة الخوارج فتمهد الأمر لاستيلاء معاوية على الخلافة بالقوة والغلبة .

ومنذ انفرد معاوية بالحكم استطاع أن يعيد الهدوء إلى الدولة فترة طويلة من الزمن وانتقل فى أيامه موضوع تطوير نظام الحكم من مجال المحاولات العملية إلى مجال البحث والاجتهاد النظرى . فالأمة العربية التى نزع منها معاوية فرصة الاستمرار فى المحاولات العملية لتنظيم طريقة اختيار الخليفة ، لم تتحول عن الاهتمام بمصير الحكم فيها وإن كانت قد نقلت نشاطها من ميدان التطبيق العملى إلى ميدان التفكير والبحث . ولم يلبث تفكير قادة الرأى فى الأمة أن أدى إلى نشأة مذاهب مختلفة يضع كل منها شروط الخلافة والمبادئ التى يقوم الحكم عليها . غير أن نشأة هذه المذاهب أدت سريعاً إلى وجود أحزاب عدة كل منها يتبع مذهباً من هذه المذاهب الفكرية ، فبادر كل حزب منها بالقيام بمحاولات عملية لتطبيق المبادئ النظرية التى يضعها أئمة مذهبه فكانت نتيجة ذلك كله حركة قوية تشبه حركة الغليان ، وهى تدل دلالة واضحة على حيوية الأمة العربية وشدة اهتمامها بالوصول إلى خير الوسائل العملية لتحقيق المبادئ الأساسية للحكم الإسلامى . غير أنها أدت فى الوقت عينه إلى حركات ثورية واضطرابات شديدة بعد زمن معاوية . ولسنا نقصد هنا أن نفصل فى بيان حدود هذه المذاهب ولا فى بيان وجهات نظر كل مذهب وكل حزب من الأحزاب المتناظرة ، فإن الذى نقصده هنا هو أن نتتبع محاولات الأمة العربية لتطوير نظام حكمها .

وقد استمرت هذه المحاولات طوال مدة هذا الدور الثانى من حياة

الأمة العربية أى طوال القرنين الأول والثانى للهجرة (القرنين السابع والثامن للميلاد) . ويمكن أن نجمل ذكر الاتجاهات العامة للمذاهب السياسية والأحزاب التى تكونت على أساسها فى أسطر قليلة .

كان المذهب الأول الذى بدأ منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لتحديد نظام الحكم يحصر الخلافة فى قريش ويجعل وسيلة اختيار الخليفة قائمة على مبايعة مبدئية يتفق عليها قادة الرأى فى الأمة وتتلوها مبايعة عامة من جمهور الأمة لإظهار رضاء العامة بتلك المبايعة المبدئية .

ويقابل هذا الاتجاه مذهب آخر وهو الذى ذهب إليه من يطلق عليهم لقب (الخوارج)،وكانوا لا يرون حصر الخلافة فى قريش بل كان رأيهم أن الخلافة يجب أن تكون متاحة لكل من تتوفر فيه شروط الصلاح للحكم من المسلمين سواء كان من قريش أو من غيرها .

وإلى جانب هذين الاتجاهين وجد مذهب ثالث أنشأه فى أول الأمر الفريق الموالى لعلى بن أبى طالب وهو المذهب الذى أطلق عليه لقب (الشيعة) ، وهو يحصر الخلافة فى دائرة أضيق من دائرة المذهب الأول فيجعلها فى نسل الرسول خاصة . ولما كان الرسول لم يعقب ذرية من الذكور فقد قصر هذا المذهب الخلافة على آل بيت الرسول وهم سلالة على بن أبى طالب . وقد تفرعت عن هذه الاتجاهات الثلاثة شعب صغرى لا محل للإفاضة فى ذكرها الآن اتجاهات هذه المذاهب الرئيسية الثلاثة هى التى رسمت أهم الخطوط فى التاريخ السياسى للأمة العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة .

وكان لظهور المذاهب والأحزاب السياسية أثر عملى فى الحوادث التى وقعت طوال أيام حكم الدولة الأموية واستمرت إلى أوائل حكم الدولة العباسية . وقد استطاع معاوية بعد استيلائه على الحكم بالقوة أن يوطد ملكه على رغم الاتجاهات الفكرية القوية المعارضة له. ولكن تصرفاته تدل على أنه كان يعترف بكل ما ينص عليه الدستور الإسلامى من الحقوق والواجبات الخاصة والعامة . وكانت فيه صفتان من أكبر مميزات السياسى البارع وهما الدهاء والحلم . ومما يؤثر عنه أنه كان يقول لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فإنهم إذا أرخوها مددتها وإذا مدوها أرخيتها . وتاريخ حياته ملىء بالمواقف التى تدل على مقدار حلمه وسعة صدره وتمكنه من ضبط نفسه .

ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه اليقين ماذا كان يمكن أن يتطور إليه نظام الحكم فى الدولة العربية لو لم تمتد يد الاغتيال إلى الخليفة الرابع على بن أبى طالب على حين فجأة قبل أن يستقر له الحكم . على أننا نستطيع أن نقول إنه كان جديراً أن يستمر فى تطوير الحكم فى الاتجاه الذى سبق إليه الخليفتان السابقان أبو بكر وعمر . فقد كان على زاهداً فى مادة الدنيا وكان ينظر إلى الحكم على أنه واجب عام يتطوع لأدائه من يقع عليه اختيار الأمة ، ولم يكن ليتخذ وسيلة للمجد ولا للسيطرة . على أن معاوية وإن لم يكن مثل على فى نظرته إلى الحكم كان عربياً صميماً عرف كيف يسوس العرب بغير أن يشعرهم بالخروج على دستورهم ، فهو فى

تاريخ الأمة العربية شبيه بالإمبراطور أغسطس فى تاريخ الدولة الرومانية إذ استطاع أن ينفرد بالحكم بغير أن يشعر الرومانيين بأنه غير نظامهم الجمهورى القديم .

وإذا نحن نظرنا إلى الحوادث من بعيد أمكننا أن نتبين أن الأمة العربية اطمأنت إلى حكم معاوية لأنه أوقف ولو مؤقتاً حركة الانقسام التى مزقتها منذ مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وكانت الحوادث الدامية التى بدأت عند ذلك كافية لإزعاج طائفة كبيرة من قادة الرأى فى الأمة وزعمائها ، إذ شعروا أن المصادمات الدموية الكثيرة بين الأحزاب السياسية واتباع المذاهب المتصارعة توشك أن تؤدى إلى تبديد قوى الأمة وتتيح للطامعين فى السيطرة أن ينتفعوا بالمعارك الحربية لتحقيق مصالحهم الخاصة.

وهذا هو السر فى أن قادة الأمة رضوا آخر الأمر بخلافة معاوية لأنها قضت على المصادمات بين الأحزاب وأعادت إلى الأمة العربية وحدتها واطمئنان حكمها .

غير أن هذا الهدوء الذى أعاده معاوية إلى الأمة لم يلبث أن زال بعد موته ، فمنذ اختفت شخصيته القوية عاد النزاع شديداً بين الأحزاب المختلفة ، فتحرك أبناء الزبير لاستئناف الثورة التى قام بها أبوهم ضد على وانتهت بموقعة الجمل ، وكانت حجتهم هى الحجة التى استند إليها الزبير فى ثورته على علىّ وهى أن الخلافة لا ينبغى أن تؤخذ بالقوة والغلبة فاعتبروا استيلاء معاوية على الخلافة بالقوة مخالفاً لروح الإسلام .

ولا بد لهم من إرجاع الأمر إلى الأمة لتختار خليفتها بانتخاب حرّ لا قهر فيه . وتحرك الحزب الآخر وهو الشيعة ودعوا الحسين بن على إلى الثورة على حكم بنى أمية وكانت حجتهم هى أن الخلافة لا يصح أن تكون إلا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتحرك الحزب الثالث للثورة أيضاً وهو حزب الخوارج وكانت حجتهم فى ذلك أن الانتخاب للخلافة يجب أن يكون حراً من كل ضغط وقسر وأنها لا تقتصر على قريش بل يمكن أن يرشح لها من تتوافر له صفات الحاكم العادل القوى ولو كان من غير قريش .

ولم تطل مدة الخليفة الأموى الذى جاء بعد معاوية وهو ابنه يزيد ، ولم يكن فى بيت معاوية من يستطيع مواجهة الموقف الحرج الذى عمت فيه القلاقل فوثب أحد شيوخ بنى أمية للاستيلاء على الحكم وهو مروان ابن الحكم الذى كان فى شبابه من أكثر بنى أمية اتصالاً بالخليفة الثالث عثمان بن عفان . وقد استطاع مروان أن يبدأ عهداً جديداً من حكم بنى أمية لأن الملك استمر فى آل بيته نحو سبعين عاماً إلى أن زالت دولة بنى أمية .

وشهد حكم بنى مروان تطوراً جديداً فى الحكم العربى إذ بلغت الدولة فى أيامهم ذروة مجدها ووصلت الجيوش العربية إلى أقصى الحدود الغربية فى شمال أفريقيا وعبرت إلى أسبانيا فرفعت أعلامها على شبه الجزيرة كلها ، ثم عبرت جبال البرانس واستولت على جنوب فرنسا . وكانت فتوحها فى

الشرق أعظم من فتوحها فى الغرب فامتدت إلى ما وراء نهر سيحون وضمت بلاد الترك إلى الدولة العربية وعبرت الجبال العالية المؤدية إلى الهند وفتحت أرض السند .

واستطاع بنو مروان إلى جانب حشد الجيوش العربية لهذه الفتوح الضخمة أن يقضوا على الثورات العدة التى زاد اضطرامها فى مدة حكمهم فلم يكد يخلو منها حكم ملك من ملوكهم ، وكان أشدها فى مدة عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد الأول بن عبد الملك .

غير أن قضاء الأمويين على الحركات الثورية الظاهرة لم يمنع الأحزاب المعارضة لهم من بث دعاياتهم فى الخفاء ، وكان حزب الشيعة أكثرها نشاطاً وأقدرها على استمالة الناس وإثارة عطفهم ، وساعدهم على ذلك ما كان يعمد إليه الحكم الأموى أحياناً من القسوة فى عقاب الثائرين عليه من العلويين . فكان زعماء الدعاية الشيعية يثيرون العطف على آل بيت النبى عليه الصلاة والسلام كلما أوقع الأمويون بأحدهم ، كما كانوا يوقدون الغضب والحقد فى القلوب بأن يصوروا للناس أن الأمل فى تحقيق العدل وإقامة الحكم على أساس مبادئ الإسلام يتوقف على استيلاء آل بيت الرسول على الخلافة . وذهب دعاة الشيعة لبث دعاياتهم فى أطراف الدولة من الشرق والغرب فكانت طائفة تقوم بالدعاية فى خراسان وهو الإقليم الشرقى الأقصى من الدولة ، وكانت طائفة أخرى تقوم بدعايتها فى بلاد المغرب . ولاقت الدعاية فى خراسان نجاحاً عظيماً

لأن ذلك الإقليم كان أكثر أطراف الدولة استعداداً لقبولها ، ولعل سياسة بنى مروان هى التى مهدت لانتشار الدعاية العلوية هناك . كانت سياسة الدولة الأموية عامة منذ أيام معاوية محدودة الأفق فلم تسمح بتطور الحكم تطوراً طبيعيًّا للملاءمة بينه وبين اتساع رقعة الدولة العربية . وقد اتسعت حدود هذه الدولة حتى بلغت بلاد الهند والترك شرقاً وحتى بلغت حدود بلاد الفرنج فيما يلى بلاد الأندلس غرباً ، ومبادئ الإسلام تقضى بالمساواة التامة بين المسلمين فى الحقوق والواجبات كما تقضى برعاية حقوق أهل الذمة الذين يحتفظون بأديانهم من أبناء الشعوب التى ضمت إلى الدولة العربية . وقد حقق الأمويون الجانب الثانى من هذه المبادئ فكانت معاملة دولتهم لأهل الذمة قائمة على السماحة والرعاية التامة على حين كانت معاملتهم للمسلمين من أبناء الشعوب غير العربية لا توفر لهم المساواة التامة التى يفرضها الإسلام فى صراحة . ولم تكن معاملة الأمويين واحدة لرعاياهم المسلمين من أبناء الشعوب غير العربية جميعاً ، فكان المسلمون البربر فى شمال أفريقيا والمسلمون من أبناء قبط مصر أحسن حظًّا من مسلمى الفرس ، فكانوا يشاركون العرب فى حملات الفتوح وكانت الجيوش التى فتحت الأندلس تشتمل على العرب والقبط المصريين المسلمين والبربر جنباً إلى جنب ، كما كانت الجيوش التى فتحت قبرص تشتمل على المسلمين العرب والمسلمين القبط من أهل مصر . وكان المسلمون البربر والمسلمون القبط يقاومون كل محاولة للتفريق بينهم وبين

العرب فى المعاملة بل كانوا يهبون ثائرين إذا أحسوا بشىء من ذلك التفريق كما حدث فى أيام هشام بن عبدالملك. غير أن معاملة الأمويين للمسلمين من أبناء الشعوب الشرقية كانت تخالف هذه السماحة والرعاية ، فكانت سياستهم هناك قائمة على تفريق ظاهر بين معاملة المسلمين العرب والمسلمين غير العرب ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفى عنيفاً فى هذه التفرقة طوال مدة حكمه أى طوال مدة حكم الخليفة عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك .

وقد استطاع الحجاج أن يخمد الثورات التى هبت فى بلاد المشرق بالقسوة التى عرف بها فتسربت الثورة إلى الخفاء وبدأت الدعوة إليها تنتشر سرًّا وتجد قبولا سريعاً فى جماهير المسلمين من أبناء الشعوب غير العربية ، حتى بلغت مبلغاً أزعج ولاة الدولة فى أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك .

ولم تكن سياسة الأمويين مخالفة لمبادئ الإسلام فى معاملة المسلمين غير العرب وحدهم فإنهم كانوا كذلك يعتمدون على إثارة العصبية بين قبائل العرب وهى العصبية التى ينهى الإسلام عنها ، وكان قصدهم من ذلك أن يضربوا فريقاً من القبائل بالفريق الآخر حتى يسلس قياد الجميع لحكمهم ، فاجتمع كثير من هؤلاء وهؤلاء على بغض حكمهم ، وكثرت عداواتهم بين زعماء القبائل فى خراسان سواء من قبائل مضر أو من قبائل اليمن .

فمن أجل هذه الأسباب وغيرها زاد الحقد على الأمويين وكره الكثيرون حكمهم فنجحت الدعوة لآل بيت الرسول ممن ينتسبون إلى على بن أبى طالب أو إلى العباس بن عبد المطلب ، وقد استطاع دعاة بنى العباس فى أواسط القرن الثامن للميلاد أن يضرموا نيران ثورة عامة شعبية انتهت إلى استيلاء العباسيين على الحكم . وكانت جماهير جيوش الثائرين من المسلمين غير العرب من أهل خراسان . فانتهت دولة بنى أمية فى أواسط القرن الثامن الميلادى (٧٥٠ للميلاد) بعد أن بقيت تحكم الدولة العربية المترامية الأطراف نحو تسعين عاماً منها سبعون عاماً انفردت فيها الأسرة المروانية بالحكم .

ونحن إذ نتأمل ثورة العباسيين وانتزاعهم الخلافة من بنى مروان بنظرة واسعة شاملة لا نملك إلا أن نعدها خطوة فى سبيل تطور الحكم فى الدولة العربية وهى خطوة جعلت أساس الحكم أقرب إلى مبادئ المساواة بين المسلمين بغير نظر إلى أجناسهم الأصلية ، وكانت بغير شك من أقوى العوامل على زيادة وحدة الأمة وتضافرها جميعاً بأصولها المختلفة فى بناء الحضارة العربية بقوة مضاعفة . فاستيلاء العباسيين على الحكم كان انقلاباً سياسيًّا خطيراً فى الدولة وأدى إلى نتائج بعيدة المدى ، فحقق مبدأ المساواة بين الناس فى أنحاء الوطن العربى كله وقوى حركة الاندماج بين العرب والشعوب الأخرى بعد أن اعترتها نكسة شديدة فى بلاد الشرق منذ أيام الحجاج بن يوسف الثقفى . غير أن هذا الانقلاب العباسى كان له

نتائج أخرى خطيرة ؛ فإن الخلافة أخذت تستند إلى دعامة دينية بعد أن كانت عربية محضة ، واتخذ الخلفاء لأنفسهم صفة من القداسة على أنهم من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام وكان لهذا أثر كبير فى تجميد صورة الحكم فوقفت حركة تطويره إلى نظام شورى ديمقراطى وضعفت الحركات الثورية التى كان الدعاة إلى الحكم الجمهورى يقومون بها طوال مدة الحكم الأموى — وهم الذين يسميهم التاريخ بالخوارج — وذلك لأن ثوراتهم صارت توصم بالخروج على الإسلام وعلى الخليفة الذى أصبح يمثل بيت الرسول .

وبدأ الخليفة يجمع بين صفتى الحاكم الأعلى للدولة والزعيم الدينى لا كما كانت عليه الحال فى مدة الأمويين الذين لم يكن لهم من أنسابهم ما يجعلهم أهلاً للزعامة الدينية بين المسلمين . وقد بقيت للبيت العباسى صفة الزعامة الدينية أكثر من خمسة قرون مع ما أصاب نفوذه من الضعف فى شئون الحكم فى الدولة بعد نحو قرن واحد من بدء حكم الأسرة .

ومنذ ضعف شأن ثورات الخوارج الجمهوريين انحصرت معارضة الحكم فى أبناء عمومة العباسيين وهم العلويون الذين كانوا يرون أنهم أولى بالخلافة من العباسيين لأنهم أحق بأن يكونوا آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام لاتصال نسبهم بجدهم الرسول .

وتعددت ثوراتهم على العباسيين ولكنها أخمدت وقتل عدد كبير من زعمائهم فعادوا إلى خطتهم الأولى فى بث دعايتهم فى الخفاء ، وبعثوا دعاتهم إلى

الأطراف البعيدة من الدولة العربية ليمهدوا لاستيلائهم على الحكم .

وكان العباسيون فى ثورتهم شديدى الحنق على الأمويين وأظهروا أشد العنف فى معاملتهم وكانوا يسوغون ذلك العنف بأنهم يثأرون لمن قتلهم الأمويون من آل بيت الرسول ، فقتلوا كل من ظفروا به من بنى أمية ولم ينج منهم إلا من اختفى أو استطاع الهروب ، وكان من بين من تمكن من النجاة شاب جرىء وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام حفيد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك. وقد استطاع ذلك الشاب أن يفلت من رقابة العباسيين ومن ترصد عمالهم له فى كل مكان حتى وصل آخر الأمر إلى المغرب وعبر إلى الأندلس وتمكن من الدخول إليها وحيداً شريداً ، ثم استطاع أن يجمع حوله الأنصار وأن يؤسس دولة أموية جديدة فى الأندلس لتنافس الدولة العباسية فى قوتها ومجدها وحضارتها . وكان الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور لا يخفى إعجابه بذلك المغامر الجرىء ويسميه صقر قريش وكأنه كان يدرك مقدماً أنه سيقيم فى الأندلس ملكاً سيصير له فيما بعد شأن عظيم ، وأن الدولة التى بدأها هذا الصقر ستصبح منافسة لدولة العباسيين بعد حين .

الدور الثالث من حياة الأمة العربية

١ ــ انقسام الدولة

منذ ابتداء الدولة العباسية فى أواسط القرن الثامن للميلاد تقسم حكم الدولة العربية إلى قسمين أحدهما عباسى والآخر أندلسى . ولولم يكن هذان القسمان متعادبين لما أدى ذلك الانقسام إلى النتائج الخطيرة التى حدثت فيما بعد ، ولكن هذا الانقسام كان طليعة لتمزيق الدولة الإسلامية كما كان ابتداء مرحلة جديدة فى تاريخ الأمة العربية ، فمن هنا يبدأ الدور الثالث من حياتها .

سارت دولة الأندلس فى مبدأ الأمر على خطة سياسية معتدلة فلم تظهر عداوتها للدولة العباسية فى صورة واضحة ولم يتخذ عبد الرحمن الداخل لنفسه لقباً أكبر من لقب (الأمير) ، وإن كان قد قطع اسم الخليفة العباسى من الخطب بالمساجد .

غير أن الدولة العباسية كانت تشعر بالقلق الشديد من قيام تلك الدولة المنافسة ، ولولا انشغالها بتثبيت دعائم ملكها لما تركت الأمويين يفرغون إلى إنشاء دولتهم بالأندلس وإرساء قواعدها فيها . فلما اطمأن العباسيون فى ملكهم بالشرق وتم لهم توطيد عرشهم وبسط سلطانهم على الأقاليم التابعة لهم بدأوا يظهرون العداوة لمنافسيهم فأخذ هرون الرشيد يقوى

علاقته بالإمبراطور شرلمان وهو عاهل أوربا الأكبر الذى كان يطمع فى الاستيلاء على الأندلس والقضاء على حكم العرب فيها، وكان فى الوقت عينه يخطب ود الخليفة العباسى ليكون مساعداً له على إمبراطور دولة الروم الشرقية. فمنذ أوائل القرن التاسع للميلاد بدأت المنافسة بين الدولتين العربيتين تظهر بمظهر العداوة السافرة بعد أن كانت بذورها كامنة فيهما منذ البداية، وأخذت تتزايد على مر الزمن خلال القرن التاسع حتى انتهت إلى غايتها فى أوائل القرن العاشر للميلاد عندما اتخذ عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب (الخليفة)، فوقفت الدولتان وجهاً لوجه وقوف ندين متساويين متعاديين.

وقد تتابع استقلال أفريقيا الشمالية عن الدولة العباسية منذ أواخر القرن الثامن للميلاد، إذ استقل الأغالبة بالإقليم الأوسط من شمال أفريقيا وهو المعروف الآن بتونس وكونوا دولة صارت ذات قوة بحرية مكنتها من عبور البحر الأبيض والاستيلاء على صقلية وجنوب إيطاليا، وتبعهم الأدارسة فاستقلوا بالمغرب الأقصى فى أواخر القرن نفسه وأنشأ الأمير إدريس الثانى مدينة فاس التى صارت فيما بعد مركزاً من أكبر مراكز الحضارة الإسلامية العربية، واستقل ابن طولون بمصر فى أواسط القرن التاسع ومنذ ذلك الوقت تتابعت عليها الدول المستقلة فجاءت بعدها الدولة الإخشيدية ثم الدولة الفاطمية، وهى تخالف فى اتجاهها كلا من الدولتين العباسية والأموية بالأندلس وتنافسهما إذ كانت دولة شيعية علوية. وقد اتخذ الفاطميون القاهرة عاصمة لدولتهم وأعلنوا أنفسهم

خلفاء مستقلين ؛ فأصبح فى الوطن العربى ثلاثة خلفاء فى وقت واحد : العباسى فى بغداد والأموى بالأندلس والفاطمى فى القاهرة .

غير أن هذا الانقسام على رغم ما كان يؤدى إليه من المنافسات بين الدول الثلاث لم يكن له أثر فى مواجهة أعداء الأمة العربية إلى أواسط القرن العاشر إذ كانت كل من الدول الثلاث قادرة على صد أعدائها بنفسها ، بل كانت كل منها قادرة على تدعيم سلطانها فيما يليها من البلاد . وكان أشد مظاهر المنافسة بينها ما وقع بين الفاطميين والعباسيين لقرب حدود إحداهما من حدود الأخرى .

أما الأمة العربية نفسها فإنها لم تتأثر بذلك الانقسام الذى أدى إليه تنافس هذه الدول وخلفائها ، بل استمر أبناؤها يعيشون فى أوطانهم الصغرى جنباً إلى جنب كما كانوا يعيشون فى وطنهم الشامل تجمعهم ثقافة واحدة ومثل عليا واحدة ، ويشتركون جميعاً فى نشاط واحد لبناء حضارتهم المشتركة . فكان الفرد يتنقل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق وهو يشعر بأنه يتنقل فى وطنه مهما كان التباعد بين وطنه الأصلى وبين البلد الذى نزح إليه ، ومهما كان الخلاف بين حكام إقليمه وحكام الأقاليم الأخرى التى يمر بها أو يحل فيها .

كان العلماء والأدباء والتجار والحجاج يجوبون البلاد جميعاً لا يعرفون عصبية لوطن معين داخل وطنهم العربى العام الشامل .

وكان من آثار هذا الشعور العميق بوحدة الأمة أن أبناءها جميعاً

تعاونوا فى تطوير حضارتهم كما تعاونوا فى خدمة لغتهم وثقافتهم وفى بحث أصول دينهم التى تشمل أمور الدنيا كما تشمل شئون العبادات والعلاقات بين الناس . فكان لجهودهم المجتمعة أعظم الفضل فى بيان أحكام الشريعة وتحديد المعالم الجوهرية للصورة التى ينبغى أن يكون عليها الحكم الإسلامى ، وخلفوا من هذه الجهود المجتمعة ميراثاً ضخماً من البحوث العميقة والنظريات البديعة فى أصول الحكم وهى فى مجموعها تكون دستوراً من أرقى الدساتير التى تكفل العدالة والسعادة للمجتمع والأفراد، إذا تمكنوا من وجود الطرق العملية لتطبيقها عمليًّا . وقد ادخرت الأجيال المتعاقبة هذا الميراث الضخم ليكون ذخيرة نفيسة للأمة العربية متى تهيأت لها الظروف التى تمكنها من الانتفاع بها .

على أن هذا التراث النظرى الضخم وإن لم يتح له فى الماضى أن يطبق عمليًّا فى نظام حكم واقعى فإنه بقى للأمة العربية على توالى العصور بمثابة وثيقة ضخمة مقدسة لا يجرؤ أحد على تجاهلها أو إنكارها ، ولهذا كان له فضل كبير فى حماية كرامة أفراد الأمة العربية والمحافظة على حرياتهم الشخصية من اعتداء الطغاة حتى فى أشد العصور ظلاماً .

وكان تكوين هذا التراث العظيم أحد مظاهر البناء الحضارى الشامل الذى انصرفت إليه الأمة العربية منذ تكوينها واندماج عناصرها ، كما سيأتى ذكره فيما بعد .

فعلى رغم الانقسام السياسى الذى مزق الدولة العربية إلى دول ثلاث

كبرى بقيت وحدة الأمة كاملة تجاهد معاً فى إنشاء حضارة واحدة لا نستطيع أن نفرق فيها بين قطر وآخر إذ كان الفضل فى تنمية هذه الحضارة يرجع إلى نوابغ العلماء والمفكرين أفراداً بغير نظر إلى البلاد التى كانوا يعيشون فيها ، فقد كان مؤلف الكتاب يكتبه فى مدينة من المدن فيقبل عليه طلاب العلم فى المدن الأخرى ، وكان النابغة فى فن من الفنون فى أحد الأقاليم يتلقى الدعوة لإفادة مواطنيه فى أقاليم أخرى ، وهو يشعر بأنه يهب فنه للجميع . وكان الأساتذة يتنقلون بين البلاد العربية ويلقون دروسهم حيث يذهبون فى حلقات الدرس بالمساجد أو بالمدارس ، فنشأت عن ذلك حركة قوية فى تبادل الأساتذة بين الأقطار العربية تنبعث عفواً من العلماء والدارسين من أهل البلاد بغير تدخل من الدول أو حكامها .

وكان إنشاء الجامعات عاملا قويًّا على تخليص العلوم والفنون والثقافة العامة من تأثير الخلاف السياسى بين الدول .

فكانت قرطبة أسبق المدن إلى إنشاء جامعتها فى زمن الأمير عبد الرحمن الثانى (فى أواسط القرن التاسع) وبعدها أنشئت جامعتا الأزهر وفاس فى أواسط القرن العاشر ثم أنشئت المدرسة النظامية فى بغداد فيما بعد فى أوائل القرن الحادى عشر .

٢ ـ انعزال الأمة العربية عن الحكم والدفاع

فى أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر طرأ على نظام الحكم فى أنحاء الوطن العربى تغير أشد خطورة من الانقسام الذى مزقها منذ أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن العاشر ، فإن الدول الثلاث الكبرى التى انقسمت إليها الدولة العربية الكبرى بدأت تقاسى عواقب أنانية الأسرات الحاكمة التى سيطرت عليها . كانت هذه الأسرات الحاكمة تشعر شعوراً قوياً بأن الشعب العربى الذى تحكمه ينكر عليها منافساتها وضيق آفاق تفكيرها وكانت ترى فى اتجاه تفكير الفقهاء والعلماء ما يعارض اتجاه سياساتها ونظم الحكم التى سارت عليها . وابتدأت الشقة تتسع بين جماهير الشعوب العربية وبين حكامها واتجه هؤلاء فى المحافظة على سلطانهم إلى استخدام الجنود الأجانب المرتزقة ليكونوا لهم حراساً يحمونهم فى قصورهم ويقاتلون فى معاركهم . وزاد نفوذ هؤلاء الأجانب حتى صار الخلفاء الثلاثة يعتمدون عليهم فى حماية أنفسهم وفى تكوين جيوشهم وفى حكم الأقاليم الداخلة فى دولهم . وفى عصر واحد فى بداية القرن الحادى عشر أصبح الجنود المرتزقة وقادتهم يسيطرون على الحكم فى الدول الثلاث الكبرى وصارت جماهير الشعب العربى فيها رعايا لا تملك من أمور الحكم شيئاً ، فعكفت على شئونها الخاصة وأقبلت على أعمالها

فى ميادين الحياة المختلفة لا تكاد تبدى اهتماماً بشئون السياسة إلا بمقدار ما يمسها من تصرف حكامها الذين أصبحوا منعزلين عنها .

ولسنا نقصد بهذا أن نظام الحكم فى الدول العربية الثلاث قد اختل وفسدوشاعت فيه المظالم منذاستخدم الخلفاء الجنود المرتزقة ووكلوا إلى قادتهم سلطان الحكم فى البلاد ، فإن الحق يقتضى أن نقول إن هؤلاء الجنود وقوادهم أدوا فى أول أمرهم خدمات جليلة للأسرات الحاكمة وللدول التى سيطروا عليها ، فقد كانوا يمتازون بالشجاعة ويختارون من أقوى الشبان من أبناء الشعوب المجاورة التىكانت فى دور البداوة ، فيضمون إلى الأسرة الحاكمة ويعاملون كأنهم من أبنائها فكانت تتوافر فيهم قوة الأبدان ومشاعر الولاء لسادتهم الخلفاء . وكانوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللسان العربى ويظهرون حماسة عظيمة للدين الذى آمنوا به وللأمة التى تكلموا بلسانها ، ويندمجون فى الجو الاجتماعى العربى بعاداته وتقاليده .

وكان لكثير من أمرائهم فضل عظيم فى المحافظة على الحضارة العربية وتشجيع نشاط العلماء والأدباء والمفكرين من أبناء الأمة كما كان لهم فضل كبير فى تشجيع الفنون ودفع حركة التعمير والإنشاء .

وكان فى الرعيل الأول ممن استولوا على الحكم من أمراء الجند فى الدول العربية طائفة من عظماء الرجال الذين رفعوا ألوية تلك الدول وعززوها فى مصادماتها مع أعدائها ، مثل طغرل بك السلجوقى الذى سيطر على الخلافة فى بغداد وابنه ألب أرسلان وحفيده ملك شاه ،ومثل جوهر الصقلى

قائد المعز لدين الله الفاطمى. غير أن استيلاء الجنود المرتزقة وأمرائهم على الحكم أدى على مر الزمن إلى نتيجة وبيلة على الأمة العربية وإن كان له ذلك الأثر الذى وصفناه فى تعزيز قوة الدول نفسها . فلم تلبث كتلة جيوش هذه الدول أن صارت من الجنود المرتزقة التى تجلب من الخارج ، وصار الأمراء يكثرون من شراء الشبان من أبناء الشعوب المجاورة ويعلمونهم ويدربونهم على فنون القتال فإذا ما كبروا وحذقوا تلك الفنون رقاهم سادتهم إلى مراتب القادة فيأخذون بدورهم فى شراء المماليك حتى أصبح الاستكثار من شرائهم سنة متبعة من الجميع . ووجد أبناء الأمة العربية أنفسهم يعزلون عن الدفاع عن بلادهم شيئاً بعد شىء كما وجدوا أنفسهم من قبل يتباعدون عن شئون الحكم فى بلادهم .

فكان هذا الاتجاه مظهراً عاما للدور الثالث من حياة الأمة العربية وهو الدور الذى يتوقف فيه التجديد والترقى ويكون فيه نشاط الأمة استمراراً أفقياً لنشاط الدور الثانى من حياتها . وكل ما استطاع الحكام أن يهبوه للأمة فى هذا الدور لا يزيد على أنهم وفروا لها الأمن فى داخلها بسيطرتهم على الحكم فى البلاد كما وفروا لها الأمن من خارجها بالدفاع عن حدودها وصد الأعداء عنها .

ولكن انعزال الأمة عن شئون الحكم وتباعدها عن صفوف الجيش الذى يدافع عن حدودها ينتهى بها دائماً إلى الشعور بأن شئون الحكم والدفاع ليست من شأنها .

والذى يظهر لنا من ثنايا حوادث تاريخ الأمة العربية منذ أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر أن هذه الأمة شعرت مثل هذا الشعور فتباعدت الشقة بينها وبين حكامها وصارت الجماهير تنظر إلى هؤلاء الحكام على أنهم سادة مسيطرون لا كما كانت نظرتها إلى حكامها الأولين الذين كانوا زعماء لها يسيرون فى طليعتها وهم من بين صفوفها . وأما الحكام أنفسهم فقد كانوا أشد شعوراً بالانفصال عن الأمة التى يسيطرون عليها ، فكانوا مع استعرابهم واندماجهم فى الجو الاجتماعى ينظرون إلى جماهير الأمة نظرة استعلاء تزايدت على مر السنين ترفعاً ، حتى صاروا بعد حين يعتزون بعرقهم الأجنبى ويعملون على التميز بأنفسهم فوق مستوى العامة كى يحتفظوا بهيبتهم فى الحكم . بهذا ضعفت رابطة الثقة التى كانت بين الأمة والحكام الذين أصبحوا فيها سادة لا مواطنين قادة . ولم يكن من الطبيعى فى مثل هذه الحال أن تبقى صبغة الدولة كما كانت فى أول الأمر دولة عربية لأمة عربية ، ولم يكن كذلك من الطبيعى أن تتخذ الدولة الجديدة صبغة أجنبية محضة فتكون دولة تركية أو صقلبية مسيطرة على أمة عربية ، لأن الخلفاء الشرعيين فى الدول الثلاث الأندلسية والعباسية والفاطمية كانوا عرباً ينتمون إلى أشرف الأصول العربية ، فالعباسيون من بنى عبد المطلب بن هاشم جد النبى ، والفاطميون من نسل على حفدة النبى ، والأمويون من نسل عبد شمس القرشى . فكان الحل الذى وصل إليه الحكام المسلمون الأجانب للمحافظة

على مظاهر اتصالهم بالأمة أن يصبغوا الدولة بالصبغة الدينية الإسلامية وهى الصلة المحققة بينهم وبين الرعية . فمن ذلك الوقت غلب على الدولة اسم الدولة الإسلامية وتضاءل اسم الأمة العربية والدولة العربية إلى جانب هذه التسمية.

وعمد الحكام المسلمون الأجانب إلى سياسة تقريب علماء الدين . إليهم كى يتوصلوا عن طريقهم إلى إحراز ثقة الأمة فيهم ، فهم حملة الشريعة وهم العارفون بأصول الدستور الإسلامى فإن كانوا يرضون عن أولئك الحكام كان رضاؤهم وسيلة إلى رضاء الأمة .

ولسنا نستطيع إلا أن نعترف بما كان لعلماء الدين من فضل كبير على أمتهم فى هذا الدور من حياتها فإنهم قاموا بالوساطة بين الحكام والرعية قياماً محموداً ولم يحملهم تقريب الحكام لهم على التنكر لأبناء أمتهم بل كانوا فى مواقف كثيرة يتصدون لكبار القواد والأمراء بأعنف المقاومة إذا بدر منهم انحراف عن جادة العدالة أو إذا بدا منهم ميل إلى العسف والطغيان أو مخالفة أحكام الشريعة التى هم حفظتها . ونحن إذ نقول الشريعة إنما نقصد المعنى الأوسع لها وهو الذى يشمل الحقوق العامة وواجبات الحاكم نحو الرعية والحرمات التى لابد من توافرها فى كل حكم إسلامى .

ولما انقضى القرن الحادى عشر كان الرعيل الأول من قواد الجنود المسيطرين على الحكم قد انقرض وجاء بعدهم جيل آخر ورثوا سلطان الحكم من بعدهم ولكنهم لم يرثوا شهامتهم وحكمتهم وولاءهم للدولة التى

رفعت شأنهم وجعلتهم أصحاب السلطان فى بلادها . فتنازعوا فيما بينهم على اقتسام الأقاليم ليحكم كل منهم قطعة منها فأصبحت كل من الدول العربية الثلاث معرضة للإضطراب الشديد من تنازعهم فيما بينهم .

فمنذ القرن الحادى عشر تقسمت الأندلس إلى إمارات صغيرة متنافسة تحكم كلا منها أسرة تسرى فى عروقها فى أكثر الأحوال دماء غير عربية ، وفى مصر آل الحكم إلى طائفة من الوزراء الأنانيين الذين أفسدوا البلاد بمنافساتهم ومصادماتهم القصيرة النظر طوال القرن الأخير من حكم الدولة الفاطمية ، وأما فى الدولة العباسية فقد فسد نظام الحكم بعد انقراض جيل الأمراء السلاجقة الكبار أمثال طغرلبك وألب أرسلان وملك شاه وآل الأمر بعدهم إلى أيدى طائفة من الأمراء المتنافسين الذين قسموا الدولة الكبرى إلى دويلات صغرى كل منها تكيد للأخرى وكل منها تستنزف عرق أبناء الأمة حتى صار حكمهم عبئاً ثقيلا بغير أن يؤدوا ما كان يجب عليهم أداؤه من توفير الأمن فى الداخل وحماية البلاد من أعدائها فى الخارج .

وبدأ الأعداء يزحفون على البلاد العربية من كل جانب ولم تجد الأمة فى حكامها من يرجى منه إصلاح أحوالها أو القدرة على الدفاع عنها .

٣ ــ الأمة العربية أمام العواصف
الحملات الصليبية وهجوم التتار

فى ذلك الوقت المضطرب المليء بالمنازعات والمصادمات الضيقة الأفق بين الأمراء المتنافسين على تحقيق غاياتهم الضئيلة ، هبت فى أوربا عاصفة هوجاء لإعادة الكرة على الأمة العربية ومحاولة انتزاع أوطانها منها . وقد امتدت دائرة هذه العاصفة المدمرة من أقصى شرق أوربا فيما يلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية إلى أقصى غرب أوربا مما يلى بلاد الفرنج والأسبان .

فبدأت إمارات الأندلس فى أواخر القرن الحادى عشر تشعر بضغط شديد مما يليها من شعوب أسبانيا الذين كانوا يتحصنون فى الأقاليم الجبلية فى شمال شبه جزيرة إيبيريا وغربها . وفى الوقت عينه بدأت دعوة صارخة من قِبَل دولة الروم الشرقية تحرض على غزو بلاد الدولة العباسية التى كانت مقسمة بين صغار الأمراء السلاجقة .

وكان إمبراطور الدولة الرومانية قد شعر بما أصاب الدولة العباسية من اختلال واضطراب فى حكمها وأحس بما تتعرض له الأمة العربية من الشدائد على أيدى حكامها ، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة لمحاولة استرجاع سيطرة دولته على تلك البلاد ، وخيل إليه أن الرعايا الذين يعسف بهم

حكامهم ويثقلون كواهلهم بالأعباء الثقيلة سيكونون منافذ سهلة يصل منها إلى استعادة سلطان دولة الروم واسترجاع سيطرتها الاستعمارية عليهم . وزاده جرأة على محاولته تلك أنه كان يعلم بمقدار ما هبط إليه مستوى حكام الأمة العربية في شخصيتهم وشجاعتهم وآفاق تفكيرهم . وأخذ يبث الدعاة في شعوب أوربا ليحرضهم على حرب العرب ويوهم أمراء هذه الشعوب أن المسلمين ليسوا سوى طائفة حاكمة مسيطرة على الشعوب الأصلية في البلاد وأن الواجب يحتم على أتباع الدين المسيحى أن يستنقذوا منهم إخوانهم في الدين الذين يقاسون الذل والعذاب تحت وطأة حكمهم الشديد . وقد توسل إمبراطور الروم إلى استثارة الحماسة في شعوب أوربا بتوكيد الصفة الدينية لدعوته واتخذ لها شعاراً خلاباً وهو استنقاذ بيت المقدس مولد السيد المسيح وموطنه من أيدى المسلمين .

وعاون الإمبراطور على نشر هذه الدعاية طائفة من رجال الدين المتحمسين ، بعضهم يندفع بدافع عصبيته للدين وبعضهم يعمل لخدمة سيده الإمبراطور . ولقيت الدعوة بعد حين نجاحاً كبيراً بعد تردد طويل من قبل الأمراء ، فإذا شعوب أوربا تفور وتغلى بالحماسة وتتردد فيها أصداء دعوة صارخة تهيب بالعامة أن يزحفوا جميعاً إلى حرب المسلمين . وكان الإمبراطور وأتباعه ورجال الدين المتحمسون في صدر الصفوف يذيعون في دعاياتهم أكاذيب كثيرة يقصدون بها إيقاد العداوة في صدور الناس كى ينفروا جميعاً إلى الحرب المقدسة . كانوا يصورون لهم

المسلمين صوراً لا نتعرض نحن لتكذيبها بل نترك ذلك للمؤرخ الإنجليزى جيبون إذ يقول :

« لم تكن هذه التهم –التى وجهها دعاة الحرب– سوى نتيجة الجهل والتعصب ، وهى صور ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب وتسامحهم مع المسيحيين فى الحياة العامة وفى الشرائع والقوانين » .

ولم تخل هذه الدعاية الكاذبة من إحداث أثرها فى كل مكان حتى وصلت إلى العرب المسيحيين أنفسهم فطرأ على علاقة الأفراد فى داخل الأمة العربية نوع من التوتر وسوء الظن ، كان له أثر يؤسف له فى علاقة المواطنين ، وإن كان لم يلبث أن اضمحل بعد أن انقضت فورة الدعاية الخبيثة . ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الدعاية الخبيثة إلى تحقيق ما قصد إليه إمبراطور دولة الروم الشرقية ، وحشدت دول أوربا جيوشها من كل صوب لغزو المسلمين وبدأت الحروب التى نعرفها باسم الحروب الصليبية وما هى من الدين فى شىء سوى أنها خدعة خدع بها الجهلة من الشعوب والأمراء لخدمة أغراض السياسة التى رسمها إمبراطور الروم .

ولسنا نقصد هنا أن نصف هذه الحروب ولا أن نتتبع سيرتها على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وحسبنا أن نقول هنا إنها استمرت تتوالى على الوطن العربى فى موجات تنحدر كل منها عنيفة مدمرة ، تحطم ولا تكاد تنحسر حتى تعقبها موجة أخرى أشد منها عنفا وتدميرا .

وجمعت هذه الأمواج خلاصة ما فى الشعوب المسيحية من الفرسان

والشجعان يتقدمهم رجال الدين المتحمسون ليوقدوا فيهم كراهة المسلمين . و إنه لمما يؤسف له أن هذه العاصفة الهوجاء و إن خبت بعد مضى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لم تخل من ترك آثرها فى نفوس عامة الشعوب فى أوربا ولعل آثارها ما تزال باقية إلى اليوم فى بعض الشعوب ، وكانت على مر السنين تظهر فى مظاهر الاعتداء الذى تقوم به دول أوربا بين حين وآخر على أنحاء الوطن العربى .

بدأت أمواج الحروب الصليبية بحملة كبرى كانت أشد الحملات حماسة وأكثرها فوضى . كان الفرسان والشجعان ورجال الدين يسيرون فى الطليعة وتسير من ورائهم أعداد هائلة من الجماهير المتحمسة الهوجاء . فقيل إن عدد الفرسان فى الحملة الصليبية الأولى بلغ مائة ألف من ورائهم جموع من المحاربين نحو خمسمائة ألف . ويصفهم المؤرخ الإنجليزى جيبون بقوله :

« إنهم كانوا يجمعون بين الحماسة الدينية وبين تحالل همجى يخلو من كل قيد وينطوى على النهب والفجور وإدمان شرب الخمر » وكان يسير على رأس الجميع أكثر من ثلاثة آلاف من كبار الأمراء ومن الملوك وعلية القوم فى شتى شعوب أوربا .

وكانت الفرصة مواتية لهذه الجيوش الجرارة لأن الدولة العربية كانت فى ذلك الوقت فى حضيض التفرق والضعف ، بعد أن انساق أمراؤها مع سخف مطامعهم وبعد أن ساء ظن الأمة بهم وبعدت المسافة الفاصلة بينها وبينهم . غير أن هذه الحملة الأولى فشلت فشلا ذريعا ولاقت مصاعب

لاحصر لها فى شق طريقها فى وسط أوربا حتى بلغت قسطنطينية ، ثم عبرت إلى آسيا الصغرى فلقيت هناك القضاء المقدور لها فتحطمت فى أول لقاء . وكان لهذه الكارثة أثرها فى مضاعفة حماسة أكابر الأمراء والفرسان للذهاب إلى حرب المسلمين ، فكانت الحملة الثانية أكبر عدداً وأمهر قيادة وأوفر عدة ، ولو أن هذه الحملة تقدمت فوقعت فى القرن العاشر لما كان لها أثر يذكر فى حياة الأمة العربية ، إذ كان يسيطر على الحكم فيها كبار السلاجقة الذين أسلفنا ذكرهم ، ولكنها إذ وقعت فى أواخر القرن الحادى عشر ، كان لها أثرها العظيم — لا فى تحطيم هذه الأمة بل فى هزيمة حكامها . وكانت الحملة الصليبية الثانية امتحاناً شديداً لحيوية الأمة العربية ، لأنها كانت تجمع زهرة فرسان أوربا من كل إقليم ومن كل شعب ، واشترك فيها أكابر الأمراء المعروفين بالبسالة والمهارة فى خوض الحروب ، فلنمر الآن مرًّا سريعاً بما وقع فى تلك الحملة من وقعات دامية وما حدث فيها من مآس قاسية وحسبنا أن نقول إن الأمة العربية وجدت نفسها فى موقف مفاجئ أشعرها بحقيقة ما آل إليه أمرها ، وحملها على التفكير فى حاضرها وفى مستقبلها . عادت الأمة العربية عند ذلك تسأل نفسها « من نحن ؟ ومن هؤلاء الحكام الذين انتهى حكمهم بنا إلى هذه الكوارث التى تهدد حياتنا ؟ »

كانت الجموع الهائلة المتحللة من كل قيد إنسانى تنصب على بلادهم وتفتك بهم وتوقع بهم أشنع صنوف الإذلال وإهدار الكرامة والاعتداء على

الأنفس والأعراض والأموال . ووجد الناس أن حكامهم لا يغنون عنهم شيئا فى مواقع الحرب مع أنهم كانوا يجمعون الأموال من عرق جباههم ويعيشون عيشة بذخ وترف فى مجد أجوف ويشن بعضهم على بعض حروبا شنيعة سخيفة فى سبيل منافساتهم الضئيلة . وأصيبت الأمة فى بدء الأمر بما يشبه الذهول من هول المفاجأة ، وخيل إليها أن حياتها معلقة على خيط دقيق من خيوط القضاء . كانت قد اعتزلت الحروب وباعدت الحكم والحكام وها هى ذى ترى أن حكامها ينهارون ويلتمسون النجاة لأنفسهم بما استطاعوا جمعه من الكنوز المكتنزة . وترددت جماهير الأمة بين الفزع مما حل بها وبين الحنق على حكامها وعلى مصيرها . ولكنها لم تتردد طويلا.

فلم تلبث غضبتها لحريتها وأنفتها من أجل أعراضها ومن أجل شرفها ومن أجل عقيدتها وحضارتها أن هبت بها لتدافع عن نفسها . وقفت كل قرية تدافع عن حرمها أمام جموع من الفرسان يقودون جموعا من المحاربين الهمج ووقف كل فرد يدافع عن بيته وأهله كى يخر صريعاً أمام أعداد صاخبة حانقة ، وسفكت دماء كثيرة وارتكبت جموع الصليبيين آثاماً فظيعة لا نرى محلاً لوصفها ولا ضرورة لإعادة صورتها . غير أن الأمة العربية استيقظت على آلام الجراح التى أصابتها ، وبدأت تسترجع جأشها وتسترد وعيها الذى أذهلته الصدمة المفاجئة . فلما بلغت جموع المهاجمين بيت المقدس كانت الصدمة المفاجئة قد فقدت شدتها وزال عن الأمة عارض الذهول الذى اعتراها فوقف أهل المدينة يدافعون عن أنفسهم دفاع

المستميت الذى لم يسبق له عهد بالحروب منذ حين . ولكن الجموع الضخمة تغلبت على المقاومة الباسلة وانطلقت موجة الفتك فى المدينة لمدة ثلاثة أيام ، فلنغمض أعيننا عما حدث إذ كانت فظاعته مما تبشع به الأبصار وتفظع له الأسماع . ولكن هذه الصدمة كانت أول الانتفاض فهبت الأمة العربية للدفاع عن نفسها لأنها أيقنت أن المنتهى لا يكون إلا إليها ، وأن الدفاع عن حياتها وأعراضها وحرياتها منوط آخر الأمر بها نفسها . فانبرت الجماهير ثائرة إلى الحرب مثل أمواج زاخرة لتصد الأمواج الزاخرة التى هاجمتها . وانقضى القرن الثانى عشر فى محاولات الأمة العربية لطرد أعدائها عن بلادها ، وكان يتزعم حركتها سلسلة من كبار القادة الذين بدأت الحوادث تكشف للأمة عن بطولتهم وتظهر لها جدارتهم بثقتها والاطمئنان إلى قيادتهم لها .

فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ظهر البطل عماد الدين زنكى الشهير وفى منتصف القرن نفسه تصدى للقيادة ابنه الكبير نور الدين محمود وفى أواخر القرن نفسه ظهر البطل العظيم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى أعاد الوحدة بين أقاليم سوريا واليمن ومصر والجزيرة العراقية ووجه قوته الموحدة إلى الجهاد ضد الأعداء — وكان نصره حاسما فى وقعة حطين .

وعلى توالى المصادمة بين الأمة العربية والأمواج الصاخبة التى توالت لتعزيز الصليبيين من كل أقطار أوربا بدأت قوة العدو تتضاءل وأخذت العاصفة التى أثارتها تخبو ويضمحل عنفها شيئاً بعد شىء وانجلت

الحوادث الدامية آخر الأمر عن اقتلاع الدول التى بناها الصليبيون على الرمال ، وعاد الهدوء يخيم مرة أخرى على الوطن العربى الذى خرج من المحنة منتصراً فى الحرب محافظا على كرامته وإنسانيته ومبادئه السامية ، ولم تحمل قسوة القتال أمة العرب على تغيير منهجها المأثور فى تقاليدها من التزام الحدود الإنسانية حتى عند احتدام العداء واشتداد المصادمات الدموية .

ولسنا فى حاجة إلى إعادة تسجيل ما كان للعرب وقادتهم العظام من مواقف نبيلة عند انتصارهم فى حرب الأعداء ، وهى المواقف التى تناقض ما أظهره الصليبيون من القسوة والوحشية والإسفاف فى الأخلاق ، وحسبنا أن نقتبس كلمة قصيرة مما قاله المؤرخ جيبون فى عظمة صلاح الدين . فبعد أن وصف ذلك المؤرخ ما أظهره صلاح الدين من الكرم والنبل والسماحة فى معاملة الصليبيين عقب انتصاره عليهم واستعادة بيت المقدس منهم قال :

« فى هذه الأعمال الصادرة عن الرحمة والسماحة تتبين فضائل صلاح الدين الذى يستحق إعجابنا وحبنا . ولقد كان أقوى من أن تضطره الظروف إلى التظاهر بغير حقيقته ، بل إن حماسته الدينية الشديدة كانت جديرة بأن تدفعه إلى التظاهر بغير تلك الرحمة التى بدت منه حيال أعدائه وأعداء دينه » .

وقد استمرت محاولات الصليبيين لإعادة الكرة على الأمة العربية مدة قرن آخر أو تزيد ، غير أن الهزائم التى أصابت الأعداء فى أثناء القرن الثانى عشر كانت حاسمة فى مصيرهم ، وكان طردهم الأخير من الوطن العربى ويأسهم من معاودة الكره عليه أمراً محتوماً وإن تطاولت به مدة الزمن .

وفى الوقت الذى كانت موجات الحروب الصليبية تتوالى على الشرق

العربى منذ أواخر القرن الحادى عشر كانت موجات أخرى تتوالى على المغرب العربى فى بلاد الأندلس . وكان ملوك الطوائف الذين قسموا البلاد بينهم أضعف من أن يواجهوا هذه الموجات الشديدة بأنفسهم أفراداً ، ولم يستطيعوا أن يوحدوا صفهم تجاه الأعداء ، إذ كانت المنافسة التى بينهم أشد من أن يزيلها الخطر المشترك عليهم جميعا . غير أن جيرانهم فى شمال أفريقيا هبوا لمساعدتهم وكان لدولة المرابطين المغربية الفضل فى صد هؤلاء الأعداء عن الأندلس نحو ستين عاما ثم جاءت بعدهم دولة الموحدين المغربية أيضا لمواجهة هؤلاء الأعداء واستطاعت أن تصدهم عن الأندلس نحو ستين عاماً أخرى .

ولكن الموجات توالت على الأندلس من الشمال ولم يستطع أمراؤها أن يحتفظوا بوحدة كلمتهم طويلا فعاد الشقاق بينهم وأدى إلى هزيمتهم فى موقعة بعد موقعة حتى حصرت دولة العرب فى القرن الثالث عشر فى رقعة صغيرة وهى مملكة غرناطة التى حكمتها أسرة بنى نصر لمدة مائتين وخمسين عاماً أخرى.

فإذا كانت الأمة العربية قد خرجت من نضالها فى الشرق منتصرة وهى أقوى عودا ، فإنها فقدت أحد أطرافها فى المغرب عندما تمكن الملكان الأسبانيان فردناند وإيزابلا جمع قوتيهما والقضاء على ملك غرناطة وهو البقية الباقية من دولة العرب فى الأندلس — وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد .

ولم تكد الأمة العربية تخرج من محنتها فى الشرق بذلك النصر الباهر حتى فاجأتها صدمة من موجة عنيفة أخرى انحدرت إليها من أواسط آسيا

وهى غارة التتار التى زادت فى قسوتها وفتكها وتدميرها على حملات الصليبيين . فخرب التتار وطن العرب فى أقصى الشرق تدميراً يكاد يكون تامًّا وخربوا المدن الكبرى التى كانت لعدة قرون مراكز مزدهرة للحضارة العربية ، وأقبلوا على بغداد فخربوها وجعلوا آثار حضارتها العظمى أثراً بعد عين ، ثم انحدروا إلى قلب الأمة العربية فى الشام يريدون القضاء عليها . فكانت محنة هذه الأمة أشد مما أصابها من قبل لأنها كانت تهددها بنكسة أشد عليها من إصابة الجراح السابقة . ولكن الأمة التى خرجت ظافرة من الحروب الصليبية استطاعت أن تصد تلك الموجة المدمرة . وكان انتصارها فى (عين جالوت) متمماً لانتصاراتها السابقة فى حرب الصليبيين . وارتدت الموجة العنيفة حسيرة نحو الشرق فاضمحلت وهدأ عنفها . على أنها خلفت آثار تدميرها فى الأطراف الشرقية القصوى من الوطن العربى ، كى يقيم عليها التتار دولة إسلامية جديدة بعد دخولهم فى الإسلام .

فإذا كانت القرون الثلاثة من أول القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر قد شهدت جهاد الأمة العربية ضد الأمواج الضخمة التى انحدرت إليها من أعدائها ، وشهدت خروجها من ذلك الجهاد وهى سليمة البنية ، فقد شهدت كذلك اقتطاع طرفين من أطرافها ، ففى الغرب فقدت الأندلس فقداً كاملاً ، وأما فى الشرق فقد تحول جانب من الوطن العربى إلى عدة أوطان إسلامية تمثلها اليوم شعوب عزيزة على الأمة العربية وهى شعوب الباكستان والأفغانستان وإيران وهى شعوب إسلامية شقيقة تربطها بالأمة العربية روابط التاريخ والثقافة والمشاعر ووحدة الآمال .

بناء الحضارة العربية
شخصيتها ورسالتها

منذ اتسعت حدود الدولة العربية واشتملت على الشعوب التى حررتها من الحكم الفارسى الرومانى ثم امتدت إلى ما وراء ذلك فاشتملت على كثير من شعوب آسيا وأوربا ، سارعت هذه الشعوب إلى الاندماج بالعرب كما سبق ذكره ، وسارع العرب إلى الاندماج بهم وبدأت بينهم حركة بناء حضارى اشتركت فيها عناصر الأمة العربية الجديدة جميعا . وكانت الدولة العربية تظلهم برعايتها وتستفيد من نشاطهم بغير نظر إلى أنسابهم أو إلى أصول أجناسهم . فكان العلماء والباحثون على اختلاف ميادين بحثهم النظرى وكان الفنانون والأدباء على اختلاف ميادين فنونهم يشتركون معاً فى الخلق والإنشاء والابتكار بغير أن يكون لاختلافهم فى الأصل أو الدين أثر فى معاملة الدولة لهم ولا فى ولائهم للمجتمع العربى الذى صاروا جميعاً يتشاركون فيه . وقد كان هذا النشاط فى أول الأمر محدوداً لتوزيع جهود كثير من المفكرين بين البحث النظرى وبين المشاركة فى الحركات الثورية العملية ، فلما هدأت هذه الحركات الثورية زاد النشاط فى البناء الحضارى زيادة كبرى .

والأمم عندما تبدأ فى التحرك تشبه الإنسان الفرد إذا كان غائباً عن

الوعى لسبب من الأسباب ثم يتنبه إلى ما حوله . فهو يبدأ بالتطلع والتساؤل ثم يزيد نشاطه شيئا فشيئا حتى يستتم وعيه فينطلق إلى كل وجهة . غير أن كل أمة تطبع حضارتها الخاصة بطابع الروح الذى يحركها أو بقول آخر إن كل أمة من الأمم التى خلفت للإنسانية تراثاً حضارياً كانت تمتاز بشخصية خاصة تميز حضارتها . وهذه الشخصية التى تميز حضارة كل أمة ترجع إلى الدوافع الداخلية التى تحرك مشاعرها وتكون بالنسبة إليها بمثابة سر الحياة الذى يكمن فى النواة . ولإيضاح المعنى الذى نقصده نضرب بعض أمثلة لتلك الدوافع الداخلية التى كانت تحرك بعض الأمم ذات الحضارة الكبرى وتطبع حضارتها بطابعها المميز ، ومنها نتبين أنها ترجع جميعا إلى عقائد الأمة الأساسية التى يمكن أن نسميها رسالتها إلى الإنسانية .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما تجلى فى الحضارة المصرية القديمة وحضارة اليونان وحضارات الشرق القديم . كانت كل من هذه الأمم فى مبدأ تحركها تعتمد على التراث القديم الذى خلفته الأمم التى قبلها ثم تأخذ بعد ذلك بالإضافة عليها من عندها ومن وحى عبقريتها الخاصة الماثلة فى عقيدتها ، وهذه الإضافات هى التى طبعت حضارتها بطابعها المميز . فحضارة المصريين القدماء تتميز بطابع عقيدتها فى خلود الروح والإيمان بحياة أخرى بعد الموت ، فيها جزاء النعيم للأخيار وجزاء العذاب والخزى للأشرار . كانت فضائل الفرد عندهم فى الحياة الدنيا تؤهله للسعادة

الأخروية ، وكانت قاعدة السلوك الأولى هى النظر إلى ما يؤدى إلى الخلود فى دار النعيم . وكان الملك عندهم هو الإله على الأرض أو هو ممثله فى هذه الحياة ، فالقوانين الصادرة عنه مقدسة ومخالفتها تستوجب الحرمان من النعيم . وقد أثرت هذه العقيدة تأثيراً واضحاً فى مظاهر الحضارة المصرية جميعاً سواء فى مظاهر الحضارة المادية والعمرانية أو فى مظاهرها الاجتماعية ، فكانت بمثابة السر الخفى أو الروح الذى يسرى فى كل ما أضافوه إلى الحضارة الإنسانية من إضافات فى العلم أو الفلسفة أو الإبداع فى الإنتاج الفنى . وكانت حضارة العراق القديمة تتميز بأنها واقعية جذورها فى الأرض وليس للروح فيها نصيب واضح . كانت حضارة قائمة على تبادل المنافع فى داخل البلاد ومع الأمم الأخرى ، وكان اقتناص الفائدة أو المتعة هو القصد من الحياة التى لا حياة بعدها فى الآخرة . والملوك عند هذه الحضارة هم رمز القوة الجبارة التى تمكن الناس من تحقيق المنافع لأنهم هم الذين يحفظون الأمن بقوتهم ويكفلون سلامة سبل المواصلات فى الداخل والخارج . وقد أثرت هذه العقائد فى حضارتهم فكانت واقعية فى تفكيرها واتجاهاتها ، فأبدعت فى ميادين التشريع والرياضة والفلك وسائر ما يخدم الناس فى حياتهم الواقعية . وكانت حضارة اليونان شبيهة بحضارة العراق من ناحيتها الواقعية ولكنها تمتاز بشخصية أخرى واضحة الملامح . كانت الآلهة عندهم زعماء للبشر ولهم خصائص البشر من تقلب الأهواء والغضب والكيد والتنافس . ولهم درجات كالبشر بعضها فوق بعض والأرض هى

مجالهم مع الإنسان ، والحياة الفانية هى حظ الناس من الوجود ، وأما الحياة الأخرى فهى الحياة التحتانية الغامضة التى يسودها النسيان. فالحياة الدنيوية عند اليونان هى مجال القوة والجمال وفرصة الحب والسعادة . والآلهة تشاطر الناس مباهج الأعياد وتطلق لنفسها العنان مع الناس ليصيبوا ما يتهيأ لهم من المتعة وإظهار القوة . فلم يكن فى عقائدهم ما يحجر على الناس أو يقيد حرياتهم . وكان لهذا كله أثر واضح فى حضارة اليونان المادية كما كان له أثر فى فنونهم ومذاهبهم الفلسفية .

أما حضارات الشرق الأقصى من هندية وصينية فكانت تتميز بعقيدة أن الإنسان ينطوى على عنصرين فى حياته وهما : عنصر الجسد وعنصر الروح ولا يمكن أن ترقى الروح إلا إذا تجردت من قيود البدن والحواس والميول . فإذا استطاع الإنسان أن يتحكم فى جسده فيخمد حواسه ويكبت ميوله إلى أن يقضى عليها أمكن لروحه أن تصل إلى عالم السعادة الأبدى وهو عالم فناء روح الفرد فى الروح العالمى الشامل . وأما إذا لم يتمكن الإنسان من ذلك فإن روحه لن تستطيع الرقى إلى مرتبة الاتصال بروح الوجود الشامل . وقد كان لهذه العقيدة أثر واضح فى كل مظاهر الحضارات فى الشرق الأقصى سواء منها المظاهر العمرانية والفنية والفكرية .

فلننظر إلى الحضارة العربية لنرى ماذا كان منبع القوة الدافعة التى طبعت حضارتها وميزتها ، كما نتبين الملامح العامة التى تميز شخصيتها . لقد خرج العرب من جزيرتهم يحملون رسالة ، ولولا إيمانهم بهذه الرسالة

ورسوخ عقيدتها فى نفوسهم لما استطاعوا أن يكونوا أمتهم الكبرى ، ولما أسسوا تلك الحضارة العظيمة التى كانت من أنفس الإضافات إلى الحضارة الإنسانية . هذه الرسالة هى الإسلام الذى اشتمل على كل الفضائل التى تميز بها العرب فى قديمهم بعد أن صفاها وهذبها كما اشتمل على مجموعة فذة من الفضائل الإنسانية والمثل العليا التى لم يسبق للعرب ولا للأمم الأخرى أن آمنوا بها . فرسالة الإسلام تشتمل على سجل ضخم من مكارم الأخلاق ومن مبادئ الإخاء بين البشر والعدل والإحسان والاعتدال ، وهى تدعو إلى فتح الأعين إلى تأمل الكون ، وفتح العقول إلى البحث عما ينطوى عليه الكون من أسرار تدل على وحدانية الله وعظمته . فالرسالة العربية تنكر العبودية فى كل صورها وتؤمن بالمساواة المطلقة بين البشر وتنكر الاعتداء والكبرياء والبغى والاستغلال والعبث بالعهود . وهى تؤمن بأن الحياة الدنيا زائلة وأن قيمتها تتمثل فيما يحقق فيه الأفراد والجماعات من الفضائل الإنسانية وفيما يقومون به من المحافظة على حريتهم وإنسانيتهم . فإذا تعرضت هذه الفضائل للخطر كانت الحياة فداء لها ، وكان جزاء الإنسان على تضحيته بالحياة الدنيا حياة أخرى فيها السعادة الصافية والنعيم السرمدى .

من أجل هذا خرج العرب من جزيرتهم برسالة إلى الأمم جميعا تتمثل فى دستور شامل مقدس يكفل تسامى الأفراد فى حياتهم الخاصة ، ويكفل لهم حقوقهم ونشر العدالة بينهم . ومع كل ما احتوى عليه هذا

الدستور من الحض على التسامى بالحياة ، لم يحرم على البشر أن ينالوا من طيبات الحياة ما لا يهبط بحياتهم إلى عبادة الجسد وحصر اهتمامهم فى نعيم الحياة الدنيا .

فرسالة الإسلام وسط عادل بين أرضية فلسفة اليونان المحضة وبين احتقار فلسفة الصين والهند للجسد وقتلهم لميوله وغرائزه ، وحرمانه من التمتع بالطيبات . فللروح فى هذه الرسالة مكان القيادة وللأبدان نصيبها الذى يحفظ عليها القدرة على مواجهة أعباء الحياة . وهذا الدستور لا يفرق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة كما لا يفرق بين المبادئ الأخلاقية التى يسير عليها الأفراد والمبادئ الأخلاقية التى يسير عليها المجتمع . فالنظام الذى وضعه الإسلام للتسامى بحياة الأفراد هو النظام الذى وضعه للجماعة للتسامى بحياتها وهو النظام الذى حدد للدول سبيلها فى معاملاتها مع الدول الأخرى . لا يسمح الإسلام بالاعتداء ولكنه لا يسمح بالسلبية فى مواجهة الاعتداء . والإطار العام الذى يحدد المجتمع العربى هو هذا الجو المتوفر الفاضل الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من جهة سلوك الأفراد والجماعة ويقوم على مواجهة الحقائق بالتفكير الفطرى السليم الذى لا تحدده الأوهام ، ولا تزيفه الميول والغرائز البدائية . وقد اتجهت دعوة الإسلام إلى الأفراد فاعتبرت كل فرد مكلفا باتباع قواعد الدين والمحافظة عليها ، وحضته على التمسك بحريته حتى لا يفنى فى غيره من البشر ، كما أمرته

بالحرص على مصلحة المجتمع وجعلت المصلحة العامة جانباً متمماً لمصلحة الفرد . ومن أهم ما يدعو إليه الإسلام أن مكارم الأخلاق لا تتجزأ ولا تتحدد بشرط ولا ينبغى لأحد أن يضحى بها من أجل تحقيق غاية ، فالشر فى نظرها لا يمكن أن يكون وسيلة إلى خير ولا يمكن أن تبرر الغاية الوسيلة مهما عظم قدر تلك الغاية . فهذه الرسالة التى حملها العرب معهم عندما خرجوا من جزيرتهم ، بل إن هذه الرسالة التى دفعتهم إلى الخروج من جزيرتهم لدعوة الإنسانية جميعا إليها هى التى طبعت حضارة العرب فى كل مظاهرها وهى التى ميزت تراثها الضخم بين المواريث الحضارية . فلم يكن العرب كما زعم بعض الباحثين السطحيين حملة لحضارة اليونان ولا نقلة لأية حضارة أخرى أوصلوها من عالمها القديم إلى العالم الحديث ، فإنهم أبدعوا حضارة فذة مبتكرة وأقاموها على قواعد رسالتهم الإنسانية وخلفوها تراثاً للإنسانية كأرقى ما خلفته أمة من الأمم قديماً وحديثا .

لمحة من آثار الحضارة العربية

١ ـ الفلسفة

بينا فيما سلف كيف تكونت الأمة العربية بمعناها الشامل الذى ما يزال باقياً إلى اليوم وكيف كان تكوينها من أصول مختلفة اندمجت معاً على مدى قرنين فصارت تتسم بطابع واحد ، فلها لغة واحدة وثقافة واحدة وتجمعها وحدة المشاعر ووحدة أسلوب الحياة ، وتتخذ لنفسها مقاييس واحدة للتمييز بين الخير والشر والمعروف والمنكر والحسن والقبيح. وإنه من مميزات هذه الأمة أنها لا تعترف بحدود تفصل بين الأوطان ولا بفروق تفرق بين المواطنين ، فكان أحدهم ينتقل فى أرجاء الوطن الواحد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى بقاع متباينة وهو يشعر بأنه ينتقل بين أهله وقومه . ولم يتغير هذا الشعور العميق عندما استقل بعض حكام الدولة ببعض أقاليمها فى القرن التاسع وما بعده .

وأقبلت هذه الأمة على بناء حضارتها بحماسة منقطعة النظير ، فشارك أبناؤها جميعاً فى البناء بغير نظر إلى أصولهم الأولى وبغير تمييز بين أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، فأقاموا صرحه معا متكافلين جيلا بعد جيل فى كل ميدان من ميادين العمران والفنون والآداب والعلوم على اختلاف مجالاتها .

ومما يسترعى النظر فى تاريخ الحضارة العربية أن انفراط عقد الدولة

الذى بدأ فى القرن التاسع للميلاد لم يقلل من نشاط البناء الحضارى فى الأمة بمجموعها ، بل لعله زاد الإبداع تعمقا واتساعا ، فبعد أن كان مركز النشاط فى دمشق فى عهد الأمويين ثم أضيفت بغداد فى عهد العباسيين الأوائل ، نشأت مراكز جديدة فى قرطبة بالأندلس وفى القاهرة بمصر وفى فاس ببلاد المغرب ، وكان كل منها يضيف إلى التراث الحضارى العربى العام ويستمد منه وينتفع بثمار النشاط فى المراكز الأخرى .

وسنعرض فيما يلى بعض آثار هذا الإبداع العظيم بغير أن نميز المراكز التى كان لها الفضل فيه ، لأنه كان من إبداع أمة لم تعترف بما أقيم فيها من حدود الأقاليم . كان أول ما جال فيه العرب من الميادين ميدان التفكير فى رسالتهم التى كانت أساس نهضتهم . وقد أشرنا من قبل إلى محاولات الأجيال الأولى فى إنشاء المذاهب التى بنوا عليها محاولاتهم فى تنظيم الحكم فكانت الفرق التى أنشأت هذه المذاهب هى النويات الأولى التى نمت منها الحياة العقلية ، ومن أمثلتها فرق المعتزلة والأشعرية وأصحاب مذاهب القدرية والمرجئة والجبرية . وكانت أبحاثها الأولى تدور حول الإنسان وهل هو حر الإرادة أم مقيد بقدر محتوم لا بد من حدوثه وما هو السلوك الذى يحقق الخير ويتسق مع مبادئ الإسلام .

واتجه المفكرون العرب أول ما اتجهوا إلى الإحاطة بما تدعو إليه الرسالة الإسلامية ، فكان لا بد لهم من فهم القرآن وتفسير آياته والحرص على إدراك ما تنطوى عليه هذه الآيات من المعانى . وقد أدى ذلك إلى

تفرع بحوثهم وتشعب تخصصهم فاتجه بعضهم إلى البحث فى اللغة العربية لمعرفة أصولها وقواعدها حتى لا يختلف الناس فيما تدل عليه ألفاظها وعباراتها واتجه البعض إلى تفسير آيات القرآن وإيضاح ما فيها من إشارات موجزة وتفصيل ما جاءت به من أصول عامة واتجه آخرون إلى جمع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وتدوينها وجمع أخباره وسيرة حياته واستنباط المبادئ العامة التى يمكن أن تستخلص من هذه الأحاديث إذ هى المورد الثانى لمبادئ الإسلام بعد آيات القرآن الكريم .

وهذه البحوث جميعا تتصل بالأصول التى يستند عليها التفكير الإسلامى ، فهى تمهيد لكل تفكير عقلى يقصد به الاهتداء إلى حقائق الدعوة الإسلامية نفسها . فكان من الطبيعى أن يصاحب هذه الحركة اتجاه آخر يقصد إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى وهو الأس الأول للإسلام. فدراسة الكون وما فيه ودراسة العلوم الطبيعية على اختلافها والبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة لم تنشأ جميعا إلا لخدمة الرسالة الإسلامية التى آمن بها العرب وأخذوا على أنفسهم أن يلتزموا حدودها فى حياتهم الخاصة والعامة ،وأوجبوا على أنفسهم نشرها فى العالم والدعاية لها . وإلى جانب هذه البحوث التى كانت تنبعث من رسالة الإسلام نشأت دراسات علمية بحتة دعت إليها الحياة نفسها ودفع إليها النشاط الفكرى الذى أخذ يستقل بنفسه ، فمن ذلك ما قام به الأمير خالد بن يزيد بن معاوية من النظر فى الفلسفة والاشتغال بالكيمياء والطب وما قام به العرب النصارى

بالشام مثل الطبيب ابن أثال الذى كان فى بلاط معاوية بن أبى سفيان ، وهناك بعض أسماء نعرفها من الباحثين فى العلم الطبيعى البحت فى أول عهد العرب بالحضارة وإن كانت آثارهم قد اندثرت فلم تبق منها بقية . ومن هؤلاء يحيى النحوى الذى وفد على عمرو بن العاص فوجد منه إكراماً عظيما ، ومنهم عبد الملك بن أبجر المصرى الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز وهو أمير قبل أن يتولى الخلافة . وقد جمع ابن أبجر بين الاشتغال بالطب وبين التأليف فى العلوم الطبيعية .

ولكن الحركة الفكرية والعلمية لم تزدهر إلا فى عهد الدولة العباسية وكان من الطبيعى أن يلجأ العرب إلى ما خلفه المفكرون والعلماء من قبلهم وأقربهم إلى العرب هم اليونان . فقد كانت فلسفة اليونان وعلومهم باقية فى حياة الشعوب التى اندمجت فى الأمة العربية . وكان تفكير اليونان قريباً إلى تفكير العرب الذين لم يكن لهم ولع بالفلسفة المجردة بل كان أحب تفكير إليهم ما اتصل بالحياة ومسائلها فكانت آثار الفكر والعلم اليونانية أقرب إلى العرب داراً وأقرب إلى عقولهم اتصالا . وكان كثير من كتب اليونان فى الفلسفة والعلوم قد ترجمت إلى اللغة السريانية عقب غزو الإسكندر للشرق . وكان أهم مراكز الثقافة اليونانية فى مدينتى جنديسابور وحران ، ثم هاجر جماعة من أتباع المذهب النسطورى فى القرن السادس للميلاد حين طردوا من القسطنطينية لاتهامهم بالكفر والخروج على المسيحية الرسمية فحلوا فى العراق وأرمينية ، فأصبحت مدينة حران

(بغرب أذاسا) موطناً للدراسات العلمية اليونانية . وكان بعض العلماء هناك يونانيًّا وبعضهم سوريًّا ، فترجموا علوم اليونان إلى اللغة السريانية التى كانت وسيلة التعليم فى تلك البلاد . وقد اتصل العرب قبل الإسلام بالدراسة فى جنديسابور . ولكن (أذاسا) كانت أعظم مراكز الدراسة فى العصر الإسلامى ، فلما قويت الحركة العلمية فى زمن المهدى والرشيد وبلغت ذروة حماستها فى زمن الخليفة المأمون وجد العرب حيالهم فى تلك المدينة ذخيرة كبيرة يمكنهم أن يستمدوا منها ما يعينهم على البحث ويشبع رغبتهم فى العلم . وقد أنشأ المأمون للعلماء فى بغداد داراً يعكفون فيها على دراستهم وترجمتهم لآثار العلوم والفلسفة وهى (دار الحكمة) فى بغداد واشترك فى حلقة دار الحكمة جمع عظيم من العرب سواء منهم من انحدروا من أصول عربية خالصة ومن اندمجوا فيهم من الأجناس الأخرى ،فكان فيهم اليهودى والمسيحى والمسلم يعملون جنباً إلى جنب ، وحسبنا أن نذكر هنا أسماء بعضهم مثل ابن ماسوية وقسطا بن لوقا البعلبكى وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين وصالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن إسرائيل الكوفى وأبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى وكثير غيرهم . ولم تلبث الكتب التى قام هؤلاء العلماء بترجمتها أن نسخت وأرسلت نسخ منها إلى الأندلس ثم إلى صقلية حيث نزل العرب منذ القرن التاسع للميلاد .

وقد أظهر العرب فى ترجمتهم وفى دراستهم اهتماماً عظيما ببعض

الاتجاهات الفكرية والعلمية اليونانية خاصة، فنال منهم أرسطو أكبر العناية وعدّوه المعلم الأول ولكنهم كانوا كثيرا ما يجمعون فى تقديرهم ودراستهم بين أرسطو وأفلاطون، كما عنوا عناية كبرى بفلاسفة الأفلاطونية الحديثة مثل أفاوطين .

وكان من أول من نبغ من فلاسفة العرب أبو يعقوب بن إسحق الكندى (فى القرن التاسع للميلاد) وهو من أصل عربى محض . وقد كتب الكندى فى علم الطب والفلك والرياضة وكان يترجم من اللغة اليونانية التى كان يحذقها . وكان مما يسترعى الاهتمام ابتكاره وإبداعه فى علمى المنطق وما يمكن أن نسميه اليوم بعلم النفس .

وقد نبغ فى النصف الأول من القرن العاشر أحد من تفاخر بهم الأمة العربية من الفلاسفة وهو أبو نصر الفارابى، الذى كان بمثابة الأستاذ الأكبر لتوماس الأكوينى أعظم الفلاسفة المسيحيين فى العصور الوسطى، إذ كان يستمد من فلسفته وينقل عنه فى كتبه بل كان يقتبس من عباراته بنصوصها .

والعرب يطلقون على الفارابى لقب المعلم الثانى بعد المعلم الأول وهو أرسطو. وكان فارسى الأصل أو بقول أدق كان فارسيًّا تركى الأصل ولكنه كتب بالعربية وعلم بها وجال بها فى ميادين شتى فألف فى الطب والطبيعة وعلم النفس والفلسفة الإسلامية والمنطق وذلك فوق مؤلفاته فى الفلسفة عامة . وكان من مبتكرات الفارابى فى المنطق أنه توصل إلى شرح طريقة الوصول

إلى استنباط القوانين العامة باستقراء الحقائق المفردة بعد الوثوق بصحتها ، وكان من مبتكراته فى علم النفس أن الإنسان يكوّن صورة العامة عن طريق مدركاته الحسية للأشياء المفردة .

وكان أبو على الحسين بن عبد الله ابن سينا أكبر علم بعد الفارابى . وقد نبغ فى النصف الأول من القرن الحادى عشر للميلاد ، وهو بغير شك من أكبر عباقرة العالم على مر الدهر . وهو فارسى المولد والأصل ولكنه كان من أكبر بناة الحضارة الفكرية فى الأمة العربية وكان فى ذكائه وسعة علمه وتنوع مجالات فكره ينبوعا غزيرا لم يقف فيضه عند حدود أمته ولا عند حدود عصره بل امتد أثره إلى الأمم الأخرى . وكان لعلمه ذلك أكبر الفضل على حضارات أوربا جميعا ، وبقى نبعه فياضا إلى عدة قرون بعد موته، وما يزال إلى اليوم مثار الإعجاب فى العالم تقترن صورته بصور الخالدين من عظماء المفكرين والعلماء أمثال أفلاطون وأرسطو . ويقال عنه إنه كان من نوادر الأفذاذ منذ صغره؛ ففى سن الصبا ألم بفلسفة أرسطو وبهندسة أقليدس وكتب بطليموس وبمؤلفات كثير من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ثم عكف على دراسة الطب حتى استطاع أن يمارس العلاج وصار الأمراء يدعونه للاستفادة بطبه وعلمه ، وكان حيث حل فى الوطن العربى يعتبر أستاذاً ينشر العلم على حلقات واسعة من طلابه وألف عدداً كبيراً من الكتب فى العلوم المختلفة من طب وفلسفة ورياضة وطبيعة واشتملت دراسته لكل علم على فروع شتى ، ففى الطبيعة مثلا عرض

للضوء والصوت وفى الطب عرض لدراسة الأقرباذين والصيدلة . وإذا كان ابن سينا قد تتلمذ على من قبله من الفلاسفة والعلماء سواء منهم اليونان والعرب فإنه خلف من ورائه ثروة علمية وفكرية تتلمذ عليها عالم بأسره لعدة قرون . وابن‌سينا مثال واضح لاتجاه الفلاسفة العرب ، فإنه مع اشتغاله بالعلوم البحتة ومع بحوثه الأصيلة فى الفلسفة كان لا ينسى غايته الأولى وهى تأدية الواجب الذى حض عليه الإسلام وهو النظر فى أسرار الوجود للاستدلال على وحدانية الله وعظمته . وكانت إضافاته إلى علم المنطق وعلم النفس مما يجعله الرائد الأصلى للعلم الحديث ، فلا نكاد نجد بحثا حديثا فيهما إلا كان هو الرائد الأول فيه ، سواء اعترف العلماء المحدثون بدينهم له أو لم يعترفوا به . ولا مراء فى أن كثيرا من فلاسفة اليهود ومن بينهم موسى بن ميمون كانوا لا يزيدون على التلمذة عليه ونقل فلسفته ومؤلفاته إلى شعوب أوربا ، لتستمد منها المعرفة فى فجر نهضتها .

وكان القرن الحادى عشر من أخصب العصور بالعلم والفلسفة فقد نبغ فيه فيلسوف إسلامى عظيم آخر وهو أبو حامد بن محمد الطوسى الغزالى الذى يقترن اسمه باسم معهد من أجل المعاهد العلمية الإسلامية وهو المعروف بالمدرسة النظامية التى أنشأها الوزير العظيم نظام الملك وزير الأمير التركى السلجوقى ألب أرسلان الذى كان يتصرف فى شئون الخلافة العباسية بعد انحطاط شأن خلفائها واعتمادهم على الجنود الأتراك المرتزقة . وكان ألب أرسلان من أعظم الحكام الترك المستعربين وأخلصهم

للإسلام ومن أكثرهم رعاية للعلوم والآداب ، وإليه يرجع الفضل فى تعضيد وزيره نظام الملك الذى كان من أكبر أنصار نشر العلوم والمعارف .

وقد تقلب أبو حامد الغزالى بين البحث الفلسفى الذى يعتمد على تأمل العقل وحده وبين أسلوب التصوف الذى يعتمد على استلهام الفطرة أو القلب . واستطاع الغزالى أن يطهر التصوف ويسمو به إلى مرتبة سامية بأن اتخذه وسيلة إلى لمح المعرفة وإدراك الحقيقة من خلال ومضات الإلهام كما أنه استطاع أن يلين من جمود العقل وأن يوسع آفاقه باستلهام الفطرة . فكان ينكر على الفلاسفة اعتمادهم على العقل وحده حين يريدون التفكير فى الحقائق الأزلية ويرى أن سبيل الاهتداء إليها لا بد فيه من اقتران نور العقل وصفاء النفس .

وقد ترجمت كتب الغزالى إلى اللغة اللاتينية منذ القرن الثانى عشر الذى توفى فى أوائله . فكانت كتبه من المنابع الكبرى التى استمد منها الدارسون فى أوربا فى عصر النهضة ولا سيما فى البحوث الأخلاقية . وقد أنجبت القرون التالية بعد القرن الحادى عشر طائفة من كبار الفلاسفة العرب ولكن أكثرهم نبغ فى الأندلس التى كانت تعاون بكل ما فيها من عبقرية فى بناء الحضارة العربية . وقد سبق نبوغ بعض المفكرين بالأندلس قبل القرن الثانى عشر مثل ابن حزم الذى كان له الفضل فى تأليف أول كتاب فى تاريخ اللغات جميعا فى الدين المقارن . ولكن القرن الثانى عشر حفل بعدد من كبار المفكرين كان أولهم ابن باجة أبو بكر محمد

ابن يحى وكان لكتبه أثر كبير فى نهضة أوربا وله مؤلفات غير الفلسفة فى الرياضة والكيمياء .

وابن طفيل أبو بكر ما يزال حيًّا فى كتابه (حى بن يقظان) الذى تناول موضوع تطور التفكير الفلسفى فى أسلوب قصصى بارع يمكن أن يعد مثالا للمؤلفات الأوربية التى تصف التفاعل بين تفكير الإنسان والطبيعة المحيطة به ككتاب روبنسون كروزو للكاتب الإنجليزى (دانيال ديفو) .

وكان أكبر فلاسفة الأندلس وأوسعهم أثرا فى نهضة أوربا وأشهرهم بين شعوبها هو ابن رشد القرطبي المولد وامتاز بدراساته الواسعة لكتب أرسطو وبحماسته العظيمة لها حتى إنه ألف كتاب (تهافت التهافت) ردًّا على كتاب أبى حامد الغزالى (تهافت الفلاسفة) الذى هاجم فيه فلسفة أرسطو وأتباعها. وكان لابن رشد الفضل فى فصل طريقة البحث العلمى عن طريقة بحث الإلهيات وما وراء الطبيعة فهو رائد للتجرد من كل قيد فى البحث العلمى والاعتماد على الحقائق والملاحظة لاستخلاص قوانين الطبيعة . ولكن ابن رشد مع تفريقه بين طريقة بحث العلوم وطريقة بحث العقائد الدينية كان مسلماً مخلصاً فى عقيدته الدينية .

هذه لمحة موجزة من جهاد فلاسفة العرب فى البحث العلمى والفلسفى ومنها نستطيع أن ندرك فضلهم الكبير على الحضارة الإنسانية ، فهو فضل مزدوج ، لأنهم أحيوا فلسفة اليونان وعلومهم وأخرجوها من الظلام الذى ظلت تعيش فيه قروناً طويلة ، ثم لم يقفوا عند حد إعادتها إلى النور بل

اتخذوها مادة يفكرون فيها بالإضافة إلى تفكيرهم الخاص كما هو طبيعى لكل من يتصدى لدراسة علم من العلوم ، ولكن دراستهم الخاصة كانت إبداعا جديدا وابتكارا وإنشاء . فلما تلقف العلماء الأوربيون مؤلفات هؤلاء الفلاسفة العرب فى عصر النهضة بدأوا يخرجون لشعوبهم نظريات جديدة بالنسبة إليهم وظهروا أمام هذه الشعوب كأنهم مبدعون لها مبتكرون فى الكشف عنها ولم يكونوا فى حقيقة الأمر إلا ناشرين لما انطوت عليه مؤلفات علماء العرب من النظريات . وإذا كان العلماء المحدثون فى أوربا قد تعاقبوا على مر السنين وأضافوا إلى المعارف إضافات لا شك فى قيمتها العظيمة وإذا كان فضلهم فى ذلك لا ينكر فإن فضل العرب على الثقافة الإنسانية جدير بأن يعترف به كذلك فإنهم بحق رواد الحركة الفكرية الحديثة فى العالم أجمع .

٢ ـ العلوم والآداب والفنون

جاء فى كتاب ألفه (بريفو) بعنوان « تكوين الإنسانية » ما يأتى :

« كانت العلوم أعظم إضافة أضافها العرب من حضارتهم إلى العالم الحديث ، فقد كان اليونانيون يصنعون الحقائق ويقررون القواعد العامة وينشئون النظريات ، ولكن القيام بالبحث العلمى وجمع الحقائق الثابتة واتباع الطرق العلمية الدقيقة فى البحث والدأب على الملاحظة للوصول

إلى الحقائق فقد كان غير مألوف عند اليونان ومنافياً لاستعدادهم العقلى . والعرب هم أصحاب الفضل فى تعريف أوربا بهذه الوسائل العلمية »[١] .

وهذه شهادة لها أمثال كثيرة فى هذا العصر وهى تدل فى مجموعها على أن الكتاب الأوربيين بدأوا فى وقتنا هذا يعدلون عن الطريقة السابقة التى كان كتاب الغرب يتبعونها فى إنكار ما للعرب من فضل على الحضارة الإنسانية ومحاولة الافتراء عليهم وتشويه تاريخهم .

وسنكتفى بإلقاء نظرة سريعة على ما كان للعرب من جهود عظيمة فى ميادين البحث العلمى علاوة على ما أضافوه إلى المعرفة الإنسانية فى ميادين التفكير الفلسفى .

وقد سبق أن قلنا إن الإسلام يجعل التفكير فى الكون والتأمل فى أسراره من واجبات المسلم لأن معرفة هذه الأسرار تجعل الإنسان أقوى شعورا بالسلام وأعمق إيمانا بقدرة الله واطمئنانا إلى الإسلام لمشيئته، فالكشف العلمى فى الإسلام جزء من بواعث الإيمان ولهذا كان دأب علماء العرب أن يدققوا فى تأملهم لما حولهم من قوى الطبيعة ولا يقنعون بالظاهر الذى تقع عليه أعينهم بل يحاولون أن يصلوا إلى الحقائق الكبرى التى تنطوى تحت ذلك الظاهر .

وكان من أول ما اتجهوا إليه فى تأملهم حركة الأفلاك فى الفضاء،

---

(١) نقلا عن كتاب (الإسلام والعرب) للأستاذ (روم لاندو) أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة كاليفورنيا .

وكان لا بد لهم لإدراك أسرارها من دراسة الرياضيات ونقلها من الميدان النظرى الذى جال فيه من سبقهم من علماء اليونان إلى المجال التطبيقى الذى اتجه إليه العرب فى دراستهم للرياضيات ، وفى سبيل ذلك وضعوا أسس علم حساب المثلثات والهندسة الفراغية فالعرب هم أصحاب الفضل فى توجيه التفكير إلى الرياضيات التطبيقية ، كما كانوا أصحاب الفضل فى إطلاق الرياضيات من قيود العدد فابتكروا استعمال الصفر ليتمكنوا من تجاوز العد بالأرقام التسعة المعروفة إلى ما لا نهاية له من الأرقام كما أنهم ابتكروا علم الجبر للتخلص من قيود الأرقام بجعل الحساب يتناول ما لا نهاية له من المحسوبات .وكان صاحب الفضل فى هذا الابتكار هو الخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى ، وكان اهتمام العرب بقياس أبعاد المكان ناشئاً من رغبتهم فى الكشف عن حقائق الكون الذى يتأملونه ، فقاسوا أبعاد الأرض بالطريقة الفلكية باستخدام علم المثلثات ورصد ميل الكواكب الثابتة عن الأفق وكانت النتائج التى وصلوا إليها فى قياس الدرجة العرضية بالغة الدقة . ومن علمائهم الذين برزوا فى هذا الميدان الرياضى الكبير (البيرونى) من علماء القرن الحادى عشر الذى كان له الفضل فى توجيه الاهتمام إلى حركات الأفلاك ، وكان الشاعر المعروف عمر الخيام من كبار الرياضيين فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وقد سبق إلى إعداد تقويم فلكى أعظم دقة من التقويم الجريجورى ،ومن علمائهم فى الفلك (أبو الوفا) الذى سبق العالم الأوربى (قوبرنيكوس) فى كشف كثير من

الحقائق بل سبقه إلى بعض حقائق لم يفطن لها العالم الأوربى الكبير ،

ولاهتمام العرب بالفلك أنشأوا مراصد عدة كان أولها فى بغداد ثم أنشئ مرصد أعظم منه فى (المراغة) بآسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر . وكانت الأندلس كعادتها تعاون فى خدمة العلوم كمعاونتها فى خدمة الفلسفة. وقد حسن العرب صناعة آلة الاسطرلاب حتى صيروها آلة دقيقة لرصد الأفلاك فأحدثوا بذلك انقلابا عظيما فى دراسات الفلك وفى الملاحة البحرية ، وكان العالم الفلكى الأوربى (قوبرنيكوس) ينقل عن الزركلى فى مؤلفه الكبير عن القبة السماوية . ومما يتصل بدراسة العرب للفلك دراستهم للجغرافية وتمثيلهم لحقائقها على الخرائط مبالغة منهم فى الدقة . وكانت مبالغتهم فى تحرى الدقة فى الدراسة النظرية ورغبتهم فى الوثوق من المعطيات التى يقيمون عليها أحكامهم العامة — كان ذلك يدفعهم إلى تجشم مشاق الأسفار البعيدة ليروا بأعينهم ويتأملوا ما يرونه ،وقد حملتهم هذه الأسفار إلى قاب آسيا وإلى أفريقيا ومجاهل أوربا ، وكان الرحالة ابن بطوطة (فى القرن الرابع عشر للميلاد) واحداً من مئات من رحالة العرب الذين جابوا أركان الأرض بحثا عن الحقائق. وما يزال اسم الإدريسى علماً فى تاريخ الجغرافيا وهو من علماء المغرب فى القرن الثانى عشر ،وقد اشتهر اسمه فى أوربا لاتصاله بالملك (رجار) — روجر حاكم صقلية وقد ألف الإدريسى لذلك الملك كتابا فى الجغرافيا ضمنه عددا كبيرا من الخرائط الإيضاحية التى كانت أدق ما عرف من الخرائط فى العالم .

وعرف الإدريسى كما عرف غيره من علماء الجغرافيا والفلك أن الأرض كروية وحددوا أقاليمها . وقد اختلفت الآراء فى اختراع الإبرة المغناطيسية، فقيل إنها من ابتكار العرب وقيل إنهم نقلوها عن الصين ولكن العرب كانوا أصحاب الفضل فى استخدامها وتعريف العالم بها على أية حال . وإذا كان الأوربيون يمجدون العالم (ليو الأفريقى) اعترافا بفضله فى الوصول إلى الحقائق التى سجلها فى رحلاته بأفريقيا فإن ذلك العالم عربى الأصل واسمه الأصلى (حسن الوزان) وهو مغربى النشأة .وقد أشرنا عند ذكر فلاسفة العرب إلى أنهم شاركوا فى دراسة علوم كثيرة مثل الطب والكيمياء والطبيعة إذ كانت دراسات الفلاسفة منذ القدم قائمة على الشمول وتوسيع دوائر البحث ، فليس التخصص فى الدراسات إلا تطورا جديدا على الإنسانية . غير أن بعض الفلاسفة وإن لم يتخصصوا فى ميدان واحد كانوا أكثر اهتماما ببعض العلوم دون بعض ، وكان الطب من أهم العلوم التى نظر فيها الفلاسفة . وكان ذلك طبيعيًّا لعلماء المسلمين الذين كانوا يحاولون أن يعرفوا حقائق الوجود من الناحية الفلسفية عن طريق كشفهم للحقائق الماثلة فى أنفسهم وفيما حولهم من الكائنات . وابن طفيل يمثل هذا الاتجاه فى كتابه (حى بن يقظان) فإنه حين ماتت الغزالة التى أرضعته أراد أن يبحث عن سر روحها فأخذ فى تشريح جسمها لعله يصل إلى مكمن الروح فيها .

وقد ذكرنا فضل حنين بن إسحق على الترجمة من اليونانية إلى

العربية فى عصر المأمون ، وكان كتاب جالينوس فى الطب من بين مترجماته ، كما ترجم هو وتلاميذه كتب أبقراط الطبية وكتاب (ديوسقوريدس) فى الأقرباذين . ولم يكن حنين مترجماً فحسب إذ أنه ألف كذلك فى الطب كتباً عدة أهمها فى طب العيون . وكان الرازى من كبار أطباء أوائل القرن العاشر للميلاد . وفضلا عن ممارسته للطب ألف كتبا كان لها أكبر أثر فى القرون التالية وكان ابن سينا كما سبق ذكره من أكبر الأطباء وله كتاب (القانون فى الطب) وهو الذى اعتمدت عليه دراسات الطب فى العالم كله إلى عهد قريب . وكان (ابن النفيس) المصرى من كبار علماء الطب فى القرن الثالث عشر وما زال فضله العظيم فى حاجة إلى الإظهار وهو الذى سبق إلى معرفة دوران الدم فى الرئتين ليتطهر بالاتحاد بالهواء وهو السر الذى لم يكشفه الأوربيون إلا فى القرن السابع عشر . ولم يكن أطباء الأندلس وعلماؤها أقل براعة وعلماً من أطباء المشرق وعلمائه فقد امتاز علماؤها بالدقة فى مباحثهم حتى يمكن أن يقال إن أحدهم سبق العلم الحديث إلى فلسفة النشوء والارتقاء وهو محمد بن أحمد الوراق . وجاء فى كتاب (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ما يدل على أن علماء الأندلس عرفوا أسرار فساد الأجسام وتعفنها وأن ذلك يسبب الأوبئة التى تهلك الحيوان والنبات .

ومن علماء الأندلس وأطبائهم (ابن زهر أبو مروان عبد الملك ابن محمد بن زهر الأيادى الإشبيلى) وكان لكتابه (التيسير) أثر كبير

فى نهضة العلم بأوربا ، وهو من أسرة نبغ فيها عدد من الأطباء والعلماء وإن لم يبلغوا شأوه فى العلم . وكان ابن رشد تلميذ ابن زهر وكتابه (الكليات فى الطب) من أكبر المراجع التى اعتمدت عليها جامعات أوربا لمدة طويلة . وأطباء العرب هم الذين وجهوا الأنظار إلى سر العدوى فى الأوبئة التى كانت تجتاح العالم فى تلك الأزمنة بين حين وآخر. وكان العالم الكبير (ابن الخطيب) الغرناطى من علماء القرن الرابع عشر صاحب الفضل فى ذلك وابن الخطيب هو الذى كُتِبَ فى تاريخ حياته الكتاب الكبير الجامع للتاريخ والأدب وهو (نفح الطيب) . وكان يعاصر ابن الخطيب عالم آخر وهو (ابن خاتمة) وكان له فضل مثل فضل صاحبه فى لفت الأنظار إلى سر العدوى فى الطاعون الذى اجتاح أوربا فى عصره .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن الطب إلا أن نشير إلى أن الأمة العربية عرفت المستشفيات العامة لأول مرة فى التاريخ ، فقد أنشئت مستشفيات عدة فى العواصم الكبرى فأنشئ أولها فى بغداد فى القرن التاسع فى مدة هارون الرشيد، ثم أنشئت بعد ذلك مستشفيات أخرى كان منها مستشفى ابن طولون بمصر، والمستشفى الذى بناه صلاح الدين الأيوبى ومستشفى قلاوون بالقاهرة ومستشفى دمشق بالشام الذى أنشأه نور الدين محمود ، وكانت هذه المستشفيات بمثابة مدارس للطب إلى جانب قيامها بالعلاج .

وقد بدأ لويس التاسع فى إنشاء أول مستشفى بأوربا عقب عودته

من حربه الصليبية فى القرن الثالث عشر . وكان أطباء فرنسا يحاولون أن يقوموا بالخدمة فى هذا المستشفى بمساعدة مؤلفات العرب فى الطب التى بدأت تترجم إلى اللاتينية .

ومما يتصل بالطب دراسة العقاقير الطبية ودراسة الكيمياء، وإذا كانت دراسة الكيمياء قد خالطها كثير من الانحراف بالرغبة فى الكشف عن إكسير الحياة وعن سر تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، فإن جهود العلماء فيها أنتجت نتائج هامة. فالعالم الكيميائى جابر بن حيان الذى كان يعيش فى القرن الثامن للميلاد هو الثانى من كبار الباحثين فى الكيمياء بعد الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية . وإليه يرجع الفضل فى تحضير بعض المواد مثل الزرنيخ وفى استخدام ثانى أكسيد المنجنيز فى صناعة الزجاج . وهو الذى ابتكر الإنبيق للتصعيد وعرف القلويات والكحُل (الكحول) .

وقد اشتغل الطبيب الرازى بالكيمياء كعلم طبيعى لا كوسيلة للبحث عن الذهب . غير أن اهتمام العرب بالبحث فى طبائع الكون كان أعظم من اهتمامهم بتركيب الأشياء أو استخراج المعادن ، ولعل ذلك أثر من آثار نظرهم إلى البحث العلمى على أنه وسيلة لمعرفة الحقائق التى يحض الإسلام على التأمل فيها .

ومن أكبر علمائهم فى الطبيعة الحسن بن الهيثم البصرى الذى كان له الفضل فى القرن العاشر الميلادى فى الكشف عن أسرار أشعة الضوء

لأول مرة، وأن رؤية الأشياء تكون نتيجة لوقوع الأشعة عليها وانعكاسها إلى العين . وقد ألف الأستاذ الجليل محمود نظيف رسالة كبيرة بين فيها الإضافات العلمية التى أضافها ابن الهيثم إلى التراث العلمى ومنها يتبين أن ذلك العالم كان رائد البحث الطبيعى الحديث فى كثير من المسائل العلمية الكبرى . وكان لأتباع ابن الهيثم من العلماء أثر كبير فى تقدم البحث العلمى فى هذا الميدان حتى أنهم بدأوا بعض التجارب المتصلة بسير شعاع الضوء إذا أنفذ فى غرفة مظلمة .

ومن العلماء المتأخرين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد طائفة عكفوا على تأليف كتب ضخمة تشبه دوائر المعارف جمعوا فيها طوائف من المعارف العلمية التى كانت بغير شك هى الحصاد الأخير من ثمار النشاط العلمى العظيم الذى توالت عليه أجيال عدة من العلماء العرب وحسبنا أن نذكر من هؤلاء العلماء اثنين على سبيل المثال أحدهما ابن العوام الإشبيلى الأندلسى الذى كان لكتابه (كتاب الفلاحة) أكبر أثر فى دراسة علوم الزراعة بأوربا ، والثانى هو ابن البيطار نابغة علم النبات الذى ولد بالأندلس وتوفى بدمشق وكان بذلك أحد الأمثلة الدالة على أن أبناء الأمة العربية كانوا لا يعرفون حدودا تفصل بين الأوطان العربية . واسم ابن البيطار أبو محمد عبد الله بن صالح . وجاء من بعده فى القرن السادس عشر (داود الأنطاكى) مؤلف الكتاب الكبير الذى يحتوى على خلاصة البحوث العربية فى العقاقير الطبية .

وإلى جانب هذه الإضافات العظيمة فى ميدان الفلسفة والعلوم أقام العرب صرحاً شامخاً من البناء الحضارى فى سائر ميادين النشاط الفكرى والفنى ولسنا نستطيع الإحاطة فى مثل هذا الفصل بإلمامة كافية بأثرهم الضخم فى ميادين الفنون والآداب ، وحسبنا للدلالة على عظمة هذا الصرح ما يشهد به الباحثون المحدثون فى مختلف الأمم عن فضل العرب على الحضارة الإنسانية عامة والحضارة الحديثة خاصة . فقد كانت شعوب أوربا فى إبان نهضة العرب وتوفرهم على بناء حضارتهم ما تزال فى عهد بداوتها الأولى وكانت تنظر إلى الأمة العربية على أنها منبع العلوم والفنون وتشعر بضآلة شأنها بالقياس إلى ما بلغه العرب من التقدم . فكانت مظاهر الحضارة العربية ومقوماتها تراثا متاحا لهذه الشعوب فاستطاعت أن تستمد منه ما تدخره لنفسها حتى تستعد هى الأخرى للقيام بدورها فى البناء الحضارى على سنة نشوء الأمم وتطورها .

ونورد هنا طائفة من شهادات هؤلاء الباحثين المحدثين كما سجلها كتاب «تراث الإسلام» . وهذا ما يقوله الأستاذ (ألفرد جيوم فى الفصل الذى كتبه من ذلك الكتاب) .

« كان روح البحث الدينى والفلسفى شائعا فى ميادين العلوم إبان العصر الذى ساد فيه العرب خلال أربعة قرون أو تزيد . وما فتئ اللون الذى يصطبغ به العقل الشرقى والسحر الذى يمتاز به باقيين فى كتابات ذلك العصر . . . » وقال بعد ذلك: « وقد قضى جهل أسلافنا من أهل

الغرب بلغة العرب ألا يتذوقوا إلا القليل من هذه الحياة الخصبة المنوعة . . . ورغم هذا بقيت الحالة العقلية فى الشرق والغرب إبان القرن الثالث عشر على اتصال لم يكن له نظير منذ ذلك العهد . . .

وسوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأنا وأعظم خطراً مما عرفناه حتى الآن[1] » .

ويقول الأستاذ كريستى فى الفصل الذى كتبه عن الفنون من الكتاب عينه :

« وقد عاصر الفاطميين وعرف ثروتهم الذائعة الصيت رحالة فارسى مشهور وهو (ناصرى خسرو) الذى طاف بقاعات القصر فى عام ١٠٤٧ للميلاد . . ويقول الرحالة فى وصف ما شاهده أنه اخترق إحدى عشرة غرفة متتابعة فى صف واحد كل منها تفوق الأخرى فى الروعة والأبهة وكان العرش تحفة من الذهب غاية فى العظمة ، وإبداع الصنع وعليه زخارف تمثل مناظر صيد بينها كتابات بديعة وكان العرش قائماً على ثلاث درجات من الفضة ويحيط به جلفق ذهبى يفوق جماله كل وصف » . وقال الأستاذ كريستى فى موضع آخر بعد أن أفاض

---

(١) ترجمة هذه المقتطفات منقولة عن ترجمة كتاب تراث الإسلام للجنة الجامعيين لنشر العلم .

فى ذكر تفنن العرب فى شتى ميادين الإبداع : « وقد بدأ الاتصال بين المسلمين (العرب) والمسيحيين (الأوربيين) . قبل الحروب الصليبية بزمن طويل ، ففى أسبانيا كان الإسلام قد توطدت أركانه وثبتت دعائمه على حدود أوربا الغربية نفسها ، وكان له منذ البداية أثر عميق فى الثقافة المسيحية . ثم قامت المسيحية والإسلام جنباً إلى جنب فى صقلية على حين كان الجزء الشمالى من أفريقيا تحت حكم المسلمين الذين كانت سفنهم فى ذلك الوقت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط من أوله إلى آخره .

« وبدأ بالحروب الصليبية عهد جديد ، فتلك العظمة والأبهة التى كانت تنسب إلى العرب ، وتبدو كأنها ضرب من الخرافات أصبحت منذ بدأت الحروب الصليبية حقيقة ملموسة يراها المسيحيون فى دهشة واستغراب . إذ أن الجيوش الصليبية التى كانت تُجمع من كل أنحاء أوربا اتصلت بغتة فى هذه الحروب اتصالا وثيقاً بالنظام الاجتماعى عند الشرقيين وهو نظام كان يفوق من كل النواحى حدود تجاربهم الضيقة . ولم يلبث أن ظهر هذا الاتصال فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولم يكن ظهوره فى الناحية الفنية أقل من النواحى الأخرى » .

وإنا لا نستطيع أن نستوعب كل ما يشهد به الباحثون المنصفون فى إثبات فضل العرب على المدنية الحديثة فى ميادين العلم ، فهم جميعاً يقررون أن إبداع العرب فى الفنون والعلوم بلغ مستوى عظيما من الإبداع . وما تزال

أسماء علمائهم وفنانيهم تتردد على ألسنة العالم إلى يومنا هذا ، وما هذه الأسماء التى سبق لنا ذكرها إلا نماذج لألوف من الباحثين والعلماء الذين استندت حضارة العرب إلى علمهم وفنهم فى بناء صرحها . وقد امتاز علماء العرب باتساع آفاق بحثهم اتساعاً لا حد له وكان تحررهم الفكرى من أعظم ما وهبوه للإنسانية . فلما تلقى أهل أوربا مبادئ التفكير العلمى عنهم كان الفرق عظيما بين ما كان يباح لعلماء العرب فى حضارتهم ، وما كان يُقيَّد به الفكر فى بلاد أوربا قبل العصر الحديث ؛ إذ كان تلاميذ العلماء العرب وأتباع مدارسهم فى البحث من الأوربيين يتعرضون لأقسى صنوف الاضطهاد فى بلادهم من أجل تحررهم فى التفكير والبحث .

ويشهد المنصفون من مؤرخى أوربا أن نهضة أوربا الحديثة ما هى سوى استمرار للدفعة القوية التى أحدثتها الحضارة العربية . والمتتبع لنشأة الجامعات الأوربية يستطيع أن يرى فى وضوح أنها كانت وليدة مباشرة للجامعات العربية . فقد عرف العرب الجامعات ومعاهد الدراسات العليا منذ عهد بعيد ، وقد ذكرنا منها على سبيل التمثيل الجامعة الأزهرية فى القرن العاشر والمدرسة النظامية ببغداد فى القرن الحادى عشر . ولم يكن المغرب العربى بأقل احتفالا بإنشاء الجامعات . فهناك جامعة الزيتونة فى تونس ، وجامعة القرويين فى فاس ، عدا ما كان بالأندلس من جامعات كبرى فى قرطبة وغيرها من العواصم الأندلسية .

وليس من شك فى أن أقدم جامعات أوربا أحدث عهداً من هذه

الجامعات العربية ، كما أن كل منصف من المؤرخين يصرح بأن جامعات أوربا لم تكن فى أول الأمر سوى نسخ منقولة من الجامعات العربية . ولم يكن من المصادفات أن أقدم الجامعات الأوربية كانت تعتمد فى دراساتها على مؤلفات العلماء العرب ، وأن نظمها وطرق التدريس فيها وأجازات الأساتذة لطلاب العلم بل مواد الدراسة ذاتها كانت صوراً منقولة عن الجامعات العربية .

إذن فقد أقامت الأمة العربية صرح مدنية عظيمة كان لها الفضل فى إبداع إضافات لا حصر لها أغنت التراث الحضارى الإنسانى الذى وجدته قبلها ، كما كان لها الفضل — كسائر الحضارات العظمى — فى إيصال تيار الرقى الحضارى من العهود القديمة إلى العهود الجديدة بعد أن أمتعت حياتها الخاصة حيناً من الدهر بحضارتها العظمى ، ولم تبخل بأن تفيض بما لديها فى تواضع على الشعوب الأخرى التى كانت فقيرة إلى ما عندها .

ومما يجدر بنا ذكره هنا أن أول آ لة للطباعة اخترعها حنا جوتنبرج فى سنة ١٤٤٥ للميلاد وأول كتاب طبع فى البندقية سنة ١٤٧١ كان مترجماً إلى اللاتينية عن العربية وهو كتاب التصريف لأبى القاسم الزهراوى ثم طبع كتاب القانون لابن سينا سنة ١٤٧٦ ثم طبعت مؤلفات الرازى سنة ١٤٨١ وكليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ .

الدور الرابع من حياة الأمة العربية

١ — خمسة قرون من السلام

سبق أن ذكرنا فى نظرية المؤرخ توينبي أن الأمة حين تخرج من نضال عنيف وهى سليمة منتصرة تصبح أشد قوة وأوفر حيوية مما كانت . ويكون انتصارها فى الدفاع عن نفسها حافزاً جديداً لها يجعلها تسمو بحضارتها إلى آفاق أعلى ، وأنه ليس أدعى إلى الضعف والاضمحلال فى روح الأمم من إيثارها الدعة والخلود إلى الاطمئنان وطلبها العافية من مواجهة مشكلات الحياة . وقد خرجت الأمة العربية فى الشرق بعد الحروب الصليبية سليمة منتصرة وكان خروجها منتصرة من ذلك الصراع الرهيب جديراً بأن يزيد من حيويتها وحافزاً جديداً لتقدمها الحضارى وعلو شأنها . وهذا هو ما تنطق به صفحات التاريخ التى تدل على أن الدولة العربية صارت أعظم دول العالم قوة فى البر والبحر ،وازدهرت فيها التجارة ازدهاراً كبيراً فكانت سلع الشرق تأتى إلى عواصمها مثل دمشق وحلب والقاهرة واردة من الصين والهند وجزائر المحيط الهندى لتوزع على بلاد العالم التى كانت تتسابق إلى عقد المعاهدات التجارية مع الدولة العربية بعد أن عادت الوحدة إلى أكبر الأوطان العربية وأهمها . وكانت

موارد التجارة تغنى خزائن الدولة كما كانت تعود بالرخاء والغنى على طبقات الأمة جميعا .

واستمر البناء فى ميادين النشاط الحضارى كلها طوال مدة الدولة الأيوبية وصدر دولة سلاطين الترك التى جاءت بعدها .

فاستهل القرن الرابع عشر والأمة العربية أقوى أمم العالم المعروف وأكثرها نشاطاً ، وكان من المنتظر لها أن تستمر فى بناء حضارتها بقوة الدفعة الجديدة التى هزتها . ولو أنها فعلت ذلك الذى كان منتظراً لها لوصلت إلى آفاق أوسع مدى ومستوى أعلى شأناً مما بلغته فى القرون السابقة . ولكن ذلك المصير لم يقدر لها ، وكان السر فى هذا هو شعورها بالأمن والخلود إلى الدعة وإيثار البعد عن مشكلات السياسة والدفاع .

لقد كان الحكم منذ القرن التاسع الميلادى يعتمد على الجنود المرتزقة فى الهجوم والدفاع ، ولما هاجم الصليبيون الوطن العربى وهبت الأمة للدفاع عن نفسها لم يكن لها بد من الترحيب بقيادة الأبطال المخلصين المتحمسين من الأمراء والملوك المسلمين أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، وبمشاركة من عندهم من الجنود المرتزقة .

ومنذ عدت هؤلاء الأمراء زعماء لها وهبت لهم ثقتها ومنحتهم وفاءها ، وكانت تحرز الانتصار تلو الانتصار تحت رايتهم وبفضل قيادتهم

الباسلة الحكيمة . وكان الشعب العربي يحارب مع الجيوش المرتزقة جنباً لجنب يشاركها فى الجهاد ولا ينظر إلا إلى غاية واحدة وهى النجاة من الأخطار الشديدة التى تهدد حياته وكيانه وحرياته .

فلما انقشعت هذه الأخطار الشديدة واستشعرت الأمة الاطمئنان على حياتها عادت إلى أعمالها التى تعودتها ، وبقيت الجيوش القائمة على سابق عهدها . وكان مما حمل الأمة على إلقاء سلاحها والعودة إلى أسلوب حياتها السابق أنها شعرت بالثقة فى حكامها الذين تزعموا حركة جهادها فى أحلك الأوقات التى مرت بتاريخها ، فأسلمتهم قيادها بعد انقضاء أخطار الحروب ، وكان نشاط التجارة بعد عصر الاضطراب الدموى وازدهار الصناعة كما لم تزدهر من قبل وتدفق الخيرات على الوطن العربى من الشرق ومن الغرب ، كان هذا كله مما زاد الأمة إخلاداً إلى الأمن والسلام ، فانصرفت تجنى الثمار من تجارتها وصناعتها وزراعتها ، وتركت شئون الحرب فى أيدى قادتها .

غير أن الأمور تبدلت منذ القرن الرابع عشر وتحولت شئون الحكم إلى أيد غير أيدى القادة العظام من ملوك الأسرة الأيوبية والسلاطين الأتراك الأوائل ، الذين استولوا على الحكم بعد ملوك هذه الأسرة ، فاشتد التنافس بين أمراء الجيش الأتراك على السلطان وانقسموا فيما بينهم إلى أحزاب وأخذوا يدبرون المكايد لعزل السلطان القائم ليحلوا محله زعيم الحزب الذى يعدهم بالجزاء الأوفى على المساعدة . وبقيت الأمة منصرفة

إلى أعمالها لتجنى ثمار السلام الذى كان يرفرف عليها ، وزاد إهمالها لشئون الحكم فيها ومواجهة مشكلاتها .

وتبدلت الأحوال منذ أواسط القرن الرابع عشر تبدلا آخر عندما بدأت دولة السلاطين الترك بمصر والشام تفقد السبب الذى يسوغ بقاءها وهو الجهاد للدفاع عن الأمة أمام أعدائها . فقد بقيت الجيوش قائمة بل تزايد عددها وأخذ قادتها يتنازعون فيما بينهم بغير أن يكون هناك ما يدعو إلى وجود الجيوش المرتزقة الجرارة . وكان أمراؤها وقوادها ، بل كان أفرادها يعيشون عيشة بذخ وإسراف ولا يجدون ما يشغلهم من الهموم سوى المنافسات الضئيلة على الحكم وتدبير المكايد والمؤامرات فى سبيل الوصول إليه . فتزايدت أعباء الضرائب شيئاً بعد شىء كى يتمكن كل سلطان جديد من الوفاء بما وعد به أنصاره من الجزاء ونشطت سوق الرقيق لجمع الشبان من الأقاليم غير العربية ليباعوا إلى الأمراء ، حتى لقد كان الآباء فى بلاد الشركس والتركستان وغيرها يبيعون أبناءهم ليكونوا جنوداً للأمراء على أمل أن يتهيأ لهم المجد إذا سنحت لهم الفرص فى منازعات الأحزاب . ونشطت كذلك سوق الإماء من الجوارى الترك والجركس والصقالبة فكانت تعرض فيها الحسان ليصبحن نساء للأمراء والقواد . فانتهى الأمر إلى أن أصبح حكم السلاطين الأتراك وأمرائهم وجنودهم المماليك حملا شديد الوطأة يكلف الأمة عرقها وكدحها على حين كانت هذه الجيوش لا تقوم بعمل فى الدفاع ضد الأعداء .

وكانت هناك دولة تركية أخرى ناشئة في بلاد آسيا الصغرى عرفت فى التاريخ العربى باسم (دولة الروم) وهى التى نعرفها باسم الدولة العثمانية. وكان ابتداء أمرها كولاية صغيرة فى القرن الثالث عشر ، غير أنها استطاعت أن تمد سلطانها تدريجاً وأن تعبر بوغاز الدردنيل إلى شبه جزيرة البلقان وتنزع من إمبراطورية الروم الشرقية إقليما بعد إقليم حتى أصبحت دولة إسلامية قوية تنافس دولة السلاطين الأتراك فى مصر والشام .

وما زالت دولة الترك العثمانيين تنمو وتوسع حدودها من قبل إمبراطورية الروم الشرقية حتى استطاع أحد ملوكها وهو محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية فى أواسط القرن الخامس عشر (سنة ١٤٥٣ للميلاد) وقضى بذلك قضاء أخيراً على تلك الدولة الرومانية العتيقة التى كانت تناصب العرب العداء منذ القرن السابع للميلاد. فأصبح بذلك فى بلاد الشرق الإسلامى دولتان متنافستان إحداهما دولة العثمانيين الناشئة القوية وهى تسيطر على بلاد آسيا الصغرى والبلقان والأخرى دولة السلاطين الأتراك فى مصر والشام وهى التى انتهى أمرها إلى ما رأيناه من الفرقة واختلاف الأهواء والمنازعات .

وتبعاً للسنة التاريخية التى سبقت الإشارة إليها كان لا بد أن تنتهى الفوضى الشاملة بين الأحزاب المتناحرة إلى قيام دولة شاملة تستطيع أن تعيد الأمن إلى نصابه وأن تقضى على المنافسات والمنازعات وتقوم هى بالسيطرة الكاملة على الحكم .

وكان قيام هذه الدولة الشاملة مقدوراً للدولة التركية العثمانية كما هو منتظر، ففى مدة حكم السلطان سليم الأول زحفت الجيوش العثمانية على الشام وصدمت جيوش الدولة المنهارة، ولم تلبث أن قضت عليها . فمنذ سنة ١٥١٧ للميلاد بدأت الدولة العثمانية تسيطر على حكم الأمة العربية . وامتد سلطانها إلى بلاد العرب والعراق وشمال أفريقيا فلم يبق خارجاً عن سلطانها من الوطن العربى إلا بلاد المغرب الأقصى .

وبقيت الأمة العربية تحت ظل هذه الدولة الشاملة مستمرة على ما أخلدت إليه من الدعة وإيثار العافية ولم تشارك فى الحكم ولا فى الدفاع عن نفسها وأصبحت رعية منكمشة فى نفسها منصرفة إلى شئون معيشتها .

وبقيت الدولة العثمانية محتفظة بقوتها وسيطرتها نحو قرنين من الزمان، ثم بدأ حكمها يتزعزع فى أوربا على أثر مصادماتها المستمرة مع الشعوب التى تحكمها . فسارت على السنة التى تسير عليها الدول الشاملة دائماً فتعرضت إلى عوامل الصراع من جبهتين معاديتين إحداهما الشعوب المحكومة التى تسيطر عايها وثانيتهما جبهة الشعوب المجاورة التى تصادمها . وانتهى أمرها فى القرن الثامن عشر إلى أن عاد إليها الاضطراب وتفككت عراها واختل أمرها وآلت أحوال الأمة العربية معها إلى الفوضى والاضطراب والشقاء، كأن ذلك كله عقوبة طبيعية لخلود الأمة العربية إلى الدعة والأمن طوال القرون الخمسة التى مرت عليها فى سلام بين أواخر القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر .

أما فى بلاد المغرب العربى فإن الحوادث اتجهت إلى وجهة أخرى تختلف عما صار إليه الأمر فى بلاد المشرق العربى . فقد كانت جبهة الأندلس تشهد مأساة أمة لم يقدر لها البقاء . بدأ أمراء الأسبان يكرون عليها من أودية شمال شبه الجزيرة ، بعد أن تمزقت وحدتها وتقسمت إلى إمارات صغيرة منذ أوائل القرن الحادى عشر ،وكان كل من الأمراء يطمع فى المجد ويدعى لنفسه السيادة ، ولم يتردد بعضهم فى محالفة أمراء الإسبان ليكونوا لهم عوناً على الأمراء العرب الآخرين ، وكان الطابع الذى يميز هذه الإمارات جميعاً هو المغالاة فى الترف والانغماس فى كل ما توفره الحضارة المتقدمة من المباهج والزخارف .

ولم تكن حال المغرب العربى خيراً من حال الأندلس فى انقسامها والتنافس بين أمرائها منذ أواخر القرن العاشر للميلاد .

فكان لا بد للوطن العربى فى المغرب من تحول جديد يقضى على هذه الفوضى إذا قدر لهذه الأمة البقاء ، وهذا ما حدث فى بلاد المغرب إذ نشأت هناك حركة بعث جديدة على أيدى دولة المرابطين التى أنشأت مراكش واتخذتها عاصمة وأعادت الأمن والوحدة إلى بلاد المغرب ،ثم عبرت جيوشها إلى الأندلس فردت تيار الهجوم الإسبانى فى الوقت الذى كانت الجيوش الصليبية تغزو فيه بلاد المشرق العربى (أواخر القرن الحادى عشر) فكانت دولة المرابطين بالنسبة إلى المغرب دولة شاملة أعادت إليها الأمن وحفظت حياتها إلى حين . ولكن هذه الدولة الجديدة لم تلبث أن

تأثرت بعدوى الفرقة والانغماس فى ترف الحضارة وزخارفها فنشأت حركة بعث أخرى فى جنوب بلاد المغرب قصدت إلى جمع كلمة المسلمين وتطهير حكمهم من عوامل الفرقة والانغماس فى مباهج الحضارة وترفها . وكانت نتيجة هذا البعث الجديد إنشاء دولة شاملة ثانية وهى دولة الموحدين التى استطاعت أن تنتزع الحكم من دولة المرابطين وتحل محلها فى حكم بلاد المغرب والأندلس على السواء فى أواسط القرن الثانى عشر . وزاد سلطانها اتساعا نحو الشرق فشمل الجانب الأكبر من شمال أفريقيا ، حتى اتخذ ملكها عبد المؤمن لنفسه لقب أمير المؤمنين وكان فى الحقيقة جديراً بهذا اللقب بعد زوال الخلافة الأموية بالأندلس منذ انقرضت ذرية الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد .

واستمر حكم دولة الموحدين مزدهراً إلى أيام أمير المؤمنين يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن فى أواخر القرن الثانى عشر ، وكانت أيامه تزخر بطائفة من نوابغ العلماء العرب مثل ابن رشد وابن طفيل .

غير أن حكم هذه الدولة العظيمة الشاملة لم يبق طويلا بعد موت ملوكها الأوائل الكبار فتقلص حكمها عن الأندلس وعاد أمراؤها إلى الانقسام والتنافس وارتدت عليهم موجة الهجوم من أمراء الإسبان . فنشأت فى المغرب العربى دولة جديدة ثالثة وهى دولة بنى مرين التى كان المؤرخ العربى الكبير ابن خلدون من وزرائها ، وقد امتد حكمها مدة طويلة إلى أوائل القرن السادس عشر (١٥٢٤ للميلاد) وكان لها أثر كبير فى

بلاد المغرب العربى ولكنها لم تستطع أن تكون دولة شاملة وعجزت عن مد يد المساعدة إلى بقية الأندلس العربية ، كما لم تستطع أن تحتفظ بسلطان الموحدين السابق على شمال أفريقيا، فانفصلت تونس عنها وتولى حكمها أسرة بنى حفص التى حكمت بين ١٢٢٨ و ١٥٣٤ .

واستطاع الأمراء الإسبان أن يوالوا هجماتهم العنيفة على أمراء العرب فى الأندلس منذ أوائل القرن الثالث عشر حتى لم يبق مستقلا من الإمارات المتنافسة إلا غرناطة وما حولها فبقيت فى حياة مهددة لمدة قرنين ونصف قرن ثم لفظت آخر أنفاسها فى سنة ١٤٩٢ للميلاد عندما اجتمع على حربها الملك فردناند والملكة إيزابلا وهما حاكما أكبر الإمارات الإسبانية (أراجون وقشتالة) .

من هذا العرض الموجز يتبين أن الأمة العربية فى الشرق والأندلس وشمال أفريقيا على السواء تعرضت لمصائر متشابهة منذ أواخر القرن الثالث عشر فكانت تشعر بالسلام فى ظل الدول الشاملة ما دامت تلك الدول قوية وقادرة عن الدفاع عنها . وكما أن الشعوب العربية فى بلاد المشرق أخلدت إلى الدعة وآثرت العافية فى ظل الدول الكبرى التى تحميها فإن الشعوب فى الأندلس وشمال أفريقيا كذلك أخلدت إلى الدعة فى ظل الدول الشاملة التى أظلتها بحمايتها وكانت نتيجة إخلادها إلى الدعة فى الحالين واحدة فإنها فقدت الاهتمام بشئون الحكم والدفاع ، وانصرفت إلى ميادين العمل من أجل معيشتها . وقد عجلت نتيجة هذه الدعة إلى شعب الأندلس العربى فإنه

تعرض لهجمات أعدائه عندما تقلصت عنه حماية الدول الكبرى التى كانت تدافع عنه فلم يستطع الثبات أمام هجمات الأعداء وكان تفرق الأمراء العرب وتنافسهم مما ساعد على الإسراع بالنهاية المحتومة فقضى على الأندلس العربية ولم يبق منها إلا ذكر عاطر من آثارها العظمى فى العلوم والفنون وسائر النشاط الحضارى الذى كان لها الفضل فيه فى مدة حياتها . أما الأقاليم العربية فى شمال أفريقيا فقد كان حظها مثل حظ المشرق العربى منذ أظلتها الدول الشاملة بحمايتها و بقيت منذ أواخر القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر راكدة النشاط ، وانعزل أهلها عن الحكم وعن الدفاع عن أرضهم وقصروا اهتمامهم على شئون معيشتهم حتى أصبحت بعد هذا الأمد الطويل من الإخلاد إلى الأمن لا تزيد على حطام من الأمة العربية التى بنت مجدها خلال القرون الثلاثة الأولى من حياتها .

غير أن شعب المغرب الأقصى كتب لنفسه سيرة أخرى ، فإن الدول التى قامت فيه كانت عربية ، وكان شعبها هو الذى يدافع عن نفسه بنفسه بل كانت الدول الشاملة التى تعاقبت على الحكم فيه كانت تشمل بحمايتها الأقاليم المجاورة لها كما فعل المرابطون والموحدون حين كونوا دولتيهم الشاملتين، وقامتا بحماية الأندلس وشمال أفريقيا لمدة قرنين، وكما فعلت دولة بنى مرين التى أظلت بلاد المغرب وجانباً كبيراً من شمال أفريقيا لمدة قرنين ونصف . فبلاد المغرب العربى تختلف عن سائر الأوطان العربية فى أنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالها وأن تواجه الأخطار التى

هددتها بنفسها معتمدة على أبناء شعبها الذين لم يتخلوا عن حكم أنفسهم ولا عن الدفاع عن وطنهم، واستطاعت أن تبقى أعلامها مرفوعة إلى أوائل القرن العشرين لأنها لم تخلد إلى الدعة ولم تدع الدفاع عنها للجنود المرتزقة الأجانب أو تعتمد على حماية الدول الشاملة لها كما فى سائر البلاد العربية .

أما شعوب أوربا فى مدة هذه القرون الخمسة التى أخلد فيها أكثر الشعوب العربية إلى الدعة فإنها كانت تبنى مدنيتها الحديثة بعد أن خرجت من عهد ركودها فى القرون الوسطى ، فقد هزتها الحروب الصليبية هزة عنيفة وزاد اتصالها بالعرب فى مدة القرنين اللذين توالت فيهما موجات الحروب الصليبية على بلاد الشرق، واطلع أبناؤها على مظاهر الحضارة العربية التى لم يكن لهم عهد بمثلها، واستطاع الأوربيون الذين أقاموا فى فلسطين والشام نحو قرنين من الزمان أن يتعلموا اللغة العربية ويطلعوا على ما فيها من كنوز الآداب والعلوم ؛ فكانوا بمثابة الروّاد فى حركة بعث جديد للفكر الأوربى وبدأت بفضلهم أول أشعة النور تنفذ إلى أقطار أوربا . وإلى جانب هذا العامل القوى فى إيقاظ شعوب أوربا كان كثير من أبناء الشعوب الأوربية يتصلون بالعرب فى إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا حيث ازدهرت العلوم والآداب والفنون العربية فصاروا تلاميذ للحضارة العربية وساعدوا على بعث شعاع قوى آخر من النور فى الظلام الذى كان مخيما على شعوب أوربا . وبدأت الحركة تدب فى تلك الشعوب منذ أواخر القرن الثالث عشر فى الوقت الذى بدأت فيه الأمة العربية تشعر

بالأمن وتخلد إلى الدعة كما بينا من قبل ، فكأن الأمة العربية وشعوب أوربا كانا فى كفتى ميزان ترجح إحداهما حين تخف الأخرى .

وتزايدت حركة شعوب أوربا على مر السنين وبدأت تنهض وتستفيد بما تهيأ لها الوصول إليه من آثار الحضارة العربية عن طريق الترجمة إلى اللغة اللاتينية التى كانت عند ذلك لغة مشتركة بين طلاب العلم فى شعوب أوربا الغربية جميعاً . ومنذ ذلك الحين بدأت هذه الشعوب تضع الأسس الأولى لحضارتها الحديثة التى أصبحت اليوم هى التى تسود العالم . وكان من أوجه نشاطها العدة انطلاقها فى البحث عن مجاهيل الأرض ، وأول من بدأ ذلك الانطلاق هما شعبا البرتغال وإسبانيا وهما اللذان زهاهما الانتصار على العرب والقضاء على بقايا دولة الأندلس . فاتجهت أساطيل البرتغال ترتاد سواحل أفريقيا الغربية واتجهت سفن إسبانيا إلى الغرب بغية الوصول إلى الهند باختراق بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) .

ولا حاجة بنا إلى تتبع تاريخ شعوب أوربا وبيان اتجاهاتها فى نهضاتها الجديدة وحسبنا أن نشير هنا إلى حقيقة هامة بالنسبة إلى تاريخ الأمة العربية وذلك أن انطلاق شعوب أوربا وجهها بعيدا عن الوطن العربى فيما عدا محاولات قليلة محدودة قام بها بعض دول أوربا الغربية لغزو شواطئ المغرب العربى وشواطئ شمال أفريقيا العربى .

من أجل هذا لم تتعرض البلاد العربية فى مجموعها لغزو أجنبى خطير من قبل دول أوربا طوال القرون الخمسة التى أسلفنا الحديث عنها وشغلت

دول أوربا في أثناء هذه القرون بتوسيع سلطانها في أركان الأرض البعيدة ، فمنذ أول القرن السادس عشر بدأت حركة الاستعمار التي كانت أخطر حركة في حياة الإنسانية منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، وكان لها أكبر الآثار في حياتنا الحاضرة ، فإن المشكلات العظمى التي تهدد العالم اليوم ليست سوى الحصاد الوبيل الذي يجنيه العالم اليوم من بذور السيطرة التي اندفعت إليها دول أوربا في بدء نهضتها الحديثة .

الدور الخامس من أدوار حياة الأمة العربية

نكبة الاستعمار

تمكنت دول أوربا الغربية من الانسياح فى الأرض منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر حين انطلقت تبحث عن مجاهيل الأرض بغية الوصول إلى الهند والجزائر الشرقية . وكان غرضها المباشر تحويل طريق التجارة مع بلاد الشرق عن المرور بأرض الدولة العربية فى مصر والشام . واستطاعت البرتغال المرور حول أفريقيا حتى وصلت إلى سواحل الهند فى أواخر القرن الخامس عشر ، كما استطاعت أسبانيا بفضل خريستوف كولمبس أن تقطع المحيط الأطلنطى غرباً حتى وصلت إلى أرض جديدة ظنت فى أول الأمر أنها أرض الهند ثم تبين لها فيما بعد أنها قارة عظمى وهى التى عرفت فيما بعد باسم أمريكا .

وانفردت البرتغال بسواحل أفريقيا والهند فأخذت تبسط عليها سلطانها ثم توغلت فى أرضها وأخذت تخضع شعوبها لسيطرتها وتستغل خيراتها لنفسها كما انفردت أسبانيا بأرض القارة الجديدة تخضع شعوبها وتستغل خيراتها .

وكانت كل منهما تلجأ فى إخضاع تلك الشعوب إلى وسائل القوة أحياناً باستخدام أسلحتها الجديدة التى لا عهد لتلك الشعوب بها ، كما

كانت تلجأ إلى وسائل الخداع والتفريق بين سكان البلاد . وبدأت الدول الغربية الأوربية الأخرى فى منافسة البرتغال وأسبانيا على اقتسام غنائم هذه الأقاليم الفسيحة التى كانت الأساطير الشائعة عند ذلك تبالغ فى وصف كنوزها وثرواتها الطبيعية وأعاجيبها ، وثارت بينها حروب دموية أدت إلى اشتراك عدد من تلك الدول فى السيطرة على بلاد أفريقيا وآسيا ، وكانت نتيجة تلك الحروب تقسيم جانب من هذه الأقاليم بين عدة دول أوربية أهمها هولندة وفرنسا وإنجلترا ، فأصبحت هذه الدول الثلاث مضافة إلى البرتغال وأسبانيا تسيطر فيما بينها على مساحات شاسعة من الأرض وعدد لا يكاد يقع تحت حصر من شعوب ، بعضها بدائى فى أفريقيا والأقاليم الجديدة التى استكشفت حديثاً وهى أمريكا وأستراليا والبعض الآخر من الشعوب ذوات المدنية القديمة كالهند وجزائر الهند الشرقية والصين.

ومن ذلك الحين نشأ فى العالم نظام جديد سمى بنظام (الحلول) لأن الدول المسيطرة كانت تبعث من أبناء شعوبها مجموعات تقيم فى الأقاليم التى ملكتها كى يحلوا فيها لاستغلال خيراتها وذلك النظام هو الذى أطلق عليه فى اللغة العربية اسم نظام الاستعمار .

وهذه التسمية العربية لا تؤدى المعنى الحقيقى لنظام (الحلول) الأوربى فالاستعمار يحمل معنى التعمير وهو أبعد شىء عن ذلك المعنى ، ولهذا فنحن نطلق عليه لفظاً آخر هو أقرب إلى معناه الحقيقى وهو « نظام الاستغلال » .

وقد أدى هذا النظام إلى تغيير جوهرى فى توزيع سكان العالم، فإن شعوب أوربا التى حلت فى بعض الأقاليم قضت قضاء تاماً أو يكاد يكون تاماً على الشعوب الأصلية التى كانت تقيم فيها، وأصبح جمهور أهلها من نسل أبناء الشعوب المستغلة . ومن أمثلة ذلك أرض أستراليا ونيوزيلندة وقارتى أمريكا (الشمالية والجنوبية) . ولسنا نجد فى تاريخ العالم مثالا لهذا النظام الاستغلالى فهو أقسى وأشنع من نظام السيطرة الذى سبقت إليه دولتا الفرس والروم وقد سبق أن وصفنا قسوة ذلك النظام، كما أنه يخالف كل المخالفة لنظام الإمبراطوريات القديمة كإمبراطوريات الإسكندر المقدونى ومصر القديمة وبابل وآشور والصين والهند وغيرها ، فإن تلك الإمبراطوريات الأولى كانت تضم الشعوب إلى حكمها وتدمجهم فى نفسها وتعاملهم كما تعامل شعوبها . وكانت الشعوب المقهورة تحت نظام الاستغلال تزيد فى العدد أضعافاً على عدد السكان فى الدول التى تستغلها، فكانت هولنده مثلا تسيطر على عشرات الملايين فى جزائر الهند الشرقية (إندونيسيا الحالية) مع أن سكان هولندة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة من الملايين، ولهذا كانت الدول المستغلة تتحاشى بقدر استطاعتها أن تتفتح أعين أبناء الشعوب المقهورة فكانت تحجب أشعة العلم أن تنفذ إليهم، وكانت تلجأ إلى تقسيم أبنائها إلى أحزاب متنافرة وتقرب منهم من تطمئن إلى ولائه لها رعاية لمصلحته الخاصة ، وتلقى إليهم بقطعة من الغنائم التى تستولى عليها من عرق تلك الشعوب ودمائها. فكان هؤلاء

أشد ويلا على شعوبهم من أبناء الدول المستغلة نفسها .

ولا نستطيع فى هذه الصفحات القليلة أن نفصل فى وصف الويلات التى أنزلها نظام الاستغلال بشعوب الأرض، فكان أبناء أفريقيا وبناتها يصادون كما تصاد الوحوش ويعرضون فى أسواق الرقيق كما تعرض السلع كى يعملوا وهم أرقاء فى مزارع السادة المستغلين فى الأقاليم التى يسيطرون عليها، وما زال أبناء هؤلاء الأرقاء يقاسون الأهوال فى بعض بلاد أمريكا على رغم نيلهم الحرية فى العصور الحديثة .

وهكذا أخذت دول أوربا تبنى ثروتها ومجدها وتنمى حضارتها بما سلبته من مستغلاتها .

غير أن هذا النظام وإن عاد بالأرباح الوفيرة على الدول المستغلة ، ومكنها من زيادة ثرواتها زيادة كبيرة ومن رفع مستوى معيشة أهلها، وبناء صناعاتها وفتح أسواق البلاد المقهورة لتلك المصنوعات ، كما مكنها من الحصول على أرباح طائلة من تجارتها وصناعتها، لم يدخل الطمأنينة إلى قلوبها بل عاد عليها من ناحية أخرى بنتائج وخيمة. فإن التنافس الشديد الذى اشتعل بينها أدى بها إلى مصادمات عنيفة على مر القرون فتصادمت معاً فى حروب دموية لا محل هنا لذكرها ، ولكن الذى يهمنا من هذه المنافسات والمصادمات أنها أدت بهذه الدول المستغلة بعد مرور ثلاثة قرون من بدء سيطرتها على شعوب أفريقيا وآسيا أن تعود فتتنافس فى أطماعها للسيطرة على الوطن العربى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل

القرن التاسع عشر ، فإنها فطنت إلى أن الوطن العربى يحتل موقعاً جغرافياً ممتازاً يتوسط بلاد العالم بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فمن يسيطر عليه يضمن لنفسه الغلبة على منافسيه . وبدأت دول أوربا توجه أنظارها نحو هذا الوطن منذ القرن الثامن عشر فبعثت إليه عيونها تتجسس على أحواله لأنها كانت تقدم رجلا وتؤخر أخرى فى الإقدام على غرة إذ كانت لم تنس بعد تجاربها الماضية فى حروبها الصليبية مع العرب .

وكان هيكل الدولة العثمانية المسيطرة على العرب والمفروض عليها حمايتهم ما يزال قائماً يخيل إلى من يراه من بعيد أنه هيكل ضخم مخيف ، وما كانت دول أوربا تستطيع الإقدام على مهاجمة الوطن العربى المحتمى بهذا الهيكل الضخم إلا بعد أن تتحقق من مدى القوة الكامنة فيه . واستمر جواسيسها يستطلعون ما فى داخل هـــذا الوطن من معدات الدفاع ، وما تزال تقاريرهم أو بعضها محفوظة فى كتب مطبوعة يخلع عليها اسم برىء وهو « الرحلات » وهو اسم لا يدل على ما تنطوى عليه من التجسس للأعداء . ونستطيع أن نرى أمثلة من هذه التقارير فى دار الكتب المصرية تحت أسماء من سموا أنفسهم رحالة مثل (ڤلنى) و (سڤارى) و (سونينى) وعشرات غيرهم من جواسيس الاستطلاع .

ولما انتهى هؤلاء الجواسيس فى تقاريرهم إلى أن هيكل الدولة العثمانية ما هو سوى صورة جوفاء قد نُخرت من قلبها ، وأن الأمة العربية التى تستظل بذلك الهيكل قد بلغت من العزلة عن الحكم والشئون العامة ما لا يدع

لها طاقة على مواجهة الأعداء إذا هبطوا على وطنها ، بدأت الدول الأوربية تضع خططها للهجوم، وكانت إنجلترة وفرنسا عند ذلك أكبر الدول الاستغلالية المتنافسة. وقد برهنت الحوادث على أن تقارير هؤلاء الجواسيس كانت صادقة من حيث عجز الدولة العثمانية عن صد الأعداء ، ولكنها قد برهنت أيضاً على كذب ظنونهم من ناحية قدرة الأمة العربية على المقاومة كما سيأتى ذكره ، فإن سر الحياة الكامن فى هذه الأمة كان أخفى من أن يظهر لهم وهم أجانب عن الروح العربى الصميم .

وبدأت فرنسا تجربتها فى مصر والشام على يد نابليون بونابرت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ثم أعقب هذه التجربة الأولى تجارب أخرى قام بها ملوك فرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر فى تونس والجزائر . وجاءت إنجلترة لغزو مصر مرة بعد مرة خلال القرن التاسع عشر — مرة فى أوائله ومرة أخرى فى أواخره ، ثم حاولت دول أخرى أن تقتطع لنفسها نصيباً من الغنائم فهبت إيطاليا فى أوائل القرن العشرين وهبطت على ليبيا . وكان من أعجب الظواهر وأبشعها أن دول أوربا المتنافسة على استغلال الشعوب كانت تعقد فيما بينها اتفاقات تتعهد فيها (بشرفها) أن تقتسم الوطن العربى وأن تحترم كل منها الأخرى فيما تقتطعه من أقطار هذا الوطن . وهكذا ظهرت العلاقات الدولية الأوربية فى مظهر خال من كل مبادئ الأخلاق والإنسانية .

وكانت هذه الدول كلما هاجمت قطعة من الوطن العربى تصدع

هيكل الحكم العثمانى فيها فجأة وترك أبناء الأمة العربية وجهاً لوجه أمام القوى الجبارة التى تسوقها إليهم دول الاستغلال ، فهكذا كانت الحال عندما غزا بونابرت مصر والشام ، وهكذا كانت عندما غزت فرنسا شمال أفريقيا أو عندما غزت إيطاليا ليبيا وإنجلترا مصر .

وهكذا استطاعت دول الاستغلال بصدماتها المتوالية على الوطن العربى أن تسيطر عليه بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ هذه الأمة ، فقد كانت دورة التاريخ قد بلغت مداها وكان لابد لها أن تنتهى إلى الدور الخامس الذى تتمزق فيه الأمة بين أعدائها ويصبح مصيرها معلقاً على مقدار ما فيها من الحيوية الكامنة ، فإما أن تفنى ويصير ماضيها العظيم صفحة مطوية من صفحات التاريخ ، وإما أن تنهض من رقدتها الطويلة مترنحة وتستأنف الجهاد مرة أخرى كى تبدأ دورة جديدة من دورات الحياة .

وقد دلت الحوادث على أن الصدمات الشديدة التى أصابت هذه الأمة فى ذلك الموقف الرهيب كانت نعمة خفية عليها برغم ما كبدتها من الخسائر وما أصابها فيها من الجراح العميقة المؤلمة . لقد وجدت الأمة العربية أنه لا مفر لها من الدخول فى معركة طويلة لاستعادة حريتها . وكانت تشعر فى أعماقها أن هذه الحرية أنفس من الدماء التى تراق فى سبيل استعادتها . وتردد ميزان القضاء بين حياة الأمة وموتها زمناً طويلا ولكنها كانت تنطوى على حيوية تكمن فى أعماقها وعلى ثقة بنفسها وتمسك

بكرامتها ، وعلى عقيدة راسخة فى رسالتها الأصيلة التى جعلتها تؤمن إيماناً لا يتزعزع فى أن الحياة لا تستحق أن تسمى حياة إذا هى خلت من الحرية . فكانت هذه القوى الهائلة التى تكمن فى طبيعة الأمة العربية أقوى من قوة الصدمات الشديدة التى أصابتها .

فلنلق نظرة على هذا الجهاد المرير فى سبيل الحياة كى نطلع على لمحة من صراع أمة نبيلة لم تنس أنها أمة نبيلة جديرة بالحياة .

فجر الحياة الجديدة للأُمة العربية

١ – يقظة مصر

الحملة الفرنسية وما بعدها

لم يعلم (بونابرت) وهو يواجه جيوش (مراد بك) ويخاطب جنوده ليثير كبرياءهم بأنهم سينتصرون فى الموقعة المقبلة على مرأى من أربعين قرناً تطل عليه من قمم الأهرام العتيقة ، أن تلك القرون الأربعين تخفى ابتسامة ساخرة من غرور ذلك القائد الكبير ، الذى لم يعلم عند ذلك أنه سيصبح سجيناً بعد خمسة عشر عاماً فى جزيرة (سنت هلينا) المنعزلة وسط المحيط الأطلنطى ، وأن الانتصار الذى أحرزه على فرسان الأمير المملوكى مراد بك كان فى الحقيقة طليعة النهضة للأمة التى رآها ضعيفة لا حول لها ولا قوة أمامه . لم يخطر لنابليون أن لهذه الأمة شأناً فى الصراع بينه وبين الحكام المزيفين الذين هربوا أمامه فى موقعة الأهرام – أو موقعة إمبابة، ولكن الحقيقة التى كانت القرون الأربعين تعرفها بطول خبرتها بأحوال البشر تجعلنا نتصورها تعجب من غرور القائد المنتصر الذى حسبها تنظر بالإعجاب إلى انتصاره الباهر . فلنا نحن أن نتمثل هذه القرون وهى تناديه بصوتها الصامت : « إن الأمة العربية لن تموت مهما

بلغت من القوة أيها الجبار الصغير». وهرب مراد من المعركة وتشتت جيشه وذهب أمراؤه يبحثون عن ذخائرهم التى جمعوها من عرق الأمة ودمائها ليهربوا ناجين بها .

وكان شريكه فى الحكم إبراهيم بك مرابطاً على ضفة النيل الشرقية يرقب المعركة من بعيد بجيش آخر من مماليكه ، وكان واجبه يقضى عليه أن يبادر إلى استئناف المعركة فى شرق النيل بعد أن هزم شريكه فى غربه ، ولكنه ما كاد يرى هزيمة صاحبه حتى بادر بالفرار ،ووقفت جموع الشعب فى القاهرة مذهولة من المنظر الرهيب وعمها بعد ذهولها ما يشبه اليأس والاستسلام . كانت لا تستطيع أن تهرب من وطنها ، وإلى أين تهرب ؟ وهى لا تقوى على الوقوف فى وجه الجيش القاهر الذى شتت جموع الطاغية المتكبر (مراد) . فلم يبق لها إلا أن تحزن وتنتظر وهى تتساءل عن مصيرها .

وحاول (بونابرت) أن يستميل ذلك الشعب المهزوم لأنه كان يعلم أنه هو الحقيقة الباقية وأنه إذا هب فإنه سيعيد سيرة النضال القديم الذى أنسته إياه القرون الخمسة الماضية حين أخلد إلى حماية حكامه وانخدع عن نفسه واطمأن إلى أمن مزيف وبيل العواقب . ولكن الشعب أبى أن ينخدع باستمالة ذلك القائد المنتصر ، ولم يلبث بعد الذهول والدهشة من الصدمة الأولى أن أفاق إلى موقفه وبدأ يتحرك للنهوض .

ومضى نابوليون فى حربه منتصراً مزهواً بقوته وبعث بكبار قواده إلى

أطراف مصر العليا ليبسط سلطانه عليها وإلى حدود مصر الشرقية ليتتبع جنود إبراهيم وعسكر الدولة العثمانية وهى تفر أمامه فى غير خجل ، ثم ذهب بنفسه ليفتح بلاد الشام كى يطمئن إلى نتائج انتصاره بمصر ويجعل من الشام معقلا أمامياً يحمى دولته التى كان يطمع فى إقامتها فى الشرق .

ونهض الشعب العربى فى الشام يدافع عن نفسه فى بسالة عند (عكا) وأدرك القائد الفرنسى المظفر لأول مرة فى حياته أنه عاجز أمام قوة جبارة . ولا نستطيع أن نغفل فى هذا المقام فضل أحد الأمراء وهو أحمد الجزار الذى ميز نفسه عن سائر أقرانه واندمج مع رعيته فى الدفاع المجيد عن عكا .

وعاد بونابرت إلى مصر كسيراً مخذولا وهو يشعر بأن حلمه الكبير قد تبدد مثل خيال ، وأن الدولة التى كان يحلم بإقامتها فى الشرق كانت سراباً فى الصحراء ، ولم يلبث فى مصر إلا قليلا ثم تسلل عائداً إلى فرنسا تاركاً وراءه جيشاً حاقداً يفرغ حقده فى فكاهات يتندر بها ويلقب القائد الذى تخلى عنه وهرب منه بلقب محرف عن اسمه وهو (بونا تراب) ومعناه بلغتهم الفرنسية (الفخ الجميل) .

وتحرك الشعب ناهضاً ليبدأ جهاده ، وكان جهاداً نبيلا زاده روعة أنه كان جهاد شعب أعزل يتصدى لجيوش مدربة تملك من العدة ما لا عهد له به ، وتسير على نظام حربى لم تر مثله من قبل . غير أن الجموع العزلاء المائجة التى لا علم لها بفنون الحرب كانت تندفع بقوة

نابعة من السر الخفى الكامن فى أعماقها . فلم ترهبها نيران المدافع التى كان العدو يصبها على أحياء القاهرة ، ولم تخضعها فى أعماق الريف والصعيد طوابير الجنود الزاحفة عليها تحت علمها ذى الألوان الثلاثة . وبقيت جموع الشعب فى ثورة بعد ثورة ، وتجردت للجهاد فى الريف عصابة بعد عصابة . وسفكت دماء كثيرة من أبناء الشعب الأعزل ولكن تلك الدماء كانت تزيد الثورات اندلاعاً . وبالغ جنود فرنسا فى اندفاعهم الأخرق فدخلوا بجيوشهم فى الأزهر وصبوا نيران قذائفهم على حى بولاق فأشعلوه فى حرائق مروعة ، ولكن الثورة لم تخمد بل زادت فى القلوب اشتعالا . وقتل القائد كليبر وهو أشجع قواد الجيش الفرنسى وأقساهم قلباً ، وانتقم الفرنسيون من قاتله (سليمان الحلبى) وكان انتقامهم وحشياً شنيعاً ، ولكن ثورة الشعب زادت مع هذه القسوة اشتعالا . وانتهى أمر هذه الحملة الغادرة إلى فشل لا يقل فى فداحته عن غرورها وشدة قسوتها . وعاد شعب مصر يتلفت حوله متسائلا ماذا يكون مصيره . ولو شئنا أن ننطق الصورة التى صورها نابليون وهو واقف حيال الأهرام عند موقعته الأولى ، لقلنا إن القرون الأربعين عادت تطل من قمة الأهرام ناظرة إلى انسحاب جيش فرنسا من مصر وهى تقول كما قال فكتور هوجو شاعر فرنسا وهو يتحدث عن مصير نابوليون الأخير « إن المستقبل فى يد الله » .

وبدأ الشعب العربى فى مصر يواجه سادته القدامى مرة أخرى حين عادوا يريدون استرجاع سيطرتهم عليه بعد خروج جيوش فرنسا من

البلاد . عادت جيوش العثمانيين لتحكم البلاد بعد أن ظهر عجزها المخجل فى مقاومة جيوش فرنسا ، وعاد أمراء المماليك ليستعيدوا عسفهم بالشعب بعد أن تبينت حقيقتهم وعجزهم وغرورهم وأنانيتهم وحرصهم على الحياة ، وبعد أن تجلى للشعب أنهم لا يريدون من الحكم إلا أبهته وزخرفه وترفه مع أنهم لا يؤدون له ما ينبغى على الحكام أن يؤدوه إلى الشعب من الخدمة والدفاع الباسل . ورفض الشعب أن يمكن هؤلاء أو هؤلاء من التحكم فيه مرة أخرى ، والتف حول الزعيم الذى أظهرته الحوادث الدامية فى السنوات التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر وهو السيد عمر مكرم ، ودخل فى معركة باسلة ضد الحاكم التركى (أحمد خورشيد) الذى كان يحاول إعادة قبضة العثمانيين على الحكم ، ودارت المعركة حول قلعة صلاح الدين التى تحصن الحاكم العثمانى فيها ، واستطاع بعد حصار طويل أن يقهر ذلك الباشا المتكبر العنيد وأن ينزله من القلعة أسيراً ويعيده إلى بلاده مطروداً مع جيشه المخذول ، يحيط به حرس من أبناء شعب مصر من الأبطال الذين كانوا يحاصرون القلعة ، وفى طليعتهم حجاج الخضرى وأبو شمعة الجزار. غير أن هذا الشعب المجاهد لم يقدر له أن يجنى ثمار انتصاره ، فإنه لم يفطن إلى حقيقة نفسه ولم يدرك أن العلة الأولى فى شقائه وحلول الكوارث به هى انصرافه عن حكم نفسه والخلود إلى الطمأنينة فى ظل حاكم أجنبى من الأتراك تعود الشعب على مر القرون أن يدع له مقاليد حكمه . ولو فطن إلى هذه الحقيقة لبادر إلى

اختيار زعيمه الطبيعى السيد عمر مكرم ليكون حاكمه الجديد عقب ذلك الانتصار ، ولكن الزعيم نفسه كان مثل الشعب الذى تولى قيادته فى حصار القلعة فلم يدرك هذه الحقيقة ولم يبادر إلى تولى الحكم كما بادر إلى زعامة الثورة . ويمكن الاعتذار عنه فى ذلك بأن الظروف المحيطة به وبقومه كانت لا تمكنه من تحمل عبء الحكم فى ذلك الوقت . كانت الآفاق عند ذلك مزدحمة بسحب قاتمة ذات بروق ورعود .

فالمماليك الذين شردهم الفرنسيون كانوا هناك يتربصون للعودة إلى الحكم، وكان لا مفر لأهل مصر من مصادمتهم وقتالهم إذا شاءوا منعهم من هذه العودة ، وكان هناك بقية كبيرة من جنود الجيش العثمانى تنتظر أمر السلطان بتعيين خليفة للباشا المطرود ، فإذا تولى زعيم الشعب حكم البلاد كان لابد له من قوة جيش تمكنه من طرد هذه البقية الكبيرة من الجنود المرتزقة، والقضاء على بقية فرسان المماليك . فلم ير الشعب وزعيمه سبيلا إلى الخروج من هذا الموقف الخطير إلا باختيار قائد تركى يتوسمون فيه الصلاح والخير والبر ليواجه معهم الأخطار الكثيرة المحيطة بهم، فوقع اختيارهم على محمد على قائد الفرقة الألبانية فى الجيش التركى ليكون شريكاً لزعيمهم أو نصيراً له على مواجهة الأخطار . فنادى به الشعب (باشا) ليتولى حكمه وألبسه السيد عمر مكرم الجبة ذات الفراء وهى رمز الولاية فى حفل شعبى عظيم .

غير أن محمد على لم يلبث أن شعر بمقدرته على الغدر فتنكر للشعب

ولزعيمه بعد سنوات قليلة من تولى الحكم ، ونفى السيد عمر مكرم عن القاهرة ليقيم سجيناً فى دمياط ، وانفرد بتصريف الأمور وعزل الشعب عن مشاركته فى تدبير شئون البلاد . وعاد الشعب إلى عزلته يشعر بخيبة أمل شديدة . وكانت هذه الخيبة سبباً فى عرقلة النهضة القومية وتأجيل جهاد الحرية لنحو ثلاثة أرباع قرن .

وأسس محمد على ملكاً لأسرته وسخر قوة الشعب وموارده فى بناء مجده ، واستبد بأمور البلاد جميعاً وغرته الأمانى فحاول أن يبسط سلطانه على الدولة التركية كلها . ولكن قوى الدول الغربية اجتمعت ضده عند ذلك وكبحت من مطامعه وأرغمته فى آخر مدة حكمه على الانكماش فى حدود مصر التى كانت تشمل أقاليم الجنوب التى صارت اليوم جمهورية السودان الشقيق .

وتوالت على الحكم بعد محمد على أجيال من أبنائه وحفدته كان كل منهم يشبه أباه فى الاستبداد والأنانية وإن كان يقصر كل التقصير عنه فى قوة شخصيته وسعة أفقه . فأساءوا التصرف فى مصالح البلاد وكان من أكبر آثامهم تسليم (سعيد بن محمد على) مشروع قناة السويس إلى شركة أوربية كانت طليعة لسيطرة الدول الأجنبية على شئون مصر . وجاء بعده إسماعيل حفيد محمد على فجر على البلاد كثيراً من المشكلات بإسرافه وغروره . ثم جاء بعده توفيق بن إسماعيل فجنى على البلاد أكبر جناية يرتكبها حاكم ضد البلاد التى يحكمها إذ مكن الإنجليز من احتلالها .

وكان طغيان محمد على وسوء تصرف سعيد وتفريطه فى مصالح شعب مصر وإسراف إسماعيل وغروره، مما جعل الشعب يتحرك مرة أخرى ليستأنف الجهاد الذى كبته محمد على واستغله لمصلحة نفسه وأسرته ، وبدأت حركة شعبية قوية فى زمن إسماعيل وزادها شدة أن دول الغرب بدأت تتدخل فى شئون الحكم فى البلاد . فما انتهى حكم إسماعيل حتى اندلعت ثورة الشعب وتصدى لزعامتها أحمد عرابى ،وكان شعارها الجديد يمثل الحقيقة التى أخذت تتجلى واضحة لشعب مصر مع توالى النكبات وخيبة الآمال ، فقد كان شعارها أن حكم مصر لن يكون لغير أهلها من أبناء الأمة العربية . فالحركة العرابية هى استئناف جهاد الحرية بعد أن مضى على عصر السيد عمر مكرم نحو ثلاثة أرباع القرن .

غير أن هذه الثورة لم يقدر لها النجاح أيضاً لأن الحاكم المتهالك توفيق بن إسماعيل لجأ إلى الدول الأجنبية لحماية شخصه والمحافظة على ملكه .

فانتهت ثورة الشعب مرة أخرى إلى نكبة جديدة وهى نكبة الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ وكانت هذه النكبة سبباً فى عرقلة سير النهضة القومية لمدة سبعين عاماً أخرى .

٢ ـ يقظة شعب المغرب العربى

تعاقب على حكم بلاد المغرب منذ القرن الثالث عشر بعد دولتى المرابطين والموحدين دولة بنى مرين التى استمر ملكها أكثر من ثلاثة قرون، ثم دولة السعديين التى وليت الحكم من عام ١٥٢٤ إلى عام ١٦٦٨، ثم دولة العلويين التى ما تزال إلى الآن تتولى الملك فى المغرب منذ عام ١٦٦٨. وكان لهذه الدول الثلاث المغربية العربية الأصيلة أعظم فضل فى الدفاع عن الوطن العربى فى المغرب أمام المحاولات المتوالية التى أرادت دول الاستغلال الأوربية أن تخضعه لسيطرتها. فقاوم بنو مرين غزوات البرتغال وقاوم العلويون هجوم الإنجليز والفرنسيين. فلم تتمكن الدول الأجنبية من التدخل فى شئون دولة المغرب على توالى القرون برغم ما بذلته تلك الدول فى سبيل ذلك من الجهود الشديدة. وانتهى القرن التاسع عشر إلى نهايته، وما تزال دولة العلويين مستقلة ترفع علمها العربى على ربوع بلاد المغرب العربى الفسيحة، بل إنها استطاعت فى مدة هذه القرون أن تمد سلطانها فى ظل السلام على كثير من الأقاليم التى حولها من ناحية الجنوب، وإليها يرجع الفضل فى انتشار الإسلام فى الصحراء الكبرى وفى سباسب السودان.

غير أن الدول الأوربية استطاعت فى محاولاتها المتوالية أن توقع

بها بعض الجراح فاقتطعت منها بعض قطع على سواحل البحر على أمل مواصلة الزحف منها إلى داخل البلاد . ولكنه أمل لم يتحقق لها على توالى السنين .

فعندما غزا البرتغاليون أرض المغرب فى أواخر القرن السادس عشر ونزلوا فى طنجة ، واجههم الملك السعدى عبد الملك وردهم على الأعقاب منهزمين ،وأعاد الإنجليز الكرة على بلاد المغرب بعد اندحار البرتغال ولم يتمكنوا برغم محاولاتهم الكثيرة إلا من اقتطاع (طنجة) والسيطرة عليها لمدة قصيرة .

وتقربت الولايات المتحدة إلى دولة المغرب منذ استقلالها فى القرن الثامن عشر ،وعقد واشنجتن الكبير أول رؤسائها محالفة مع سلطان المغرب العظيم محمد بن عبد الله العلوى شاكراً له مساعدات المغرب لدولته الناشئة فى الضفة الأخرى من المحيط الأطلنطى .

وكانت فرنسا أشد دول الغرب فى توالى محاولاتها للسيطرة على بلاد المغرب وأتيحت لها فرصة سانحة فى أواخر القرن التاسع عشر عندما ولى ملك المغرب السلطان الشاب الصغير عبد العزيز فأخذت تعمل بمساعدة بعض الدول الأوربية الأخرى على تدبير المؤامرات على الحكم الوطنى ، وإثارة الثورات الداخلية ضده ، وتمكنت آخر الأمر من احتلال الدار البيضاء (كازا بلانكا) والرباط وفاس فى عام ١٩١٢ فى أول القرن العشرين ، ثم بسطت حمايتها على هذه المملكة ذات التاريخ المجيد والحضارة العربية

العتيقة . فكانت تلك صدمة شديدة حركت كل ما فى الشعب العربى المغربى من قوى كامنة للجهاد فى سبيل رفع تلك الحماية المزرية بكرامة الدولة والشعب جميعاً ، فكانت صدمة مباركة لشعب المغرب وإن جاءت متأخرة فى أول القرن العشرين .

٣ـ بدء يقظة العرب فى شمال أفريقيا

كان مصير الشعب العربى فى شمال أفريقيا مخالفاً لمصير المغرب العربى ، فإن ذلك الجزء من الوطن العربى كان داخلا فى حدود الدولة العثمانية التى شملت بسيطرتها كل بلاد المشرق العربى .

وكان إقليم طرابلس الغرب أول ما ضمته الدولة العثمانية من شمال أفريقيا إلى ملكها لحمايته من هجوم أسبانيا عليه فى أوائل القرن السادس عشر فبعث السلطان العثمانى جيشاً بقيادة (مراد أغا) لطرد الأسبان ، فلما تم له الانتصار أبقى هناك فرقة من الجيش العثمانى للسهر على حماية البلاد إذا عاد الأعداء إليها . وما يزال مسجد ذلك القائد العثمانى الأول قائماً فى مدينة تاجورة فى شرق مدينة طرابلس كأثر باق يذكر بحوادث ذلك العصر البعيد .

ومن ذلك الوقت أخذت سيطرة العثمانيين تمتد شيئاً بعد شىء إلى إقليم الجزائر ثم إلى تونس ، وكان حكمهم لتلك البلاد مشابهاً لحكمهم فى

مصر ؛ إذ كانت سياسة الدولة العثمانية تقوم على تولية حكام من قبلها يستند كل منهم إلى فرقة من الجيش لضبط الأمن فى البلاد وجباية الضرائب من أهلها ، بغير أن ترسم لهم خطة فى طريقة الحكم أو تنمية موارد البلاد. وكانت الحكومة العثمانية المركزية تتولى بنفسها توجيه الحكم بفرمانات يصدرها السلطان كلما دعا الأمر إلى ذلك . فما مضى على الحكم العثمانى أكثر من قرنين حتى انصرفت الدولة العثمانية إلى المشكلات الكبرى التى واجهتها فى حكم الشعوب الخاضعة لها فى أوربا فشغلتها هذه المشكلات عن التفرغ لمراقبة أساليب الحكم فى الأقطار العربية فى آسيا وأفريقيا . فشعر الحكام الترك فى هذه الأقطار العربية بضعف رقابة الدولة المركزية عليهم، وحاول كل من آنس من نفسه القوة فى تلك الأقاليم أن يسيطر على إقليمه ويستقل بحكمه ، مع حفظ مظاهر السيادة للسلطان العثمانى . ففى بلاد ليبيا قام أحد ضباط الجيش التركى المرابط فى طرابلس بانقلاب عسكرى ، وانتزع الحكم لنفسه وأعلن استقلاله بالولاية وأصبح اسم السلطان العثمانى وحده رمزاً على سيادة العثمانيين عندما يدعو له الخطباء على منابر المساجد فى أيام الجمعة . واستطاع ذلك الضابط واسمه أحمد بك القرمانلى أن ينشئ فى طرابلس دولة ذات هيبة وقوة، وبقى الحكم فى أسرته القرمانلية نحو مائة وعشرين عاماً من سنة ١٧١٤ إلى ١٨٣٥ ثم عاد الحكم العثمانى إلى السيطرة على البلاد . وقد حدث مثل هذا فى الجزائر وفى تونس ، وكان الحكام فى كل الأحوال يتخذون لأنفسهم

ألقاباً تميزهم وتشعر باستقلالهم وإن كانوا دائماً يحتفظون بالولاء الاسمى للسلطان العثمانى ، ففى تونس اتخذ الحاكم لقب الباى ، وفى الجزائر اتخذ لقب الداى ، وصار الحكم ينتقل بالوراثة من الحاكم المسيطر إلى خلفه من أسرته .

واستمرت محاولات دول أوربا لغزو بلاد الشمال الأفريقى ، كما استمرت لغزو بلاد المغرب العربى على النحو الذى ذكرناه ، واشتدت هناك حركة مقاومة شديدة لهذه الغزوات ولا سيما فى البحر ، فكان أهل البلاد ينشئون السفن ويجولون بها فى البحر الأبيض المتوسط فيتعرضون للسفن الأوربية ومن أجل هذا اشتهرت سواحل الشمال الأفريقى بين دول أوربا بأنها مكامن لصقور البحر العرب الذين كانوا يعرفون عند الأوربيين باسم القرصان .

واتخذت دول أوربا من هذه الحركة وسيلة للتدخل فى شئون الجزائر وتونس وليبيا على السواء ، وكانت فرنسا أول من اتخذها ذريعة لاحتلال الجزائر . ففى عام ١٨٣٠ حدثت مشادة بين داى الجزائر وممثل فرنسا ، فلوح الداى إلى قنصل فرنسا بمذبة كانت فى يده فتذرعت فرنسا بهذه الحادثة الصغيرة وجعلتها حجة لها لتسوغ إرسال حملة حربية لاحتلال البلاد . وانهارت مقاومة الداى التركى عند أول صدمة كما سبق أن انهارت قوة المماليك فى مصر عند أول اصطدام مع جيوش بونابرت ، وترك الشعب الجزائرى وجهاً لوجه أمام قوى فرنسا ، كما ترك المماليك وجيش الترك شعب

مصر من قبل أمام قوى بونابرت فى آخر القرن الثامن عشر . وهب الشعب الجزائرى للجهاد بقيادة الزعيم الكبير عبد القادر الجزائرى واستمر جهاده إلى عام ١٨٤٨ حين تغلبت عليه القوى التى حشدتها فرنسا لحربه فأسر ونفى . ولكن مقاومة الجزائر بقيت مستمرة ، فلم تكد نيرانها تخبو فى إقليم أو آخر من أقاليم الجزائر الفسيحة . وعمدت فرنسا إلى طريقة جديدة فى تعزيز سيطرتها على الجزائر الباسلة فحشدت ألوفاً من الفرنسيين وبعثت بهم ليستوطنوا بها حتى بلغ عددهم ألف ألف على مر السنين وصار هذا العدد الضخم مثل جيش قائم فى الجزائر ليساعد على إخماد ثورات أهلها . ثم أعلنت فرنسا ضم الجزائر إليها واعتبرتها قطعة من وطنها ،وأخذت تعمل جاهدة على إخماد روح الجهاد فى شعبها بوسائل شتى من القهر والطغيان والقسوة . فنزعت الأرض الخصبة من أصحابها وشردتهم إلى المدن ليعيشوا بها غرباء عاطلين ، وأحلت فى أرضهم شراذم من المستوطنين الذين بعثت بهم ليغتصبوا ثروة البلاد من أهلها . وعمدت إلى القادة والأحرار فقذفت بهم إلى السجون أو شردتهم فى البلاد العربية الأخرى واضطرت الكثيرين من كرام البلاد إلى النزوح إلى فيافى الصحراء .

فهذه الكوارث التى حلت بشعب الجزائر كانت هى الأخرى باعثاً قوياً على اشتداد حركة المقاومة والتحرير ،وبلغ شعب الجزائر اليوم بفضل هذه الكوارث قمة الوعى والتحرك نحو حياة حرة جديدة .

وأما تونس فقد تأخر عدوان فرنسا عليها بنصف قرن ففرضت حمايتها

عليها فى عام ١٨٨٠ وكانت حجتها فى ذلك الاعتداء مثالا لشناعة السياسة التى اتبعتها دول الاستغلال حيال الشعوب العربية . فقد وافقت إنجلترة على أن تطلق يد فرنسا فى الاعتداء على تونس لقاء موافقة فرنسا على إطلاق يد إنجلترة فى احتلال جزيرة قبرص من الدولة العثمانية . وسوغت فرنسا اعتداءها على تونس بأنه ضرورى لإخماد مقاومة الشعب الجزائرى الثائر .

واتخذت فرنسا هذه الحماية التى فرضتها على تونس ذريعة إلى اغتصاب الحكم فيها حتى أصبحت هى الدولة الحاكمة ، وصار الباى وهو الحاكم الرسمى للبلاد صورة جوفاء لا حول له ولا قوة مع ممثل الحكومة الفرنسية .

وقد كان لهذا الاعتداء الفرنسى على حرية تونس مثل الأثر الذى يحدثه الاعتداء الأجنبى فى العرب دائماً ، فبدأ الشعب التونسى يستيقظ ويتحرك ويطالب باستعادة حريته حتى استطاع أن يتخلص من كثير من قيوده فى أواسط القرن العشرين .

٤ ـ يقظة الشعب السورى والعراقى

كان للشعب العربى فى سوريا قصة تختلف فى كثير من تفاصيلها عن سائر الشعوب العربية إذ كانت بلاد الشام أقرب الأوطان العربية إلى السلطنة العثمانية ولعلها كانت أوثق هذه الأوطان اتصالا بها .

وقد بقيت سوريا داخل حدود الدولة العثمانية بعد أن خرجت عنها مصر منذ أيام محمد على وبعد أن خرجت عنها بلاد الشمال الأفريقى واحدة بعد الأخرى خلال القرن التاسع عشر .

ولما رأى شعب سوريا ما صارت إليه أحوال الأوطان العربية الأخرى من الاحتلال الذى أدى إلى استيلاء الجيوش الأجنبية عليها ، بدأ يتحرك إشفاقاً على إخوانه وإشفاقاً على نفسه أن يكون مصيره مثل مصيرهم . ورأى زعماؤه أن السر فيما أصاب الأمة العربية هو أسلوب الحكم العثمانى وحالة الحكام فى الدولة العثمانية وهو الأسلوب الذى باعد بين الحكام والشعوب وأدى إلى انعزال الشعوب عن حكم نفسها . وانتهى تفكير هؤلاء الزعماء إلى أن خلاص الأمة العربية يتوقف على تغيير هذا الأسلوب وإقامة الحكم على أساس ديمقراطى لا مركزى يمكن الشعب العربى من حكم نفسه بنفسه فى ظل الدولة العثمانية الشاملة . ولكن كل المحاولات فى سبيل الإصلاح ذهبت سدى ، فقد بلغ الفساد فى الحكم العثمانى مبلغاً استعصى معه كل علاج . وقامت ثورة داخلية فى تركيا فى أول القرن العشرين ضد نظام الحكم الاستبدادى العثمانى وانتظر العرب فى سوريا وغيرها أن تؤدى هذه الثورة إلى الإصلاح المنشود . ولكن الآمال التى أشرقت عليهم لم تلبث أن تبددت ، لأن الثوار كانوا أشد جموداً فى سياستهم نحو الأمة العربية من الحكومات المستبدة السابقة . فيئس زعماء الشعب السورى من نجاح خطة الإصلاح المرجوة . ثم قامت الحرب

العالمية الأولى وتظاهرت دول أوربا الغربية بالعطف المخادع على أمانى العرب ، وكانت الخديعة الكبرى التى أضمرتها هذه الدول للعرب سبباً فى تعقيد كبير فى موقف سوريا ، أدى إلى تأجيل تحرر الشعب السورى نحو نصف قرن كما سنذكر بعد .

وكانت قصة الشعب العربى فى العراق شبيهة بقصة شعب سوريا إذ بقى العراق فى داخل حدود الدولة التركية مثلما بقيت سوريا ، وأصابه من الحكم العثمانى مثل ما أصابها ، فكان لخيبة أمل الشعبين فى إصلاح نظم الحكم التركى وفى تحقيق أمانيهم من الاستقلال فى نطاق الدولة التركية الشاملة وقع شديد على زعماء الشعبين .

وبدأت حركة عنيفة تدعو إلى التحرر والانفصال عن هذه الدولة ما دامت لا تريد التطور بنظم حكمها الفاسد الذى يصر فى عناد على كبح حريات العرب ويأبى إلا أن يسيطر على الشعوب العربية ويبقيها رعايا خاضعة لا شأن لها بحكم نفسها ولا فى إصلاح أحوالها .

حركات التحرر العربية فى القرن العشرين

١ ــ الصدمات تهز الأمة العربية

منذ عادت دول أوربا لغزو الوطن العربى من أواخر القرن الثامن عشر على النحو الذى أجملناه ، وبدأت الشعوب العربية تهتز للدفاع عن نفسها ، تبين للمفكرين العرب أن الأخطار التى تهدد حياة الأمة فى كل مكان واحدة ، وأن مصير الشعوب العربية فى مختلف الأوطان واحد ، وأن هذه الأمة إذا أرادت أن تبقى على حياتها فى تلك العواصف الشديدة التى هبت عليها كان عليها أن تفكر لنفسها وأن تتعاون فيما بينها ، كما تبين لهم أن الهزائم التى أصابت الشعوب العربية نشأت عن مواطن ضعف أساسية ينبغى للأمة أن تعمل على إصلاحها جاهدة حتى تستطيع أن تواجه الأخطار التى تهددها . وقامت من أجل هذا دعوات إصلاحية عدة فى أنحاء مختلفة من الوطن العربى ، ففى جزيرة العرب قامت الدعوة الوهابية التى كانت صرخة عالية تدعو إلى النظر فى حال العرب وتنبههم إلى طائفة من وجوه الإصلاح التى يرجى منها أن تعيد إليهم حيويتهم ، وفى الوقت عينه أو قريباً منه قامت دعوات أخرى مشابهة مثل الدعوة السنوسية التى كانت صرخة أخرى تدعو العرب إلى وجوه من الإصلاح تكفل لهم المقدرة على مقاومة الأخطار التى تهدد حياتهم وإلى جانب

هذه الدعوات التى اتخذت صور الفرق الإصلاحية الدينية ظهر عدد من نوابغ المفكرين الذى قاموا بدعوات إصلاحية عامة بغير أن يكون لدعواتهم صور الفرق الدينية، ومن أمثالهم: السيد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده المصرى وعبد الرحمن الكواكبى الحلبى . وبدأت هذه الدعوات على اختلافها تحدث أثرها فى الأمة العربية فأدركت أن مشكلاتها الكبرى واحدة وأن مصيرها جميعاً معلق على ضم صفوفها وإصلاح أمورها والتعاون فيما بينها لإقامة حياتها على أسس جديدة من مبادئ دستورها الذى غفلت عنه طوال مدة خمودها واعتزالها الحكم وتخليها عن الدفاع عن نفسها . وقامت على أثر ذلك أحزاب وجمعيات شتى بعضها سياسى، وبعضها اجتماعى، وبعضها تعليمى أو علمى لتدبير الوسائل العملية لإحداث الإصلاح الذى أحس الجميع بضرورته . وكانت بعض الجمعيات السياسية تلجأ إلى التخفى عن عيون حكام البلاد الذين كانوا لا يرتاحون إلى تحرك الشعوب التى يتحكمون فيها ومن بينها جمعية (الرابطة العربية) التى أخذت تبث دعوتها سراً فى الشام والعراق خشية من بطش الحكام العثمانيين . وقامت جمعية تونس الفتاة فى تونس، والحزب الوطنى فى مصر. وكانت جميعاً تدعو إلى مقاومة هجمات دول الاستغلال إلى جانب دعوتها إلى إصلاح ما اختل من أحوال الأمة . فى مطالع القرن العشرين كانت الحركة القومية تهز البلاد العربية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها لاستعادة الحرية والمجاهدة ضد الاستغلال الأوربى .

فالقرن العشرون بالنسبة إلى الأمة العربية يعادل القرن الخامس عشر بالنسبة إلى الشعوب الأوربية فى أن كليهما شهد حركة عامة شاملة تتطلع إلى الحرية وإلى الانطلاق . غير أن القرن العشرين كان يشهد أيضاً مأساة أمة نبيلة بدأت تتحرك وتفكر لنفسها وهى تشعر بقيود ثقيلة تكبلها وتعرقل حركتها . وكانت المشكلة الكبرى التى تبدو معضلة أمام الأمة العربية هى مشكلة هذه القيود ، والتماس الوسائل التى تستطيع بها أن تحطمها . وكان تحطيم تلك القيود يبدو فى بعض الأحيان معضلا ولا يمكن إلا بحدوث معجزة ، والمعجزات لا تحدث عند انتظار وقوعها ، ولا يتنبه إليها الناس فى أول وقوعها . ولكن المعجزة حدثت فى أوائل القرن العشرين على غير انتظار وكان ظهورها فى الوطن العربى الصغير الذى تقوم فيه اليوم المملكة العربية الليبية .

٢ ــ المعجزة العربية فى ليبيا

فى عام ١٩١١ هاجمت الجيوش الإيطالية طرابلس الغرب وكانت إلى ذلك الحين هى البقية الباقية من شمال أفريقيا العربى الداخل فى دولة الترك العثمانيين .

كانت فرنسا قبل ذلك قد استولت على الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وفرضت حمايتها على تونس منذ سنة ١٨٨٠ وأخذت تتغلغل شيئاً بعد

شيء فى حكم بلاد المغرب العربى منذ ١٩٠٤ وكانت إنجلترة قد احتلت مصر منذ سنة ١٨٨٢ وسيطرت على السودان منذ ١٨٩٩ . وكانت إيطاليا آخر الدول الأوربية فى تحقيق مطامعها الاستغلالية لأنها لم تتكون كدولة موحدة إلا فى سنة ١٨٧٠ . فلم تجد أمامها إلا هذه البقية من العالم العربى لتجعلها نصيبها من الغنائم .

وما كادت جيوش إيطاليا تصدم الحكم العثمانى فى طرابلس حتى انهار كعادته سريعاً وعقد السلطان صلحاً مع إيطاليا فى خريف سنة١٩١٢ وترك الشعب العربى الليبى وجهاً لوجه أمام جيش ضخم قوى العدة يوجه كل ما لديه من وسائل العلم وآلات الحرب لإخضاع شعب لا يزيد عدده على مليونين يكاد يكون أعزل من السلاح وخلوا من الأموال . واهتز أبناء الأمة العربية فى كل قطر من الأقطار هزة شديدة حين سمعوا أخبار النكبات التى بدأت إيطاليا تصبها على الشعب الليبى ، وكان وعى العرب عند ذلك قد تنبه على أثر الدعوات الإصلاحية التى توالت منذ أواخر القرن الثامن عشر. فكانت مأساة العرب هناك مأساة للعرب جميعاً وأحسوا بآلامها كما يحس الجريح حين ينكأ جرحه القديم ، وهبوا إلى نصرة إخوانهم برغم القيود التى تثقلهم وتعرقل حركتهم، فشاركوا بما استطاعوا فى جهادهم ضد القوى الجبارة التى تهاجمهم . وبدأ الجهاد العنيف الذى مثلت فيه الشعوب العربية جميعاً بوفود من المغرب العربى وأخرى من المشرق العربى ،وكانت مفاجأة مدهشة حين رأى العرب جميعاً

أن الجيوش الإيطالية الضخمة بكل ما لها من عدد وما تملك من عدة تقضي الشهر بعد الشهر والعام بعد العام وهي عاجزة عن إخضاع الشعب المجاهد الصغير . ومرت ثلاث سنوات أو أربع قبل أن يتمكن الجيش الإيطالي من السيطرة على ربوع ليبيا .

غير أن الحرب العالمية الأولى بدأت في خريف سنة ١٩١٤ ، وما كادت تبدأ حتى عاد العرب فأضرموا نيران الحرب على أعدائهم . وفي أشهر قلائل كان جيش إيطاليا قد تقهقر مهزوماً إلى قواعد محصورة على شواطئ البحر وأصبح مثل السجين فيها ، واضطر الإيطاليون إلى محاولة الصلح مع العرب ، واستمر جيشهم محصوراً في شريط ضيق على ساحل البحر إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى ومضى بعدها أربع سنوات أخرى وحدث الانقلاب الكبير في إيطاليا وقبض الفاشست على زمام الحكم وصار موسوليني حاكماً بأمره فيها .

فكان لهذا الجهاد العظيم أكبر أثر في نفوس العرب كافة وامتلأت قلوبهم ثقة بأنفسهم وأملا في مستقبلهم .

لقد ضرب الشعب العربي الليبي مثالا للبسالة في جهاده وهو قليل العدد والعدة أمام جيوش ضخمة من دولة كثيرة العدد ضخمة الموارد بالنسبة إليهم ، ولها من عدة الحرب ما لا يملك العرب منه شيئاً من طائرات وسيارات ومدافع وأساطيل جرارة . ومع هذا فقد أعجز هذا الشعب تلك الدولة المعتدية وألجأها بعد حرب مستمرة لمدة خمس سنوات إلى أن

تنكمش وتنحصر فى رقعة ضيقة من الساحل ثم أن تسعى إلى مصالحتهم وتعترف لهم بالاستقلال .

لقد حدثت هذه المعجزة تحت الأبصار المتطلعة من الأمة العربية ، فأدخل إلى قلوبها الأمل فى أنها تستطيع هى الأخرى أن تجاهد بعددها القليل وعدتها الضعيفة وأن تنتصر على أعدائها الأقوياء على رغم ما يحشدونه لها من الجيوش الجرارة والعدد الجبارة .

٣ ــ جهاد شعب مصر

من الاحتلال إلى الاستقلال

رأينا كيف هب شعب مصر فى أيام الخديو توفيق ثائراً على الحكم الذى فرض عليه منذ استبد به محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، لأنه أدرك إدراكاً جلياً أن الكوارث التى أصابته والمشكلات التى تعقدت حوله إنما نشأت من سيطرة الأتراك الأجانب الذين اعتمدت عليهم أسرة محمد على فى التمكين لسلطانها ، فكان منهم حكام الأقاليم ومنهم قادة الجيش ، ولم يكن لأبناء الشعب العربى المصرى إلا نصيب ضئيل فى إدارة شئون بلادهم أو فى القيادة العليا لجيشهم .

والتجأ توفيق إلى الدول الأجنبية لحمايته من ثورة الشعب ، فزادت الثورة اضطراماً فى قلوب أهل مصر وتزعمهم أحد كبار قواد الجيش

المصريين وهو أحمد عرابى ونادوا بعزل ذلك الخديو الخائن وأسقطوا حكومته وأنشأوا حكومة وطنية خالصة وكان شعار هذه الثورة أن مصر للمصريين .

وعزموا على مواجهة المشكلات المعقدة التى خلفتها لهم سياسة الحكم الأجنبى الذى سيطر على شئونهم طوال القرن التاسع عشر .

غير أن التجاء الخديو توفيق إلى حماية الدول الأجنبية كان فرصة سانحة لتلك الدول لتخضع مصر لسلطانها كما أخضعت فرنسا بلاد الجزائر وتونس من قبل . وسارعت فرنسا إلى إظهار رغبتها الشديدة فى اتخاذ الوسائل القهرية للتدخل فى مصر.

وكانت إنجلترة تخفى رغبتها القوية فى ذلك وتظاهرت بأنها توافق على خطة فرنسا وهى تضمر العزم على الانفراد بالغنيمة ، حتى تقبض على ناصية قناة السويس التى كانت تطمع فى السيطرة عليها منذ إنشائها . وبعثت الدولتان أسطولا إلى الإسكندرية يشتمل على سفن من الدولتين ، وأخذت إنجلترة تدبر خططها فى الخفاء كى تصل فى النهاية إلى الانفراد باحتلال مصر ،واستطاعت أن تحقق تلك الخطط فلم تلبث أن نجحت فى إبعاد شريكتها عن التدخل ؛ واعترفت هذه الشريكة آخر الأمر بأنها قد خدعت عن الفريسة التى كانت تريد الإسراع بافتراسها .

واستخدمت إنجلترة فى خطتها لإخضاع ثورة مصر كل ما خذقته فى تجاربها الاستغلالية مع شعوب أفريقيا وآسيا من أساليب الخداع ،

واستخدمت تابعها الخديو الخائن فى بث الدعاية للتفريق بين صفوف أهل مصر واستطاعت فى النهاية أن تنتزع انتصاراً رخيصاً على الجيش المصرى الذى كان يمثل الثورة القومية المصرية ، وقبضت على الزعماء الوطنيين فشردت منهم فريقاً وأعدمت فريقاً .

وكانت هزيمة الجيش والقضاء على ثورة الشعب صدمة عنيفة للآمال العربية فى مصر وهى الصدمة الثانية التى أصابت هذه الأمة بعد خيبة آمالها من قبل فى ثورة السيد عمر مكرم .

وخيم الوجوم على الشعب واعتراه شيء يشبه الذهول أو يقرب من اليأس حين رأى أن محاولته فى التحرر تصطدم بالخيبة مرتين فى قرن واحد ، غير أن هذا الوجوم لم يكن سوى أثر وقتى للصدمة ، فلم يمض على الاحتلال الإنجليزى إلا سنوات قلائل حتى بدأ شعب مصر يستجمع إرادته ويستعيد نشاطه ويستأنف الجهاد الذى بدأه فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت أكبر مظاهر هذا النشاط الجديد عودة الحياة إلى الحزب الوطنى الذى تألف من قبل فى أواخر أيام إسماعيل ، وكان شعاره الأكبر مقاومة الاحتلال حتى يجلو الأجنبى عن البلاد . وكان الموقف ما يزال معقداً كما كان فى أوائل القرن . كان أمام الشعب المصرى قوة المحتل الأجنبى ، وكان أمامه قوة الأجنبى الآخر وهو الحاكم المنحدر من سلالة محمد على ، وهو يستند إلى حماية الاحتلال الإنجليزى ويخضع له وينفذ إرادته مرغماً أو راضياً .

ولا يتسع المجال فى هذا العرض الموجز لتفصيل ما أصاب البلاد من النكبات على أيدى الاحتلال الإنجليزى وأعوانه، ولا تتبع جهاد الشعب خلال مدة الاحتلال التى تطاولت إلى أكثر من سبعين عاماً، وحسبنا أن نقول إن قوى مصر ومواردها كانت طوال هذه السنوات السبعين تسخر لخدمة الاحتلال ، وتحقيق مصالح إنجلترا السياسية . فسخر الإنجليز جيش مصر فى فتح السودان وإخضاع الثورة المهدوية التى كانت مثل الثورة المصرية ترمى إلى التخلص من الحكم الفاسد الذى كان السودانيون يعرفونه بحكم الترك ، ولما تم للإنجليز ذلك الفتح على أيدى أبناء مصر عمدوا إلى انتزاعه لأنفسهم ومهدوا لجعله مستقلا خاصاً بهم ، وأرغموا الحكومة الخديوية على الاعتراف لهم بتعيين الحاكم العام . ثم أحكموا قبضتهم على قناة السويس مع تركهم إدارتها فى أيدى الفرنسيين كقطعة تلقى إليهم من الغنيمة .

ولم تنس فرنسا خديعة إنجلترا لها فى الانفراد باحتلال مصر فأضمرت فى نفسها غداء خفياً كان يظهر بين حين وآخر فى صورة منافسة ضئيلة أو فى صورة تشجيع للمصريين فى طى الخفاء على المقاومة . لكنها عدلت عن هذه السياسة الهزيلة عندما ألقت إليها إنجلترة بقطعة أخرى من غنائم الاستغلال ، فعقدت معها اتفاقية فى عام ١٩٠٤ يطلق عليها اسم « الاتفاق القلبى » وهو أشبه شىء بالاتفاق بين القرصان، فتعهدت بإطلاق يدها فى بلاد المغرب العربى لقاء تعهد فرنسا بإطلاق يدها فى

مصر . وخيل إلى إنجلترة أن جو السياسة قد صفا لها،وأنها قد اطمأنت إلى رسوخ قدميها عبر قناة السويس ، وأمنت على تمكن قبضتها من طرفى وادى النيل . وفى عام ١٩٠٦ حدثت حادثة دنشواى وهى قرية من قرى مصر السفلى بين فرعى النيل الأدنى فى إقليم المنوفية ، فابتدأت باعتداء بعض الجنود الإنجليز على أهل القرية وانتهت بمحاكمة من أشنع المحاكمات لأهل القرية الذين اعتدى الإنجليز عليهم . وأراد ممثل الحكومة الإنجليزية (وهو لورد كرومر) أن يجعل تلك المحاكمة مثالا يضربه للمصريين جميعاً ليعلمهم الخضوع والخنوع للأجنبى المحتل حتى لا يجرؤوا أن يرفعوا جباههم أمامه ، وانتهت هذه المحاكمة إلى الإيقاع بعدد كبير من أهل القرية بين القتيل والسجين وبين التعذيب والإذلال بضرب السياط علناً على مرأى من الأهلين الذين انطوت قلوبهم على جرح عميق من الأسى والغضب والثورة . وكانت حادثة دنشواى تشبه الشرارة التى تنطلق وتحدث الانفجار . فهب زعيم الحزب الوطنى عند ذلك وهو المجاهد الكبير مصطفى كامل ليعلن سخط الشعب جميعاً على ذلك العسف الشديد ، والتفت جماهير الشعب حول زعيمها الجديد الشاب ، واضطرت الحكومة الإنجليزية إلى سحب ممثلها الطاغية اللورد كرومر فى عام ١٩٠٨ .

فكان ذلك أول انتصار أحرزه الشعب ضد قوى الاحتلال الضخمة . ولم تمض بعد ذلك إلا سنتان ثم حدثت حادثة أخرى كان لها أثر شديد فى اشتداد حركة المقاومة ، فقد أراد الإنجليز أن يحصلوا على موافقة الحكومة

المصرية على مد الامتياز الجائر الذى ظفرت به شركة قناة السويس فى زمن سعيد بن محمد على . وهب الشعب المصرى غاضباً مرة أخرى بزعامة الحزب الوطنى ، الذى فقد زعيمه الكبير مصطفى كامل منذ عام ١٩٠٨ ، ولم يسع الإنجليز إلا التقهقر مرة أخرى أمام غضبة الشعب الذى رفض تجديد ذلك الامتياز ، فكان ذلك انتصاراً قومياً جديداً فى المعركة الطويلة مع قوى الاستغلال .

وعملت الحكومة الإنجليزية منذ عزل اللورد كرومر على توثيق عرى التعاون بينها وبين الخديو عباس الثانى الذى تولى بعد موت أبيه توفيق فى سنة ١٨٩٢ كى تستعين به على مقاومة الثورة التى بدأت بوادرها تظهر فى شعب مصر ، والتمست إلى ذلك كل الوسائل التى هدتها إليها تجاربها الاستغلالية ، ونجملها فى عبارة قصيرة واحدة وهى أن تسمح للخديو بأن يشاركها فى استغلال الشعب والفوز بقطعة من الغنائم المسلوبة من كده وعرقه .

فأقبل الخديو على جمع الثروة لنفسه بوسائل يأباها شرف الحاكم النزيه ، فكان ذلك عاملا جديداً على اشتداد غضب الشعب وسخطه على الاحتلال وشريكه فى الاستغلال .

فلما اندلعت فى سنة ١٩١١ نيران الحرب الإيطالية فى بلاد ليبيا وكانت عند ذلك تعرف بولاية طرابلس الغرب ، رأى شعب مصر أمام عينيه كيف يمكن للشعوب أن تقوم بمعجزة فى دفاعها وكيف استبسل

الشعب الليبي الأعزل في مقاومة القوى الضخمة التي وجهتها إيطاليا إليه من وراء البحر لقهره والسيطرة على بلاده ، فهب إلى مساعدة إخوانه المجاهدين بكل ما يستطيع أن يساعد به من مال وعدة ومؤونة على رغم القيود التي كبله بها الاحتلال ، وتطوع بعض أبناء مصر للجهاد مع إخوانهم وما يزال بعض هؤلاء المجاهدين يعيشون إلى اليوم بيننا ، ولسنا نغالى إذا قلنا إن شعب مصر جميعاً كان يشارك المجاهدين فى ليبيا بقلبه ولسانه ، ويود لو استطاع أن يشاركهم بنفسه .

كانت انتصارات العرب فى سباسب برقة وطرابلس تملأ قلوب شعب مصر غبطة وأملا ، وكانت المآسى التى تقع لهم تدمى قلوب أهل مصر وتفعمها أسى وحنقاً ، وامتلأت قلوب جماهير الشعب إيماناً بأنها تستطيع هى الأخرى أن تستبسل فى الدفاع عن نفسها أمام قوى الاحتلال ، كما فعل شعب ليبيا . وكون شباب مصر وكهولها جمعيات سرية وأخرى علنية للدعوة إلى الثورة ، واشتدت حكومة الخديو عباس فى إيقاع العقاب بكل من تخشى منهم المقاومة حتى عم البلاد عهد من حكم الإرهاب لم يسبق له مثيل ، وكان الاحتلال الإنجليزى من وراء هذا الإرهاب يتمنى أن يتمكن به من قمع الثورة التى يخشاها وهى ما تزال فى مكامنها . فكانت الآفاق فى مصر تنذر باندلاع ثورة عنيفة على الاحتلال الأجنبى وأعوانه من الحكام الأجانب ومن يحيط بهم من أصحاب المصالح وطلاب المنافع الخاصة ، غير أن الظروف السياسية انقلبت فجأة حين اندلعت نيران

حرب كبرى شغلت الشعوب جميعاً وأدهشت العالم كله وهى المعروفة بالحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وكان موقف العرب عامة مثل موقف شعب مصر عند ابتداء تلك الحرب . وهو موقف دقيق غاية الدقة حائر أشد الحيرة . لقد بادرت إنجلترة فأعلنت حمايتها على مصر وعزلت الخديو عباس الذى لم تطمئن إلى ولائه برغم ما قدمت له من الرشى من أموال شعب مصر . وكان عباس فى ذلك الوقت غائباً خارج البلاد، فاختارت أحد أبناء إسماعيل وجعلته سلطاناً تحت حمايتها ، وأخذ بعض رجال الحكم يتهامسون بأن الإنجليز قطعوا على أنفسهم وعوداً وثيقة بأن يردوا إلى البلاد حريتها بعد انتهاء الحرب .

وأسرعت الحوادث يتلو بعضها بعضاً فى سرعة مذهلة . ودخلت الدولة العثمانية فى الحرب ضد إنجلترة إلى جانب ألمانيا والنمسا ، وكانت خطة الحرب تقضى بأن يكون هدف المتحاربين السيطرة على قناة السويس ، فكل من الجانبين يحشد الجيوش لمعركة تقرر مصير هذه السيطرة . ولم تستطع حكومة السلطان الجديد (حسين كامل) أن تثبت وجودها أمام سيطرة الإنجليز على مصر ، فأخذ جيش الاحتلال كل الأمر فى يديه والشعب المصرى يرى ويأسى ويشعر بأن فرصة عظيمة تتفلت من بين يديه ؛ فقد كان انشغال إنجلترة بالحرب الطاحنة فرصة سانحة لثورة قومية تهب فى ذلك الوقت كما فعل الليبيون فى جهادهم لجيوش إيطاليا ، ولكن حكومة السلطان حسين

كانت تعمل على كبت مشاعر أهل البلاد وتخذل همتهم بدعوى أنها تؤثر الحكمة وتنتظر نهاية الحرب لتحقيق وعود الإنجليز فى تحقيق حرية مصر ، وأنها لا ترى من الحكمة الاندفاع فى عداوة الأجنبى المحتل فى ذلك الوقت العصيب خوفاً من إحراجه و إقدامه على ضم البلاد إلى مستعمراتها . بل لقد بالغت تلك الحكومة فى دعايتها وزعمت أن إعلان إنجلترة لحمايتها على مصر يقطع علاقة التبعية الاسمية التى كانت تربطها بالدولة العثمانية ويمهد بذلك إلى جعلها من الناحية السياسية دولة تامة الاستقلال بعد انتهاء الحرب .

وكان بعض الدعاة الموالين للاحتلال-من أصحاب الصحف العربية بمصر يسوغون سياسة الحكومة المصرية بأنها تحافظ على عرش إسماعيل لأبناء إسماعيل — كأن المحافظة على ذلك العرش أمنية من الأمانى العزيزة على شعب مصر !

وحشدت الدولة العثمانية جيوشها على حدود مصر ولا شك أن جماهير الشعب كانت تتمنى الانتصار لهذه الجيوش التركية وتترقب اجتيازها لقناة السويس لتهب للقضاء على الاحتلال . ولكن حكومة السلطان كانت تجاهر بحماسة بأن واجبها مواجهة الجيوش العثمانية ومقاومتها وحماية البلاد من غزوها ، وأن الوطنية الحقة تحتم عليها هذه الخطة. بل إن رئيسها وهو حسين رشدى باشا أعلن يوماً فى حماسة أنه مستعد لحمل السلاح والوقوف فى وجه جيش الترك إذا زحف على مصر، وهذا الرئيس حفيد

لأحد قواد محمد على .

حقاً إن شعب مصر كان مثل الشعوب العربية عامة ، لا يحمد تاريخ الحكم التركى وما قاسته البلاد منه من عواقب ضعفه وفساده وطغيانه ، ولكن كراهته للاحتلال الإنجليزى كانت تدفعه إلى العطف على أعدائه .

وأخذت إنجلترة تحشد الجيوش الجرارة فى مصر للدفاع عن قاعدتها بها إذ كانت ترى أنها إن أصيبت بالهزيمة فيها أدت هزيمتها إلى فقدان سيطرتها على قناة السويس وإلى انهيار إمبراطوريتها حتماً بعد ذلك . وكانت تلك الجيوش خليطاً عجيباً من الشعوب الخاضعة لها ومن سلالات رعاياها فى أركان الأرض الأربعة ، ففيهم ألوف مؤلفة من أبناء الهند وأخرى من أستراليا وزيلاندة ، وغيرهم من أهل المستعمرات الإفريقية . وسخرت موارد البلاد جميعاً لخدمة تلك الجيوش وحشدت ألوفاً مؤلفة من أبناء مصر بالقهر للخدمة فى ميادين الحرب أو القيام بالأعمال المساعدة فى معسكرات الجند . فكان شعور الألم والغضب يتزايد فى جماهير الشعب على مر أيام الحرب وأضيف إلى ذلك شعور آخر من الحنق على الحكام الذين ساعدوا المحتلين على كبت ثورتهم وتضييق الأغلال حولهم . وزاد هذا الشعور شدة عندما خاب أمل الجماهير فى انتصار جيوش الترك منذ هزموا عند قناة السويس وارتدوا على أعقابهم نحو فلسطين ، وأخذت جيوش الإنجليز تزحف وراءهم فى سيناء لمواصلة حربهم فى فلسطين .

واستمر شعب مصر طوال مدة الحرب يعانى أشد الويلات من أخلاط الجنود المحشودين فى بلاده ومن الأعباء الثقيلة التى ألقتها الحرب على عاتقه ، كما استمر يعانى أعظم الشقاء من خيبة الأمل ، وتفلت فرصة التحرر من بين يديه ، ومن ضعف حكامه وخنوعهم للأعداء وتغاضيهم عن تسخير أبناء الشعب وموارده لخدمة هؤلاء الأعداء . ثم عقدت الهدنة بين المتحاربين فى نوفمبر سنة ١٩١٨ فلم تمض بعدها إلا أيام قلائل حتى ذهب وفد من زعماء الشعب إلى ممثل إنجلترا ليطالبه بتحقيق الوعود التى قطعها الإنجليز على أنفسهم لحكام البلاد عند ابتداء الحرب . وكان رد الممثل الإنجليزى عليهم رد سيد متغطرس على قوم يتدخلون فيما لا شأن لهم به . ومن ذلك الوقت بدأت الثورة تغلى فى القلوب حتى انطلقت عنيفة مستميتة فى مارس سنة ١٩١٩ عندما اعتقلت السلطات الإنجليزية العسكرية زعيم الشعب الناطق بلسانه سعد زغلول . ولم تبال جماهير الشعب بما كان للإنجليز فى البلاد من جيوش جرارة ولا من عدد جبارة ولا بما كانت تشعر به الجيوش الإنجليزية من الزهو فى أعقاب انتصارها فواجهت نيران الإنجليز وصادمتهم فى كل مكان حتى اضطر الإنجليز إلى التقهقر للمرة الثالثة بعد تقهقرهم من قبل مرتين : إحداهما عقب دنشواى والأخرى عند رفض الأمة لتجديد امتياز شركة قناة السويس ، وقبلوا التفاوض مع وفد يمثل الشعب برئاسة سعد زعيم الشعب الذى عدوه من قبل عاصياً وقبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة سيشل البعيدة . ومن ذلك

الوقت تكونت كتلة سياسية ضخمة لمفاوضة الاحتلال . . وهى كتلة (الوفد المصري) .

وليس من قصدنا تفصيل الحوادث التى وقعت بعد ذلك، وحسبنا أن نتتبع الخط الرئيسى فى تطورها. فنى عام ١٩٢٢ أعلن الإنجليز إلغاء الحماية التى كرهها أهل مصر وأعلنوا استقلال مصر كدولة ذات سيادة، ولكنهم قيدوا هذا الاستقلال بتحفظات أربعة فأبقوا بها أربع مسائل كبرى بغير حل، وهى مسألة الحكم فى السودان وقناة السويس والامتيازات الأجنبية ومعاملة الأقليات فى البلاد .

وكان السلطان عند ذلك فؤاد بن إسماعيل الذى تولى الحكم بعد موت أخيه السلطان حسين سنة ١٩١٧ ، فاتخذ لنفسه لقب الملك . وكان عهده الذى استمر إلى عام ١٩٣٦ حافلا بالحوادث المؤلمة ، فإنه كفى الإنجليز مشقة مواجهة الشعب وتحولت المصادمات بعد أن كانت بين الشعب والإنجليز فأصبحت بين الشعب والملك، وكان الإنجليز ما يزالون من ورائه ينفذون سياستهم عن طريقه . وعمد فؤاد والإنجليز من ورائه إلى إنشاء أحزاب سياسية مصطنعة لتقاوم الاتجاه الشعبى الذى كان يمثله الوفد المصرى الذى تكون كحزب سياسى يمثل الجمهور الأكبر من أهل مصر. ولم يكن لوجود تلك الأحزاب الصغيرة من مسوغ سوى أن لكل منها رئيساً كان الملك والإنجليز يختارونه لينفذ سياسة موجهة لتقاوم الحزب الذى يمثل كتلة الأمة وهو الوفد .

ومات سعد زغلول فى سنة ١٩٢٧ ، ففقدت البلاد بفقده زعيماً كان يجمع صفوفها ويوحد كلمة أكثريتها الكبرى ، ولكن الوفد استمر نحو عشر سنوات يواجه الحوادث التى كانت سياسة الملك والإنجليز تدبرها لتصرف انتباه الأمة عن القصد إلى غايتها الكبرى وهى استمرار الثورة عليهم .

وكانت الأحوال العالمية تنذر بوقوع حرب كبرى ثانية بعد حين . فعمد الإنجليز إلى خطة أرادوا بها الاحتياط لأنفسهم إذا وقعت هذه الحرب ، فبدأوا فى مفاوضة الوفد لعقد معاهدة تقرر موقف مصر تقريراً واضحاً وتحل عقدة التحفظات الأربعة التى قيدوا بها إعلان استقلال مصر فى عام ١٩٢٢ . وكانت نتيجة هذه المفاوضات معاهدة سنة ١٩٣٦

وما كاد رئيس الحكومة الوفدية يقضى عاماً واحداً فى الحكم على أساس هذه المعاهدة حتى أقاله الملك فاروق الذى خلف أباه الملك فؤاد منذ عام ١٩٣٦ . وتولت الحكم بعد ذلك وزارة أخرى بدأت تعدل المعاهدة الجديدة وتحور شروطها بحيث تكون أكثر ملاءمة للإنجليز إذا ما شبت نيران الحرب المتوقعة . وفى سنة ١٩٣٩ اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية المنتظرة .

واستمرت الحوادث المؤلمة بعد انتهاء الحرب وكان محورها منافسات الأحزاب حول تولى الحكم . ولكن الإنجليز خشوا من استمرار تلك المنافسات التى كان فاروق يشجعها لإبعاد الوفد عن الحكم ، فقاموا بحركة تشبه

الانقلاب فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ليرغموا الملك على العدول عن خطته وأمروه بأن يعيد الوفد إلى الحكم إذ كان ما يزال يمثل كتلة الشعب الكبرى ، وكان من مصلحتهم أن يستميلوه إليهم. وكانت المدة الباقية من الحرب منذ سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٥ أشبه شىء بالمأساة السياسية ، فالحرب بطبيعتها تحرك أطماع المستغلين وتثير أدنأ الطبائع فى الأنانيين وتستهين فى مغامراتها الدموية بإهدار القيم العليا والتوسل إلى إحراز النصر بكل الوسائل مهما بلغت من الدناءة .

فجرفت هذه العوامل الدنيئة كل شىء فى طريقها وانغمس الملك فى أطماعه ومفاسده، كما تورط زعماء الوفد وأتباعهم فى كثير مما كانوا من قبل يتورعون عنه ويرفضونه من إيثار مصالحهم الخاصة وإهدار القيم العليا التى كانوا من قبل يتمسكون بها ؛ بل إن حكومة الوفد تساهلت من أجل المحافظة على الحكم فى كثير مما كانت تأباه من قبل مع الإنجليز وما كانت تقاومه من طغيان الملك وفساده ، وكانت نتيجة ذلك خيبة أمل شديدة لجماهير الأمة، واشتد حنقها على الملك وحكومته الوفدية . فلما انتهت الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ أطلق الإنجليز يد الملك فى الحكم فأثار المنافسات بين الأحزاب ونحى الوفد عن الحكم، وتعاقبت بعده حكومات الأحزاب الأخرى وكانت الثورة وخيبة الأمل تتزايد اضطراماً فى أعماق الأمة، واتخذت مظاهر عدة من النقد اللاذع والهجوم العنيف على الحكم . وقد تجلى فساد الحكم فى صورة بشعة فى

حرب فلسطين ضد إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ؛ فبينما كانت الجيوش المصرية تضحى بدمائها فى ميدان القتال دفاعاً عن شعب فلسطين العربى استمر الملك وأعوانه سادرين فى عبثهم ، وكان من بين جرائمهم فى حق الأمة بعثرة الأموال العامة فى شراء أسلحة فاسدة لا تضر العدو بقدر ما تخون الجنود الذين يستخدمونها . ودل التحقيق فى هذا الأمر على إهمال شنيع من المسئولين يبلغ حد الخيانة الوطنية . وانتهت مأساة فلسطين بنكبة أضافت وقوداً إلى شعور الثورة فى جماهير الشعب والمخلصين من المفكرين والزعماء .

وأراد الملك أن يهدئ الثورة فأعاد الوفد إلى الحكم على زعم أنه يمثل الأكثرية من الأمة ، فلم تلبث الحوادث أن برهنت على أن الأمة قد خاب ظنها فى ذلك الحزب كما ساء ظنها فى الأحزاب الأخرى. وأفاق الملك من أوهامه على حريق هائل اشتعل فى أكبر أحياة القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ فكان ذلك إنذاراً بما صارت إليه الأمور من الاختلال . وأفعمت القلوب بمشاعر التشاؤم وسوء الظن والحنق وتعاقبت الحكومات بعد الحكومة الوفدية وكانت تشبه بحارة سفينة على وشك الغرق وهم لا يدرون أين تتجه التيارات التى تتقاذف بسفينتهم .

فكان الناس يتساءلون ماذا يكون المصير حين فاجأتهم الثورة الكبرى التى قام بها الجيش المصرى فى أوانها فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ .

وكان أول ما قامت به إتمام ما عجزت ثورة عرابى عن إتمامه وإصلاح

الخطأ الذى وقعت فيه ثورة السيد عمر مكرم، فإنها عزلت الممثل الأخير لأسرة محمد على فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ وبذلك قضت على العامل الأول فى عرقلة سعى الأمة نحو الترقى بحياتها، وقوضت الدعامة التى استند عليها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢، فكان عزله بداية النهاية للاحتلال الإنجليزى.

وواجهت الثورة منذ أول عهدها مخلفات قرون طويلة توالت على البلاد، حتى مدت جذورها فى حياة الشعب، ولكن كان عليها أول شىء أن تطهر الأرض من الاحتلال . وأبدت حسن نيتها فى تحاشى معارك لا ضرورة لها عندما قبلت أن تعقد معاهدة مع الإنجليز رتبت فيها خطوات انسحاب الجيش المحتل وما يقتضيه ذلك من تنظيم وتدبير ، وكانت تريد بذلك أن تتفرغ وتجمع كل نشاط الشعب وجهوده لبناء حياة جديدة وإصلاح ما أفسدته عوامل الضعف والخمول والأنانية فى كيان البلاد . غير أن أعداء الأمة كانوا يدبرون فى الخفاء خططاً خبيثة ليحولوا بين الشعب وبين ما يتمناه من الإصلاح ، وكانوا يطمعون فى إبقاء العهد الثورى الجديد عاجزاً عن الدفاع عن البلاد كما صنعوا بالعهود السابقة قبل الثورة . فمنذ أدركوا أن هذا العهد جاد فى تحصين الحياة الجديدة وتوفير عدد الدفاع عن البلاد بادروا إلى عرقلة مساعى الثورة بأساليب الضغط الاقتصادى التى اعتادت دول الاستغلال أن تتبعها فى إرغام الشعوب على الخضوع لها .

وكان من الأمانى الكبرى عند شعب مصر أن تزيد موارد الثروة فى البلاد

ومن أول ما فكرت فيه بعد الثورة إنشاء سد عال يحفظ مياه النيل فى وقت الفيضان ليدخر منها مقادير عظيمة عاماً بعد عام؛ كى تتمكن البلاد بالماء المدخر من توسيع رقعة أرضها الزراعية . واتفقت الحكومة المصرية مع البنك الدولى على إمدادها بقرض تستطيع به البدء فى تحقيق هذا الأمل الكبير. ولكن أساليب الضغط الاقتصادى التى اتبعتها الدول المستغلة حملت البنك الدولى على رفض تقديم القرض بعد أن سبق الاتفاق عليه ، وذلك فى شهر يوليه سنة ١٩٥٦ . فبادر زعيم عهد الثورة جمال عبد الناصر برد تلك الضربة بعد ستة أيام من رفض البنك لتقديم القرض بتأميم قناة السويس، كى تتمكن البلاد من توفير الأموال اللازمة لإقامة السد من موارد القناة — وهى الموارد التى كان ينبغى عدلا أن تصل إلى خزائن مصر، والتى استمر المستغلون على استلابها ما يقرب من قرن كامل من الزمان . ففقدت دول الاستغلال اتزانها عقب هذه الضربة وتخبطت فى سياستها حتى دبرت مكيدة دنيئة قصدت بها أن تباغت مصر بعدوان مسلح يقضى على عهد الثورة ويقضى على كل ما أودعته الأمة فيها من الآمال . فحشدت إنجلترة وفرنسا جيوشهما وأساطيلهما سرًّا وبالغتا فى كتمان حركاتهما وإخفاء مقاصدهما ودفعتا بإسرائيل كى تزحف بجيوشها فجأة على مصر فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وبادرت قوى الدفاع المصرية لمواجهة زحف إسرائيل وابتدأت معركة ظهرت فيها بسالة الروح العربى ووقف جيش إسرائيل حائراً عاجزاً

فأسرعت إليه نجدة فرنسا وإنجلترة ، اللتين بادرتا بقذف ما حشدتاه من قواهما على أرض مصر بعد أن تظاهرتا بمهزلة تدعيان فيها أنهما تريدان أن تقفا بين مصر وإسرائيل لتمنعاهما من الاستمرار فى حربهما حتى لا تهددا الملاحة فى قناة السويس . وظهرت حقيقة المؤامرة سافرة أمام أعين شعوب العالم جميعاً ، وأن إنجلترة وفرنسا هما اللتان دبرتا مكيدة خبيثة ودفعتا إسرائيل لمهاجمة مصر لتتخذاها ذريعة لشن غارتهما بقصد إعادة السيطرة الأجنبية على مصر .

وقد سجل شعب مصر فى هذه الحرب صفحة من أمجد صفحات تاريخه وأنبلها ، فإنه عقد النية على الدفاع عن بلاده شبراً شبراً ، ولم ترهبه القوى الجبارة التى سلطتها عليه الدولتان الاستغلاليتان الطاغيتان .

وخابت محاولة الدولتين فى اقتحام مدخل القناة من ناحية السويس حين هزم الأسطول الذى أقبل إليها من البحر الأحمر .

وخابت محاولتهما فى السيطرة فجأة على شاطئ القناة ، فتركزت المعركة على شواطئ بورسعيد . وصبت الدول الثلاث كل ما لديها من قذائف الموت على المدينة الباسلة فهب شعبها مع قوى الجيش المصرى ليواجه ذلك الاعتداء الفظيع فى بطولة نادرة المثال ، ولم تستطع حشود الدول المعتدية أن تتقدم من الدائرة الضيقة التى نزلت بها على الشاطئ . وبذلت حكومة مصر كل ما فى وسعها فى ذلك الوقت الحرج لحصر الحرب بينها وبين الأعداء فى دائرتها المحدودة حتى لا تؤدى إلى حرب عالمية كانت على وشك

الانفجار وتحملت مصر آلامها وصبرت على جراحها وكفكفت دموعها على فلذات أكبادها الذين فتك بهم غدر الأعداء، حتى اهتز ضمير العالم كله وتدخلت الأمم المتحدة فقررت أن تكف الدول المعتدية عن اعتدائها . وكان لابد لتلك الدول أن تكف عن اعتدائها المنكر على رغم مراوغتها ومماطلتها فى وقف القتال ، فقد أحاطت بها الأخطار من كل جانب ، وأوشكت النكبة التى حاولت إيقاعها بمصر أن تحل بها هى . لقد أوشكت الحرب أن تنقلب إلى حرب عالمية تدمرها أو تدمر العالم كله معها ، فأوقفت نيرانها مرغمة وما يزال السلاح فى أيدى جيش مصر وفى أيدى شعب بورسعيد وسائر المدن والقرى المستعدة للجهاد من أجل حريتها .

وقد ظهرت فى أثناء هذا الاعتداء حقائق خطيرة أصبحت اليوم من أهم الحقائق فى السياسة العالمية، وأولها أن شعوب الأمة العربية جميعاً هبت غاضبة ثائرة ومدت يدها بكل ما استطاعت أن تبذله للجهاد مع الشعب العربى فى مصر . فنسفت أنابيب البترول العربى وأغلقت موارده العربية فى الأقطار العربية جميعاً وهبت الشعوب فى كل وطن عربى لتشارك بأنفسها فى الجهاد، ووقفت وفود الدول العربية فى الأمم المتحدة جبهة واحدة جمعت حولها إرادة الشعوب المحبة للحرية والسلام فى كل بلاد العالم . ولم تلبث شعوب الدول المستغلة أن شعرت بأن السلام فى الوطن العربى ضرورى لسلامتها هى ، فكان صوتها يعلو مع صوت العرب فى إنكار مؤامرات الحكومات المستغلة .

فمنذ وقع الاعتداء الثلاثى على مصر أدرك العالم كله أن فى هذا الوطن العربى الفسيح تعيش أمة عربية شاعرة بقوميتها عازمة عزماً صارماً على الدفاع عن حريتها، متضامنة من أجل ذلك مهما كلفها هذا الدفاع من تضحيات ومن آلام .

ومنذ وقع ذلك الاعتداء صار من المحقق أن وحدة الأمة العربية حقيقة قائمة فى قلوب الشعوب العربية جميعاً، وأنها ستتخذ صورتها الواضحة بغير شك فى يوم من الأيام .

ومنذ وقع ذلك الاعتداء أيضاً برهنت شعوب العالم جميعاً على إنكارها لمحاولات حكومات الاستغلال فى دفع الإنسانية إلى حرب عالمية لن يبقى للمدنية البشرية بعدها وجود .

ولم يمض بعد هذا الاعتداء إلا عامان حتى خطا الشعب العربى فى سوريا ومصر خطوتهما الجريئة فى تحقيق الوحدة التامة واشتركت معهما حكومة اليمن وشعبها فى تكوين الدولة العربية المتحدة .

وهكذا بدأت الأمة العربية سيرها نحو الغاية الطبيعية المقدورة لها ، وهى توحيد اتجاهها وجمع صفوفها لمواجهة حياتها الجديدة .

٤ ـ خيانة الحلفاء الكبرى للعرب

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى كان العالم كله يتوقع انهزام الحليفتين إنجلترا وفرنسا أمام قوى دولتى الاتفاق وهما ألمانيا والنمسا، وكانت ألمانيا تبهر أنظار العالم عند ذلك بقوة معداتها الحربية وبالانتصارات السريعة الأولى التى أحرزتها على جيوش فرنسا التى انهارت أمامها فى أوربا . واشتركت الدولة العثمانية فى الحرب فدخلت إلى جانب ألمانيا . ولاشك فى أن جبهة الحرب فى الشرق الأوسط كانت فى المحل الأول من الخطورة للجانبين المتحاربين لأن المنتصر فيها كان يستطيع السيطرة على قناة السويس . وأحست إنجلترا بالخطر الشديد على دولتها الاستغلالية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تباهى بأن الشمس لا تغرب عنها وكانت تشتمل على الجانب الأكبر من قارة أفريقيا وعلى شبه قارة الهند العظيمة والملايو وقارة أستراليا وزيلاندة وما لا حصر له من الممتلكات الصغرى فى جزائر المحيط وشواطئ البحار . واتجهت أنظارها إلى العرب وهى فى أشد أوقات محنتها لعلهم يساعدونها على الوقوف فى وجه الجيوش العثمانية وحلفائها الأقوياء فأخذت تزين لبعض حكامهم وزعمائهم أن يدخلوا الحرب إلى جانبها على وعد أن تساعدهم على تحقيق استقلال بلادهم وتكوين دولة عربية حرة إذا وضعت الحرب أوزارها. وكانت تقصد كذلك إلى غاية أخرى من استمالة العرب إليها بأن تظهر أمام ملايين

المسلمين من رعاياها الهنود وغيرهم ممن يحاربون فى جيوشها على أنها تحارب فى جانب حرية العرب المسلمين .

وكان اللورد كتشنر الذى قضى عدة سنين فى مصر ممثلا للحكومة الإنجليزية فى مصر قد صار وزيراً للحرب فى إنجلترا فبدأ يتصل بالشريف حسين أمير مكة ليرى مدى استعداده للاتفاق مع الحلفاء فى حربهم ضد الدولة العثمانية .

وقد سبق أن أشرنا إلى خيبة أمل العرب فى إصلاح أحوالهم والتمتع بحريتهم فى نطاق الدولة العثمانية عندما رأوا أن الثورة التركية التى استولت على حكم الدولة العثمانية فى سنة ١٩٠٨ لم تحقق لهم ما كانوا يرجونه منها . وتدل الظواهر على أن الشريف حسين تردد حيناً فى إجابة كتشنر إجابة صريحة خوفاً مما سيكون عليه موقفه من الحرج إذا هو ناصر الإنجليز على العثمانيين المسلمين ، ولم يغب عنه بغير شك مبلغ كراهة شعب مصر العربى للإنجليز وسوء ظن العرب جميعاً بهم ، ونواياهم فى السيطرة على الوطن العربى ومبلغ كراهة الشعوب العربية فى شمال أفريقيا والمغرب لفرنسا حليفة إنجلترا . غير أن تردده لم يجعله يقطع فى الأمر برفض ما عرض عليه كتشنر منذ البداية ، بل بعث إليه يسأله عن الشروط التى تتعهد بها إنجلترا له وللعرب لقاء مساعدتهم لجانب الحلفاء ، وعهد كتشنر إلى السير هنرى مكماهون ممثل الحكومة الإنجليزية فى مصر عند ذلك بالمضى فى مفاوضة الشريف حسين . فتبادل الجانبان رسائل عدة تعرف بمكاتبات

(حسين — مكماهون) .

وقد ساعدت الحوادث على نجاح الإنجليز فى هذه المفاوضات فإن سياسة القائد العثمانى جمال باشا فى سوريا وفلسطين كانت سياسة قمع وقسوة وتنكيل، وبلغ من شدتها أن بلغ عدد المسجونين السياسيين عدة ألوف وبلغ عدد الضحايا الذين قتلوا من العرب عدة مئات .

فقد أدت هذه السياسة الغاشمة إلى تحول مشاعر الوطنيين السوريين والعرب إلى كراهة عميقة لطغيان الحكم التركى ، وحملتهم هذه الكراهة إلى قبول ما عرضه عليهم الشريف حسين من الثورة على الحكم العثمانى على رغم سوء ظنهم الشديد بالدولتين الإنجليزية والفرنسية ونواياهما الاستغلالية، وتاريخهما الطويل المفعم بعداوة العرب والاعتداء على حريتهم.

وبذل الإنجليز فى مفاوضات مكماهون كل ما يغرى الوطنيين العرب من الوعود فى تحقيق استقلال « الأمة العربية » وحريتها . غير أن المستقبل القريب برهن على أن الإنجليز كانوا على عادتهم من الدهاء والاحتيال يبطنون غير ما يظهرون[1] . وأما العرب فإنهم كانوا كذلك على عادتهم دائماً يقدسون الصراحة والوفاء بالوعود . فمنذ تمت المفاوضات بين الشريف ومكماهون أخذ العرب فى تنفيذ ما وافقوا عليه وبدأوا الثورة فى الخامس من شهر يونيه سنة ١٩١٦ .

(١) وهذا ما ظهر جلياً من ثنايا الخطابات المتبادلة بين الشريف حسين ومكماهون وقد تتبعنا نصها كما ورد فى كتاب يوم ميسلون للأستاذ ساطع الحصرى .

ومما يدل على خبث السياسة الإنجليزية أن الإنجليز عقدوا اتفاقاً سرياً آخر مع فرنسا وروسيا فى مايوسنة ١٩١٦ نقضوا فيه كثيراً مما تعهدوا به للعرب . وهو المعروف باتفاق (سيكس — پيكو) ، وفيه قسموا الوطن العربى فيما بينهم وهو الذى وعدوا بتحريره وضمنوا استقلاله للشريف حسين وللوطنيين العرب .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٧ أعلنت الحكومة الإنجليزية فى غير خجل تصريح بلفور الذى يكفل لليهود إنشاء وطن إسرائيلى فى قلب الوطن العربى فذهل قادة الثورة العربية ، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت من أيديهم عند ذلك فقد كانوا دخلوا الحرب وهزموا تركيا فى الحجاز وزحفوا على فلسطين وانتزعوا العقبة من الجيش التركى فى يوليه سنة ١٩١٧ وزحف الأمير فيصل بن الشريف حسين نحو دمشق بمن معه من العرب ، أى أن مصير الحرب مع العثمانيين كان قد تقرر . فلما انتهت الحرب فى نوفمبر سنة ١٩١٨ بالنصر لجيوش الحلفاء، وبدأ المنتصرون يتفاوضون فى شروط معاهدة الصلح ، رأى العرب آمالهم تنهار تحت أعينهم وهم خارجون من الحرب بانتصار باهر . فإن الحلفاء تنكروا للوعود التى قطعتها إنجلترا لهم باسم الحلفاء ، وتبين للعرب عند ذلك مدى ما انطوت عليه نية الإنجليز وحلفاؤهم من الغدر .

وذهب الأمير فيصل فى سنة ١٩١٩ إلى باريس ليحضر فى مفاوضات الصلح فوجد أن المعروض على مؤتمر الصلح هو تضحية حرية

سوريا ولبنان من أجل سيادة فرنسا، وتضحية فلسطين من أجل الصهيونيين، وتضحية العراق من أجل إنجلترا .

وفى ٥ مايو من ربيع سنة ١٩٢١ أتم الحلفاء تقسيم غنائم الدولة العثمانية فى معاهدة (سان ريمو) بين فرنسا وإنجلترا وتركت الصهيونية لتمهد لمشروع دولتها المغصوبة تحت ظل العلم الإنجليزى .

فكانت تلك خيانة كبرى من الحلفاء للعرب وهى أساس الكوارث التى لحقت بالأمة العربية وما تزال إلى اليوم تخلف لها أكبر مشكلاتها .

٥ ـ الموقف فى سوريا

فى الوقت الذى كان فيه شعب مصر يواجه جيوش الإنجليز الجرارة بصدره الأعزل فى ثورته الكبرى فى مارس سنة ١٩١٩ ، كان شعب سوريا كذلك يواجه خيانة الحلفاء الكبرى التى بدأت تتكشف له فى وضوح، وكان أول دلائلها احتجاج فرنسا على إنجلترا على تغلغل الجيوش العربية فى البلاد السورية ، كأن هذه الجيوش العربية لم تكن هى الأداة فى انتصار الحلفاء على جيوش الدولة العثمانية واستيلاء الحلفاء على كل الأقاليم السورية واللبنانية. ولم تستطع إنجلترا إغضاب حليفتها فأمرت الأمير فيصل بن الحسين قائد الجيوش العربية بترك السواحل الفرنسية وتسليمها إلى الجيوش الفرنسية . فكان ذلك أول تنفيذ لاتفاقية (سيكس ـ پيكو) التى

عقدت خلسة من وراء ظهور العرب بين فرنسا وإنجلترا وروسيا فى عام ١٩١٦ .

ولم يجد فيصل بدّاً من تنفيذ هذا الأمر فنزلت جيوش فرنسا فى بيروت فى ٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ ثم انطلقت تنزل جيوشها على شواطئ لبنان وسوريا .

وتلا هذه الضربة ضربة أشد منها حين قسمت بريطانيا إقليم سوريا إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة إدارات عسكرية ، إحداها إدارة المنطقة الشرقية (سوريا وشرق الأردن) والثانية إدارة المنطقة الغربية (السواحل) والثالثة المنطقة الجنوبية (فلسطين) وكان نصيب فيصل مقصوراً على إدارة المنطقة الشرقية .

ولم يمض عام على هذه الضربة الثانية حتى وقعت الضربة الثالثة إذ اتفقت إنجلترا وفرنسا فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٩ على تعديل فى توزيع هذه المناطق أدى إلى استيلاء فرنسا على كل ما نصت عليه اتفاقية (سيكس — پيكو) السرية ومنها سوريا .

فثارت ثائرة الوطنيين العرب وأعلنوا عزمهم على مقاومة ذلك الغدر بالقوة وهبت الثورة فى بعض أنحاء سوريا .

ولجأ الوطنيون العرب إلى وسائل السياسة مؤملين أن ينصرهم الرئيس الأمريكى (ولسن) الذى كان قد أعلن مبادئه الإنسانية عقب انتهاء الحرب وحسب الناس جميعاً أن العالم سيبدأ عهداً جديداً بإقامة العلاقات الدولية على أساس العدالة وحرية الشعوب ، وقد لاقت مساعيهم بعض

النجاح فى أول الأمر حين بعث ولسن بلجنة استفتاء تستطلع آراء أهل سوريا ولبنان وفلسطين فى الحكم الذى يرضونه لأنفسهم . وأعد الوطنيون عدتهم لعقد مؤتمر عام يجتمع فيه الزعماء لتوحيد صفوف الشعب عند وصول لجنة الاستفتاء إلى البلاد ، وكان أول اجتماع له فى ٣ يونيه سنة ١٩١٩ .

أما الأمير فيصل فإنه ذهب إلى فرنسا ليكون قريباً من أقطاب الحلفاء وهم مجتمعون للمفاوضة فى شروط الصلح فى فرساى .

وأعلن مؤتمر العرب قراراته فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان فى صدرها إعلان استقلال سوريا وتنصيب الأمير فيصل ملكاً دستورياً عليها ، وكانت حدود سوريا التى بينها قرار الاستقلال تشمل السواحل وفلسطين جميعاً ، فكان هذا القرار مقدمة للاصطدام العنيف بين الوطنيين العرب وبين فرنسا التى ادعت لنفسها الحق منذ معاهدة (سيكس — پيكو) فى الاستيلاء على سوريا الكبرى وعلى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى (كليليكيا) ..

وكان لإعلان قرارات هذا المؤتمر وقع شديد على ساسة إنجلترا وفرنسا جميعاً ، وإن كان وقعها على فرنسا بلغ حد الخطورة ، فبذلت الحكومة الفرنسية كل جهدها فى معاهدة (سان ريمو) (أبريل سنة ١٩٢٠) لتحصل على ما سماه الساسة فى ذلك الوقت بالانتداب على سوريا ولبنان كما حصلت إنجلترا على الانتداب فى فلسطين . فزاد هياج الشعب العربى فى أنحاء البلاد جميعاً وتبين له آخر الأمر مدى الخيانة التى تآمر فيها حلفاء الأمس على حرياته . وتألفت وزارة سورية جديدة عهد إليها واجب الدفاع

عن استقلال البلاد فى ٣ مايو سنة ١٩٢٠ ، وعزم الملك فيصل على السفر مرة أخرى إلى أوربا ليسعى إلى تلافى الأزمة المتوقعة عن طريق المفاوضة مع كبار ساسة الحلفاء فى باريس .

وكان الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة قد انسحب غاضباً من مؤتمر الصلح وعاد إلى بلاده خائباً عندما تحقق من أن ساسة الحلفاء يضربون بمبادئه عرض الآفاق ، وأظهر قائد الجيوش الفرنسية فى سوريا حقيقة نواياه فلم يسمح بمرور الملك فيصل من مدن الساحل التى يسيطر عليها ، وأرسل فى ١٨ يوليه سنة ١٩٢٠ إنذاراً نهائياً إلى الحكومة السورية يأمرها بقبول الانتداب الذى قررته معاهدة (سان ريمو) وبإلغاء كل تدبيرات الدفاع التى بدأت الحكومة فى اتخاذها لحماية الاستقلال تنفيذاً للسياسة التى عهدت إليها منذ ٣ مايو .

ولم يلبث الموقف بين سوريا وفرنسا أن انهار فى سرعة عجيبة وكانت الأعمال التى قام بها (غورو) القائد الفرنسى تدل على أن فرنسا قد عقدت النية على غزو سوريا . ثم وقعت معركة (ميسلون) التى استشهد فيها وزير الحربية يوسف العظمة فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٠ واضطر الملك فيصل إلى مغادرة سوريا ذاهباً إلى أوربا فلم يعد بعدها إلى تلك البلاد ، وكان استقباله فى أوربا فاتراً ولم يعترف أحد من ساسة الحلفاء بأنه ملك ، بل عاملوه على أنه ابن ملك الحجاز الشريف حسين .

واتبعت فرنسا فى حكم سوريا سياسة تشبه سياسة الصليبيين حين

قسمت سوريا إلى أربعة أقسام (سوريا ولبنان واللاذقية وجبل حوران) وكانت تقصد بذلك إيقاع الفرقة بين أبناء الشعب العربى كما تتمكن من التحكم فى الجميع . غير أنها لم تستطع أن توطد حكمها فى البلاد فهبت ثورة فى عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ وكان رد فرنسا الشنيع إطلاق القذائف الضخمة على دمشق أقدم مدينة مأهولة فى العالم . غير أنها لجأت بعد ذلك إلى المداهنة فسمحت بانتخاب جمعية تأسيسية فى سنة ١٩٢٨ لوضع دستور للبلاد ولكنها رفضت ذلك الدستور عندما تم وضعه . وتعاقبت ثورات الشعب السورى على فرنسا خلال السنوات العشر التالية حتى اضطرت الدولة الغاصبة إلى الاعتراف باستقلال الشعب المجاهد فى معاهدة بقيت مهملة مدة طويلة حتى وافقت الحكومة الفرنسية مرغمة على الجلاء عن سوريا بعد مصادمات عنيفة وذلك فى عام ١٩٤٥ . غير أن المؤامرات الفرنسية على سوريا لم تنقطع بعد جلائها عن أرضها كما لم ينقطع ضغطها المالى والاقتصادى عليها .

وقد خلقت سياسة التفرقة التى اتبعتها فرنسا فى حكم سوريا نتائج شتى أدت إلى تشتت فى وحدة صفوف المجاهدين الذين وقفوا صفًّا واحداً أمام قوى الاستغلال عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وكان من أكبر المشكلات التى تخلفت من هذه السنوات المضطربة المليئة بضروب الخيانة والمؤامرات نكبة فلسطين العربية التى بدأت مشكلتها تستفحل منذ أيام الحرب عندما أعلن بلفور وعده بإنشاء وطن قومى لليهود

فى أرض فلسطين عام ١٩١٧ ، ولما سيطرت إنجلترا على فلسطين بعد قرار انتدابها عليها وجدت مكايد الصهيونية بيئة صالحة لها تحت حماية الانتداب الإنجليزى ، فما أتى عام١٩٤٥ حتى استطاعت أن تكشف القناع عن مطامعها ومؤامرتها على حياة شعب فلسطين وحرياته .

وقد ظهرت نتائج تلك المجموعة من المكايد التى تعاونت عليها فرنسا وإنجلترا والصهيونية فى الحرب التى أثيرت فى عام ١٩٤٨ وما تخللها من خيانات ، وما أعقبها من تشريد مليون عربى من أهل فلسطين واغتصاب أرضهم وإقامة عدو فى قلب الوطن العربى ليكون تكأة لدول الاستغلال تستخدمها فى مواصلة مؤامراتها ومكايدها ضد أبناء الأمة العربية . وقد ظهرت نية دول الاستغلال واضحة فى مؤامرة غزو مصر فى عام ١٩٥٦ ، فأدرك العرب جميعاً مدى التهديد الخطير الذى يهدد حياتهم وحرياتهم وهبوا جميعاً للدفاع عن العروبة فى معركة القناة وكان شعب سوريا فى مقدمة الشعوب العربية التى هبت لهذا الدفاع وكان جهاده من أكبر العوامل على انتصار شعب مصر .

وأدرك كل من شعبى سوريا ومصر أن وجودهما يتوقف على ما يبديانه من الحزم وقوة الإرادة فى ضم صفوف العرب لمواجهة الأخطار العامة التى تهددهم جميعاً ، فاجتمعت إرادتهما على تحقيق أعظم خطوة فى توحيد الأمة العربية بإقامة الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير عام ١٩٥٨ كما مر ذكره .

٦ ــ الموقف فى لبنان

كان لبنان دائماً مرتبطاً بمصير كتلة الشعوب العربية الشقيقة فى الشرق فكان يشاركها فى كل ما يواجهها من الحوادث منذ أقدم العصور ، وكان من أول الأوطان التى استقر فيها العرب خارج الجزيرة العربية قبل الإسلام فإلى هناك نزح الفينيقيون الذين أقاموا مدنيتهم على سواحل البحر الأبيض وهم أبناء عمومة العرب أو هم عرب خلص نزحوا إلى شواطئ البحر الأبيض من أقاليم الخليج العربى قبل الميلاد بعشرات من القرون ، وتوالت موجات أخرى من الجنس نفسه على شواطئ لبنان ، فلم يمكن تمييزهم عن إخوانهم فى دواخل الإقليم سوى أنهم يقيمون على السواحل وما يحيط بها من سفوح الجبال العالية . فهم واجهوا غزوات الإسكندر ، كما واجهها إخوانهم فى سوريا ومصر وهم واجهوا غزوات الروم كما واجهها هؤلاء . واستمر لبنان مرتبطاً بمصير جيرانه حتى شملته الدولة العربية فشارك أبناؤه سائر الأمة العربية الجديدة فى بناء الحضارة العربية العظمى كما شاركوهم الانضواء تحت سيطرة الدولة العثمانية الشاملة إلى أن قامت الحرب العظمى .

وفى أثناء الحرب العظمى كان الشعب اللبنانى يشاطر الشعوب العربية المنضوية تحت الحكم العثمانى مشاعرها وأمانيها كما كان يشاطرها الجهاد

فى سبيل التحرر من سيطرة العثمانيين ، فلما انتهت تلك الحرب بانتصار الحلفاء كما سبق وصفه فى الفصل السابق تعرض لبنان لآثار الخيانة الكبرى التى أقدم عليها الحلفاء بعد انتصارهم ، فكان لبنان جزءاً من الغنائم التى وزعوها فيما بينهم فأصبح منذ سنة ١٩٢٠ داخلا فى المنطقة الخاضعة للانتداب الفرنسى ، وهى تشمل سوريا واللاذقية ولبنان وحوران . وقد حاولت فرنسا تدعيم سيطرتها على لبنان بسياسة التفرقة بين أهل هذه الأقسام الأربعة وتذرعت فيما تذرعت به باختلاف الدين بين بعضهم وبعض ، غير أن الأقاليم الأربعة لم يلبثوا أن كشفوا خدعتها وصاحوا جميعاً بشعار واحد : « الدين لله والوطن للجميع » ولم يسع فرنسا إزاء خيبة سياستها إلا أن تعقد مع لبنان معاهدة فى سنة ١٩٣٦ تشبه معاهدتها مع سوريا فى الوقت عينه وكان مصير تلك المعاهدة مثل مصير المعاهدة السورية فلم يوافق عليها البرلمان الفرنسى . فلما هزمت فرنسا فى الحرب العالمية الثانية أمام قوى ألمانيا الجبارة وخضعت الحكومة الفرنسية للاحتلال الألمانى ، وتكونت هيئة المقاومة التى تزعمها الجنرال ديجول باسم (فرنسا الحرة) كان لبنان من البلاد التى ساندت حرية فرنسا المنهارة وعقد مع القائد الممثل لفرنسا الحرة معاهدة أعلن فيها استقلال لبنان فى سنة ١٩٤١ . غير أن الحال لم تلبث أن تبدلت بعد سنتين حين تجددت آمال الحكومة الفرنسية فى الانتصار ، فألغى القائد الفرنسى دستور سنة ١٩٤١ وقبض على زعماء الوطنيين ومن بينهم رئيس الجمهورية ، وأظهرت فرنسا بذلك مدى عجزها

عن الاعتراف بالجميل للشعوب التى وقفت تسندها فى أشد أوقات محنتها ، وكان لهذا المسلك الذميم أثر بالغ فى نفوس شعب لبنان ، فرفض الانتداب الفرنسى وبدأ حركة مقاومة عنيفة انتهت فى سنة ١٩٤٦ بخروج الفرنسيين مدحورين من البلاد .

وقد برهن لبنان منذ استقلاله على صدق عروبته بقدر ما برهن على حرصه على استقلاله وحريته ، فكان يقف إلى جانب الشعوب العربية الأخرى فى كل مصاف تجاه أعدائها ، فوقف أمام إسرائيل فى حرب سنة ١٩٤٨ ووقف بحماسة إلى جانب مصر فى عام ١٩٥٦ .

وقد شهدت أمم العالم جميعاً كيف هب شعب لبنان يكافح عن حرياته واستقلاله وعروبته عندما حاولت دول الاستغلال إعادة سيطرتها عليه فى الوقت الذى هددت فيه حريات شعب العراق عندما ثار ثورته الكبرى فى يوليه عام ١٩٥٨ .

فتاريخ لبنان الحديث منذ قيام الحرب العالمية الأولى إلى اليوم دليل قاطع على أن الشعوب العربية جميعاً تعرف أن سبيلها إلى الحياة الكريمة والحرية هو السبيل الذى يوحد صفوفها وأنها تشعر شعوراً عميقاً بالصلات التى لا يمكن أن تفصم والتى تربط بعضها ببعض منذ قرون طويلة مضت ، بلغت فيها معاً ما بلغته من مجد وحضارة ، وقاست فيها معاً ما قاسته من الكوارث ، وأنها تستقبل معاً عهداً جديداً لا تستطيع مواجهته إلا وهى متعاونة معاً .

٧ – الموقف فى العراق

كان الشعب العراقى هدفاً آخر للخيانة الكبرى التى ارتكبها الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد شارك فى الثورة على الحكم العثمانى وضحى بدمائه وأمواله فى سبيل انتصار الحلفاء وهو يعلل نفسه ببلوغ أمنيته الكبرى فى الاستقلال والحرية بعد أن تخمد نيران تلك الحرب . غير أن الحلفاء كانوا يعلمون أنهم يتعاملون بوجهين فيقابلون العرب بوجه ويخلو بعضهم إلى بعض بوجه آخر . كانت إنجلترا تفاوض فرنسا فى اقتسام الوطن العربى فى الوقت الذى كانت تفاوض فيه الشريف حسين فى تحقيق أمانى العرب فى الحرية والاستقلال. وكانت نتيجة هذا النفاق السياسى فيما يتصل بالعراق أن الدولتين الحليفتين عقدتا مع حليفتهما الثالثة عند ذلك – روسيا – معاهدة (سيكس – پيكو) فى مايو سنة ١٩١٦ وقد مر ذكرها ، وكان العراق فيها من نصيب إنجلترا .

ولابد لنا هنا من ذكر حقيقة لها أهمية خاصة فإن الإنجليز بعد أن فرغوا من عقد هذه الاتفاقية بدأوا يمهدون لها مع العرب ليحملوهم على قبولها ففاتحوا فيها الشريف حسين فلما عرضوا عليه ما يدبرونه للعراق ، تردد طويلا ثم وافق آخر الأمر فقال « إنه رغبة منا فى تسهيل الاتفاق ، قد نوافق على أن نترك الآن – لمدة قصيرة – الأراضى التى تحتلها الجيوش

الإنجليزية (ومنها العراق) لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة ».

وقد ارتاح المفاوض الإنجليزى لهذا التساهل ارتياحاً عظيماً أظهره فى كتابه الأخير الذى بعث به إلى الشريف حسين بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ إذ قال :

« والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل هذه القضية المهمة ، فإننا نرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالغبطة والسرور.

وقد سررنا جداً بالحركة التى تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا ونترك لفطنتكم تقدير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه »[١] .

فلما انتهت الحرب إلى انتصار الحلفاء ولم تبق لهم من حاجة إلى ولاء العرب كشفوا القناع عن نواياهم فى تمزيق الوطن العربى وعلم شعب العراق أنه كان هدفاً لخيانة ماكرة فى اتفاق (سيكس پيكو)وأن الإنجليز جعلوه نصيبهم من الغنيمة فوضعوه تحت انتدابهم أو بقول آخر هبطوا به إلى مرتبة التبعية والحماية . فهب ثائراً فى الوقت الذى كانت فيه سائر الشعوب العربية تضطرم بالثورة . كانت مصر عند ذلك تغلى وتقذف بالحمم على جيوش إنجلترا وكانت سوريا تحشد أبناءها لمواجهة جيوش الفرنسيين .

(١) نقلا عن كتاب « يوم ميسلون » للأستاذ الكبير ساطع الحصرى .

ووجد الإنجليز أنهم يواجهون مشكلة جديدة فى العراق فوق مشكلاتهم الكثيرة وأرادوا أن يجدوا منها مخرجاً سريعاً وأتاحت لهم الظروف حلاً مناسباً فقد كان الأمير فيصل عند ذلك فى أوربا يحاول أن يستعيد عرشه المسلوب فى سوريا ، فعرضت عليه إنجلترا أن توليه ملكاً على العراق وتمت الموافقة على ذلك فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ . وبمقتضى هذا الاتفاق نزلت إنجلترا عن حكمها العسكرى فى العراق على أن تعقد مع الملك فيصل معاهدة تكفل لها السيطرة على شئون البلاد .

وكان ذلك الحل مرضياً لفيصل كما كان مرضياً لشعب العراق على أنه سيزيل عن كاهله عبء الانتداب الذى فرضته عليه إنجلترا . وكانت شخصية الملك فيصل وعلاقته الوثيقة بحلفائه الإنجليز تحول دون وقوع تصادم خطير بين الحكومة العراقية الجديدة وبين الحكومة الإنجليزية ، ولكن هذه الشخصية لم تبق فى الحكم طويلا ولم يلبث الموقف أن عاد إلى خطورته بين شعب العراق ودولة الانتداب فى مدة حكم الملك غازى بن فيصل . غير أن مدة حكم هذا الملك الشاب لم تطل كذلك فقضى نحبه فى حادثة يحيط بها الغموض وثارت حولها شكوك كثيرة إذ بدا من ذلك الملك ما يدل على طموحه إلى الاستقلال بحكم بلاده . وكان ولى عهده ما يزال طفلا وهو الذى صار فيما بعد الملك فيصل الثانى ، فعين خاله الأمير عبد الإله وصياً عليه حتى يبلغ الرشد وكان ذلك الوصى من أشد أفراد الأسرة الملكية ولاء لإنجلترا ولم تكن له شخصية قوية

مثل شخصية الملك فيصل الأول .

في عام ١٩٣٠ عقدت معاهدة جديدة بين العراق وإنجلترا تنطوى شروطها على ما جعل حكم العراق شبيهاً بأن يكون اعترافاً بالانتداب الإنجليزى .

فعاد القلق يستولى على الشعب وزعمائه من الوطنيين الذين توجسوا خيفة من تغلغل النفوذ الأجنبي فى حكم بلادهم وتوالت الحكومات التى كان كل منها لا يبقى فى الحكم إلا مدة قصيرة وكان حكم الكثير منها ينتهى بانقلاب فجائى يدل على التوتر الشديد بين الحاكمين والشعب . وقد ظهر أثر سياسة الوصى على العرش واضحاً فى أثناء حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ إذ كانت الشقة واسعة بين حماسة الشعب لمناصرة شعب فلسطين العربى وبين تراخى الحكومة فى مجهودها الحربى ، ثم ظهر ذلك الأثر مرة أخرى عندما اتفقت الحكومة العراقية مع إنجلترا على إنشاء حلف بغداد فى سنة ١٩٥٥ ليكون أداة دفاعية عن مصالح إنجلترا وحلفائها فى الشرق الأوسط ، مع أن الدفاع عن المصالح الإنجليزية يصطدم مع مصالح الشعوب العربية .

ولما بلغ الملك فيصل سن الرشد استمرت سياسة عبد الإله الموالية للإنجليز وكان من أشد أنصار تلك السياسة نورى السعيد الذى تولى الوزارة مراراً عدة كلما دعا الأمر إلى إحداث انقلاب فى الحكم للمحافظة على ولاء حكومة العراق للسياسة الإنجليزية .

وقد بلغ تحدى عبد الإله والساسة الملتفين حوله لمشاعر شعب العراق ذروته عندما تمت الوحدة بين شعبي مصر وسوريا فى فبراير سنة ١٩٥٨ فكان رد الحكومة العراقية على وحدة القطرين العربيين الشقيقين إنشاء وحدة أخرى معارضة بين العراق والأردن .

فلم يبق أمام الوطنيين العرب فى العراق إلا سبيل واحد لتلافى ما تجره هذه السياسة على مصير الأمة العربية وهوسبيل الثورة . فنى يوليه سنة١٩٥٨ هبت ثورة الجيش العراقى العظيمة تدعمها مشاعر الشعب العراقى عامة وأطاحت فى غضبتها الجارفة بعبد الإله وبنورى السعيد نفسه وبالعرش الهاشمى والأسرة الملكية ، وأعلنت منذ ذلك التاريخ أول جمهورية عربية فى العراق .

وما تزال جمهورية العراق الجديدة إلى يومنا هذا تواجه الموقف الذى خلفته لها سلسلة الحوادث الخطيرة التى بدأت منذ مطالع هذا القرن كما تواجه مخلفات قرون عدة سابقة .

فهى إلى اليوم ما تزال فى دور هام من أدوار حياة الشعب العراقى بخاصة والأمة العربية بصفة عامة،وما تزال غلالة من أثر المعركة الماثلة تحيط بها نرجو أن تنجلى قريباً عن الشعب العراقى الحر الذى هب ليحقق أمنيته الكبرى فى جمع صفوف الأمة العربية لتواجه معاً مواقف المستقبل المشترك كما واجهت معاً مواقف الماضى المشترك .

٨ ـ الموقف فى الأردن

إذا أمكن أن نتصور ذراعاً تفصل من جسم لتعيش وحدها أو غصناً يقطع من شجرته لينمو ويثمر وحده جاز لنا أن نتصور قيام دولة مستقلة فى هذه القطعة من الوطن العربى . فالأرض التى تسمى اليوم بمملكة الأردن كانت وما تزال ذراعاً لا يتجزأ عن جسم هذا الوطن العربى أو هو غصن لا يمكن أن ينفصل عن دوحة الأم العربية . كانت هذه الأرض قطعة من أرض العرب منذ أقدم العصور وإن اختلفت الأسماء التى كانت تطلق عليها فى كل عصر منها . فسواء كانت قطعة من أرض جلعاد أو من أرض مواب أو من دولة بطرة، فقد كانت على مر القرون جانباً متمماً لكيان الوطن العربى خارج الجزيرة العربية . وهو أول مهبط هبط إليه العرب من جزيرتهم حين خرجوا لنشر دعوتهم الإسلامية فى القرن السابع الميلادى ،ومنذ ذلك الحين لم يكن إلا قطعة من بلاد الشام تتمثل فيها الحياة العربية البدوية كما تتمثل فى بوادى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا . هناك ذهبت الجيوش العربية أول ما ذهبت وراء حدود الجزيرة العربية وهناك أحرزت كتائب العرب أول انتصاراتها على جيوش الروم وكانت هذه الانتصارات أول خطواتهم فى إنشاء الدولة العربية الكبرى وفى تكوين الأمة العربية الجديدة .

فلسنا نبعد عن الحق حين نقول إن هذه الأرض التى نعرفها اليوم باسم دولة الأردن كانت عتبة الدولة العربية الأولى ولها من المكانة فى نفوس الأمة العربية الحالية ما للأقاليم التاريخية التى ترفرف على جوها ذكريات مجيدة عزيزة عليها . فأرض الأردن إنما تستمد وجودها ومكانتها وأهميتها من تاريخها الطويل كقطعة حيوية من الوطن العربى الذى يحتويها ويضمها من كل جهاتها كما تضم الأم وليدها . وقد تعاقبت الدول على حكم الأمة العربية وأرض الأردن فى كل عصر وكل دولة باقية كقطعة من القطر الذى كان يطلق عليه اسم الشام ، وكان أهل هذه الأرض وما يزالون إلى اليوم فى حياتهم وأسلوب معيشتهم وأنسابهم ومفاخرهم ينتمون إلى أمتهم بقلوبهم وعقولهم كما ينتمون إليها فى أعماق طباعهم وعقائدهم .

فليس أعجب من أن تكون أرض الأردن دولة قائمة بنفسها أو أن يكون أهلها شعباً منفصلا عن أشقائهم الذين يماثلونهم تماثل الماء القراح بالماء القراح أو أن يكون لها عرش يناصب الشعوب العربية العداء .

وقد بدأت الأعجوبة منذ قامت الحرب العالمية الأولى ، فقد خلفت للأمة العربية طائفة من الأعاجيب التى كونت فيما بعد تلك المشكلات التى تتبعنا صورها فى حديثنا عن الأقطار العربية المختلفة .

ولا حاجة بنا أن نعيد هنا ما سبق لنا ذكره عن حوادث الثورة العربية على الحكم العثمانى ، وعن معاهدة سان ريمو التى تمثلت فيها خيانة الحلفاء الكبرى للعرب وبتقسيم بلادهم التى كانت خاضعة للحكم

العثمانى بين دولتى إنجلترا وفرنسا ، وحسبنا أن نذكر إحدى مآسيها إذ جعلت فلسطين والأردن معاً قطعة واحدة تحت الانتداب الإنجليزى .

ولما عوضت إنجلترا الملك فيصل بملك العراق عن عرش سوريا الذى فقده بعد اعتداء فرنسا ، عينت أخاه الأكبر عبد الله بن الحسين أميراً على الجانب الشرقى من الإقليم الذى انتدبت عليه وأطلقت عليه اسم (إمارة شرق الأردن) .

ولم يكن فى حسبان أحد أن هذه الإمارة ستصبح فى يوم من الأيام مملكة قائمة بذاتها فإن إقليم شرق الأردن كان طوال تاريخه قطعة من الشام ويعتمد فى حياته على أنه جزء منها فلم تكن موارده الخاصة كافية لإقامة دولة مستقلة لها حكومة وبرلمان وأمير وجيش وسائر ما تضطلع به الدول من الأعباء . ولم يكن عدد أهل شرق الأردن عند ذلك يزيد على نصف مليون من الشعب العربى . غير أن إنجلترا اعترفت به كدولة مستقلة فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٣ .

وكانت إنجلترا تتولى الإنفاق على هذه الدولة التى صنعتها لقاء سيطرتها التامة على شئونها . غير أن الشعوب العربية الأخرى حرصت مع ذلك أشد الحرص على شد أزر الدولة العربية الجديدة على رغم أنها دولة مصنوعة كيلا تسمح لإنجلترا باتخاذ الإقليم وسيلة للهجوم على الأمة العربية ، فلم تتردد الحكومات العربية فى سنة ١٩٤٥ فى قبوله عضواً فى الجامعة العربية على أنه دولة مستقلة . وفى العام التالى عقدت

إنجلترا معاهدة مع الأردن فى عام ١٩٤٦ اعترفت فيها باستقلال الأردن التام واتخذ الأمير عبد الله لنفسه لقب ملك شرق الأردن . غير أن الأحوال بقيت هناك على ما كانت عليه من قبل وكان الإنجليز يسيطرون على الحكم سيطرة كاملة . فلما شبت حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ كان موقف الحكومة الأردنية الخاضعة للإنجليز موقفاً مريباً ، وكانت نتيجة تلك الحرب الكارثة ضم قطعة من أرض فلسطين فى غرب نهر الأردن إلى مملكة شرق الأردن وأصبح اسم الدولة الجديدة « المملكة الهاشمية الأردنية » وكانت نتيجة هذه الزيادة مضاعفة عدد سكان الدولة الجديدة فأصبح نحو مليون ونصف كما زادت مواردها بما أضيف إليها من أرض فلسطين .

ولم يكن عجيباً أن تصطدم الدولة الجديدة بمشكلات كبرى زادت الموقف فيها تعقيداً ، فإن الشعب الفلسطينى الذى ضم إليها عقب انتهاء حرب فلسطين كان عميق الشعور بما أصاب وطنه من النكبات فى حرب إسرائيل، وما قاساه أهله من الشدائد وما وقع لهم من المآسى على أيدى الصهيونية التى لم ترع عهداً ولم تعرف فى اعتدائها معنى للإنسانية .

فأصبحت حكومة الأردن تسيطر على شعب ثائر تتقد مشاعره بآثار ما قاساه، وبالرغبة فى العودة إلى وطنه العزيز الذى اغتصبه الأعداء الجناة . وكان من نتائج هذه الثورة النفسية اغتيال الملك عبد الله فى القدس فى ٢٠ يوليه سنة ١٩٥١ .

وتولى عرش الأردن من بعده ابنه طلال ، غير أنه لم يبق فى الحكم طويلا بل اعتزل فى مايو عام ١٩٥٣ لضعف قواه العقلية وتولى بعده ابنه الشاب الملك حسين ، الذى لم يلبث أن شعر بما ينطوى عليه الشعب من الثورة فلم يسعه إلا أن يسايره فى ثورته فى عام ١٩٥٦ حين هب لإزاحة سيطرة الإنجليز على البلاد . وقرر إلغاء المعاهدة التى عقدها جده الملك عبد الله معهم فى سنة ١٩٤٦ .

غير أن الأمور لم تكن لتستقر على مثل هذا الوضع ولم يكن من اليسير بناء قصر من الرمال ، فكيف يمكن لدولة الأردن وهى مملكة مستقلة أن تستمر بغير أن تتلقى إعانة تواجه بها ما تحتاج إليه من نفقات ما دامت مواردها لا تكفى لإقامة الدولة المستقلة ؟ عند ذلك كشفت المعضلة عن وجهها الحقيقى فإن دولة الأردن لم تنشأ إلا كى تكون دولة خاضعة لإنجلترا تستمد منها كل مقوماتها وكل تمويلها ، فإذا نحيت إنجلترا عن التدخل فى شئونها وأوقفت مساعدتها المالية لها كان لابد لها من أحد مسلكين فإما أن تعود إلى وضعها الطبيعى فتكون مرة أخرى قطعة من أمها سوريا وإما أن تتساند الدول العربية فيما بينها على إمدادها بالمال لتكون دولة مستقلة . وقد اتفقت الدول العربية الشقيقة على المسلك الثانى بعد مفاوضات كثيرة واجتماعات بين رؤساء الدول العربية .

غير أن ذلك الاتفاق ما كاد يعقد حتى عادت الحكومة الأردنية فسارعت إلى الاتصال بالدول المستغلة الغربية للعودة إلى ما كانت عليه

الأمور قبل عام ١٩٥٦ . وبهذا عاد موقف الأردن إلى ما كان عليه، تسيطر عليه إنجلترا وتوجه سياسته لقاء الإعانة التى يستطيع بها إقامة حكومته والإنفاق على جيش قائم تسيطر عليه بطبيعة الحال قيادة إنجليزية .

٩ ـ انتصار الشعب فى ليبيا

بقى جهاد شعب ليبيا الباسل مثل شعلة تضىء للأمة العربية منذ السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى ـ أى منذ سنة ١٩١٥ واضطرت جيوش إيطاليا فى طرابلس أن تنسحب إلى رقعة ضيقة محصورة من الساحل كما مر ذكره

ولم تكن تلك الجيوش آمنة فى مقبعها بهذه الرقعة الضيقة، إذ كانت هجمات العرب تتوالى عليها حتى اضطرت فى سنة ١٩١٩ إلى عقد معاهدة مع زعيم المجاهدين فى طرابلس وهو رمضان الشتيوى أو رمضان السويحلى على أن يعلن الوطنيون جمهورية مستقلة هناك . كما اضطرت من قبل منذ سنة ١٩١٧ إلى مفاوضة زعيم السنوسيين المحاربين فى برقة وهو السيد محمد إدريس السنوسى (وهو الآن ملك ليبيا المستقلة) بقصد إيقاف الحرب المشتعلة فى سباسب برقة الفسيحة ، وانتهت هذه المفاوضات باتفاق أبريل سنة ١٩١٧ .

وكان الإيطاليون مثل سائر أبناء الدول المستغلة يضمرون فى أنفسهم الغدر منذ البداية ، ويعملون على إعادة الهدوء فى البلاد كى يتمكنوا من إيقاع الفرقة بين المجاهدين فى طرابلس وبرقة جميعاً بطرق دول الاستغلال المعهودة . وأخذت إيطاليا تحشد الجنود مرة أخرى بعد عقد هاتين المعاهدتين استعداداً للخطوة الغادرة التى تضمر القيام بها فما جاء عام ١٩٢٢ حتى بدأت تكشف عن نواياها ، وأخذت تعيد الكرة على المجاهدين فى كل مكان من حدود تونس إلى حدود مصر . وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت منذ سنة ١٩١٨ وتغيرت الأحوال فى إيطاليا بتولى الحاكم بأمره موسولينى على حكم إيطاليا فى أواخر سنة ١٩٢٢ .

وكانت نقطة البداية لتجدد الهجوم الإيطالى هى اتفاق جبهتى المجاهدين الوطنيين فى طرابلس وبرقة على توحيد صفوفهما والاعتراف بالسيد محمد إدريس السنوسى أميراً على ليبيا جميعها فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

وأحس الأمير إدريس بنوايا إيطاليا فى الغدر فسافر سرًّا إلى واحة الجغبوب ومنها إلى مصر ليستعد للجهاد المقبل الذى كان لابد منه ، وترك فى ليبيا بعض أهله الأقربين ليقوموا على حركة الجهاد فى داخل البلاد . ولم يأت شهر مارس سنة ١٩٢٣ حتى جدد الإيطاليون هجومهم على المجاهدين فى ميدانى طرابلس وبرقة ونقضوا بذلك كل العهود التى قطعوها على أنفسهم فى معاهدتى سنة ١٩١٧ (ببرقة) وسنة ١٩١٩ (بطرابلس) .

ولسنا نستطيع أن نصف فى هذا الحديث الموجز ما كان من تقلبات

الحرب بين الجانبين من نصر وانهزام منذ استأنفت إيطاليا هجومها ، وحسبنا أن نقول إن جهاد العرب كان مثالا رائعاً من البسالة مع كل ما كان يعرقلهم من قلة العدد والمال وقلة السلاح وضعفه ، على حين كانت إيطاليا قد جردت للمعركة الطاحنة مئات الألوف من الجند وكل ما لديها من عدد الحرب ومن الأموال . ولم يكن أقل أسلحة إيطاليا ما مهرت فيه دول الاستغلال من المكر والدهاء والكيد وإيقاع الفرقة بين المجاهدين . وكان أول الكوارث موت (رمضان الشتيوى) زعيم الجهاد فى طرابلس فى معركة داخلية مع أحد الزعماء المنافسين . ولسنا نبرئ إيطاليا من تحريك هذه المنافسة وإيقادها ضد مجاهد طرابلس الكبير . وقد فقدت ليبيا بموت رمضان الشتيوى شخصية كبيرة ممتازة . واعتبر الإيطاليون موته فوزاً كبيراً لخططهم الحربية المقبلة .

وتوالى انتصار الجيوش الإيطالية منذ عام ١٩٢٣ ونجحت فى كيدها نجاحاً لم تصل إليه قط فى مواقعها الحربية ، ولا نستطيع إلا أن نسدل الستار على مناظر القسوة والشناعة التى كانت جيوش إيطاليا ترتكبها فى حربها ضد المجاهدين فإنها مأساة دموية تجعل انتصار تلك الجيوش أنكى عليها من الهزائم .

وأما الجهاد فى برقة فقد استمر متقطعاً إلى سنة ١٩٣١ حين استطاعت الجيوش الإيطالية الجرارة أن تحاصر عرين الأسد الجريح وتأسره فانتهت بذلك مقاومة سيدى عمر المختار — ذلك الشيخ المجاهد الذى صار اسمه

علماً على الأحرار وسيبقى رمزاً لأسمى مراتب الشهامة والثبات والإيمان . وكان من دواعى الخزى للقائد الإيطالى المنتصر (جرازيانى) أن أمر بإعدامه فى سبتمبر سنة ٣١ وكان أشد لخزيه أنه فاخر بانتصاره الضئيل على ذلك البطل الذى روعه وروع جيوشه أعواماً طويلة مع قلة عدد كتيبته الباسلة وقلة ما لديها من المال والسلاح .

وإنه لمن الحق على العرب جميعاً أن يقيموا فى قلوبهم لذلك البطل العظيم تمثالا من النور فهو فى صدر أبطال الطليعة الذين كان لهم الفضل فى إذكاء مشاعر الثقة بالنفس فى قلوب الأمة العربية جميعاً وكان بشهامته وصراحته ورجولته صورة من صور الأبطال العرب القدامى الذين دان العالم لعظمة نفوسهم وطهارتها وإيمانها .

ومنذ قضت إيطاليا على المقاومة فى برقة بموت البطل عمر المختار ، خلا لها الجو لتنفيذ سياستها الاستغلالية فى ذلك الشعب العربى الباسل الذى تمكنت من تقييده بعد حرب دامت إحدى وعشرين سنة . وقد أعادت فى سياستها الاستغلالية كل ما اتصفت به سياستها الحربية من عنف وقسوة . فطاردت الأحرار وشردتهم فى البلاد وفى خارجها وساقت جموع الأطفال والنساء والشيوخ إلى المعتقلات فى البرية ليموتوا من الجوع والعطش والحرمان من الحرية ، بعد أن قتلت الشبان والكهول أو ألقت بهم إلى السجون . وخيل إلى قادة الجيش والحكام المستغلين أنهم قد أخمدوا روح الشعب وآن لهم أن يسلبوا أرضه وأمواله ، فاغتصبوا كل ما راقهم

من ذلك كي يجعلوه مستعمرات للألوف من أبناء إيطاليا يجدون فيها الغنى والعز والمجد بدلا من حياتهم المحرومة فى بلادهم . ومضت سبع سنوات طويلة على تلك المحاولات الظالمة قبل أن تشب نيران الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ . واشتركت إيطاليا مع ألمانيا فى مغامرتها ضد الدول الاستغلالية الأخرى لعلها تصيب غنيمة أكبر مما نالته من قبل إذا انتهت هذه الحرب كما كان منتظراً بالنصر الساحق لألمانيا وحلفائها .

غير أن الحرب لم تكن إلا وبالا على ألمانيا وحلفائها وكان من الطبيعى أن ينتهز زعماء ليبيا فرصتها كي يزيحوا عن أعناقهم نير إيطاليا . ففى داخل البلاد هب الشعب مرة أخرى للجهاد، وفى الخارج أعد الأمير إدريس السنوسى جيشاً من الليبيين والعرب للزحف من مصر نحو حدود ليبيا، وساعد الإنجليز تلك الحملة وكانوا فى مدة الحرب يسيطرون على مصر وكانت مصلحتهم تقضى بهذه المساعدة . وشهدت شواطئ ليبيا الفسيحة تقلب الحظ بين الجانبين المتحاربين، فكانت جيوش إيطاليا وحلفائها الألمان تتغلب أحياناً حتى تصل إلى ضواحى الإسكندرية وكانت جيوش إنجلترا وحلفائها تتغلب أحياناً أخرى حتى تبلغ قريباً من حدود تونس . وقاسى أبناء الشعب الليبي من آثار هذه الحرب المدمرة أهوالا شديدة ولكنها كانت تهون عندهم على أمل أن تؤدى الحرب إلى اندحار إيطاليا . وانتهت الحرب فى ليبيا بذلك الاندحار فى سنة ١٩٤٣ ، فتنفس الشعب المجاهد الصعداء آخر الأمر .

وبعد سنوات عدة من عواصف السياسة الدولية وعواصف اختلاف الآراء فى صفوف المجاهدين ، استقر الأمر على إعلان استقلال ليبيا فى ديسمبر سنة ١٩٥١ واتخذ الأمير محمد إدريس لقب الملك إدريس الأول وأعد للبلاد دستورًا اتحاديًّا يقوم على الاستقلال الإدارى للولايات الليبية الثلاث : برقة وفزان وطرابلس .

ولكن ليبيا المستقلة خرجت جريحة منزوفة الدماء من أثر الكوارث التى تعاقبت عليها منذ سنة ١٩١١ ، وكان لمساعدة الإنجليز على تحريرها أثر فى قيامهم بتدخل مستور فى توجيه سياستها لقاء إعانة مالية سنوية تساعد الدولة الناشئة على القيام بأعباء الحكم . وكان للسياسة الأمريكية كذلك تدخل مستور آخر فى لقاء مساعدة مالية أخرى وذلك باتخاذها قاعدة من أهم قواعدها العسكرية على مقربة من مدينة طرابلس . غير أن الشعب الليبى برغم ما يحيط به من الصعاب لم يتردد فى إظهار تضامنه العربى الباسل عندما أغار الأعداء على مصر فى عام ١٩٥٦ فكانت وقفته حكومة وشعباً إلى جنب مصر فى جهادها ضد الأعداء مثالا رائعاً لشعور الوحدة القومية العربية التى تشمل الشعوب العربية جميعاً ، والمأمول قريباً أن يتمكن شعب ليبيا من مداواة جراحه وإصلاح مرافق بلاده وبناء ما هدمته النكبات المتوالية من جديد حتى يصبح فى صدر الشعوب العربية المتحررة التى كان له الفضل فى ضرب المثال الرائع لها فى الاستبسال للدفاع عن حرياتها .

١٠ ــ حركة التحرير فى تونس

بدأت حركة الجهاد الوطنى تشتد فى تونس كما بدأت تشتد فى سائر الشعوب العربية منذ بدء الحرب العالمية الأولى ، وعلى رغم شدة الضغط الفرنسى هب الشعب التونسى فى عام ١٩١٩ كما هب شعب مصر وكما هبت الشعوب العربية الأخرى بقيادة حزب الدستور لاستعادة استقلال تونس . وكانت فرنسا تبذل كل جهد ممكن لتهدئة هذه الحركة بوسائل الضغط حيناً ووسائل الكيد والتفرقة بين الزعماء حيناً آخر ، حتى إذا كان عام ١٩٣٨ ولاح شبح الحرب العالمية الثانية على الأفق اتبعت فرنسا سياسة عنف شديد دلت على شعورها بحرج موقفها . لقد كانت عند ذلك تواجه الثورات المتتالية من شعب سوريا ومن شعب لبنان وتشعر بحرج موقفها فى بلاد المغرب العربى وترى على أفق أوربا نذير الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تتبع سياسة التهدئة التى اتبعتها إنجلترا فى مصر والعراق بل ألقت القبض على زعماء حزب الدستور الجديد وألقت بهم فى السجون أو شردتهم فى الآفاق . ولم يخضع الشعب العربى لهذا الإرهاب بل زادت غضبته بازدياد عسف فرنسا حتى إنها اضطرت فى أوائل سنى الحرب أن تمنح تونس نوعاً من الاستقلال الذاتى لتهدئة ثورته ، فلم يؤد ذلك إلى انخداع الشعب عن آماله فى الاستقلال الكامل . فاستمر فى كفاحه

حتى إذا لم تستجب فرنسا إلى تحقيق أمانيه هبت الثورة العنيفة فى عام ١٩٥٠ وهى الثورة التى انتهت بانسحاب فرنسا وإعلان استقلال تونس سنة ١٩٥٤ مع الاحتفاظ ببعض تحفظات تشبه تحفظات إنجلترا فى المعاهدة التى عقدتها مع مصر فى سنة ١٩٢٢ ، وأهمها احتفاظ فرنسا بالإشراف على السياسة الخارجية، وعلى قوة الدفاع والشرطة . غير أن هذه التحفظات ألغيت فى عام ١٩٥٦ وبذلك أصبحت تونس دولة كاملة الاستقلال من الناحية السياسية فيما عدا بقاء قوة عسكرية فرنسية فى قاعدة (بنزرت) .

وقد تخلصت الحكومة التونسية من الأسرة الحاكمة التى تولت حكمها منذ العهد العثمانى فعزلت آخر البايات وأعلنت الحكم الجمهورى فى عام ١٩٥٧ .

والمأمول أن يستطيع الشعب التونسى الحريص على حريته وكرامته أن يزيل بقايا عهد الاستغلال الفرنسى الذى ما يزال ماثلا فى سيطرة الفرنسيين إلى اليوم على الميادين الاقتصادية فى البلاد وفى إبقاء قوة حربية خطيرة على الأرض التونسية التى كانت عدة عصور طويلة مهداً للمجد العربى يشهد بذلك مسجد القيروان العتيق وجامعته الجليلة .

١١ ــ البعث الجديد فى المغرب العربى

رأينا أنه فى الوقت الذى سيطرت فيه الجيوش المرتزقة على الأمة العربية فى المشرق، حافظ المغرب العربى على كيانه الأصيل، وكان ركناً ركيناً للعروبة، وله فضل كبير فى رد موجات الغزو الأجنبى المنحدر إليها من شعوب غرب أوربا . ورأينا كيف نبغت فى المغرب دول عربية وطنية متتالية كان منها دولة المرابطين المغربية التى هبت لمساعدة أمراء الطوائف الذين تقسموا أرض الأندلس فيما بينهم بعد زوال دولة بنى أمية، واستطاعت أن تحافظ على سلطان العرب فى الأندلس نحو قرن من الزمان ، فلما اضمحلت قواها جاءت بعدها دولة الموحدين المغربية أيضاً، وكان لها الفضل فى المحافظة على حياة الأندلس العربية لنحو ثلاثة أرباع القرن .

ولما تقلص ظل العرب فى أسبانيا شيئاً بعد شىء فى أثناء القرن الثالث عشر للميلاد بقى المغرب العربى محتفظاً باستقلاله وعروبته فى ظل دولة بنى مرين والدولتين العربيتين السعدية الشريفية ثم العلوية، وهى التى توارثت الحكم منذ القرن الثالث عشر ، فلم تنقطع سلسلة الحكم العربى المستقل فى المغرب على توالى القرون حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكانت فرنسا قد تمكنت منذ بدء القرن التاسع عشر من اقتحام الأرض العربية الخاضعة للدولة العثمانية فى شمال أفريقيا فاعتدت على الجزائر فى عام ١٨٣٠ وعلى

تونس فى عام ١٨٨٠ ولكنها لم تستطع أن تقتحم أرض المغرب العربى إلا فى أوائل القرن العشرين منتهزة فرصة الفترة المضطربة التى تولى فيها الصبي عبد العزيز ملك البلاد، فبدأت تتدخل فى شئونها متوسلة بوسائل الخداع والكيد والضغط الاقتصادى والابتزاز ، وهى الوسائل التى تتفنن فيها سياسة الاستغلال الأوربية . فكانت تدبر المؤامرة تلو المؤامرة للتدخل فى شئون البلاد وكانت فى الوقت نفسه تعقد المعاهدات (الشرفية) مع الدول المستغلة المنافسة لها فى اقتسام السيطرة على الشعوب كما فعلت مع إنجلترا فى عام ١٩٠٤ حين عاهدتها على إطلاق يدها فى مصر لقاء إطلاق إنجلترا ليدها فى بلاد المغرب وكما فعلت مع أسبانيا عقب ذلك حين عاهدتها سرًّا على اقتسام بلاد المغرب العربى فيما بينهما، وكما فعلت مع ألمانيا فى سنة ١٩١١ حين قدمت لها رشوة فى صورة ربع مليون من الكيلومترات فى الكمرون بغرب أفريقيا لقاء تعهدها بترك فرنسا حرة فى السيطرة على المغرب .

وتذرعت فرنسا بمقتل بعض عمال يعملون فى شركة فرنسية لمد خط حديدى بقرب الدار البيضاء فى عام ١٩٠٧ فاحتلت الدار البيضاء ورباط الفتح وفرضت على حكومة المغرب غرامة فادحة ، وتعللت مرة أخرى بمقتل طبيب فرنسى بقرب مدينة مراكش فاحتلت مدينة على الحدود الجزائرية ، ثم بعثت فى عام ١٩١١ جيشاً كبيراً لغزو البلاد فاحتل فاس (العاصمة) وفرضت فرنسا حمايتها على البلاد جميعاً فى مارس

سنة ١٩١٢ . ثم قامت الحرب العالمية الأولى فكانت فرنسا تحشد الجنود العرب المغاربة للدفاع عنها حتى انتهت الحرب بفوز ساحق للحليفتين فرنسا وإنجلترا وخيل إليهما أنه قد آن لهما أن يخضعا العالم كله لسيطرتهما فتنكرت كل منهما للشعوب العربية التى ناصرتها لإحراز ذلك النصر . فنى الوقت الذى أقدمت فيه إنجلترا على خيانتها الكبرى لعرب المشرق ، أقدمت فرنسا على خيانة عرب المغرب ، فأخذت تبسط سلطانها على بلادهم ، وتحكم قبضتها على موارد ثروتهم وابتزاز أموالهم ، ولم يغن عن شعب المغرب شيئاً أن قواد الحلفاء اعترفوا صراحة بما كان لجنود المغرب من فضل فى انتصار فرنسا ، وأنهم أشادوا بما امتاز به هؤلاء الجنود من الشجاعة وقوة الاحتمال .

ولكن جحود فرنسا وشراهتها ودسائسها لم تستطع أن تطفئ جذوة الحرية فى قلوب الشعب المغربى ، الذى تكررت ثوراته على مدى عشرين عاماً أخرى ، وكان لا ينتظر إلا أن يجد الزعيم الذى يسير فى طليعته ، حتى يهب فى ثورة عامة للجهاد ضد الاستغلال الفرنسى . وقد أتيح له أن يجد هذا الزعيم فى شخص السلطان محمد بن يوسف الذى ولى الملك فى عام ١٩٢٧ . فاشتدت حركة المقاومة حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

واستمرت فرنسا فى اعتمادها على عرب المغرب فى مقاومتها لأعدائها ، ولولا مساعدتهم لها فى حركة المقاومة التى قام بها الجنرال ديجول عقب انهيار فرنسا فى الحرب العالمية الثانية ، لما أمكن لتلك الدولة أن تقوم لها

قائمة بعد صرعتها الشديدة . فلما وضعت الحرب أوزارها وجنت فرنسا ثمار النصر الذى أحرزه لها الشعب العربى المغربى عادت إلى شراهتها الاستغلالية ، وحاولت إحكام قبضتها على الدولة المغربية العربية . فاضطرمت نار الثورة مرة أخرى ضد المطامع الفرنسية وأقدمت الحكومة الفرنسية على خطوة بالغة التهور فى عام ١٩٥٣ إذ قبضت على السلطان محمد بن يوسف سليل الأسرة العلوية العريقة ونفته إلى جزيرة (مدغشقر) ، بدعوى أنه يشعل عليها نيران الثورة ! ولجأت إلى وسيلتها التقليدية فى التفرقة بين صفوف الأمة باستخدام بعض صنائعها وإثارة خرافة التمييز بين العنصر العربى والعنصر البربرى من أهل البلاد ولكن تلك الخدعة لم تجد قبولا ، وهب الشعب فى حركة عامة من الجهاد المستميت فى سبيل الحرية ، حتى اضطرت فرنسا إلى إعادة السلطان إلى عرشه الشرعى فى عام ١٩٥٥ . وبقيت الراية العربية خفاقة فوق الوطن العربى المغربى كما بقيت قديماً طوال القرون ، ولم تلبث فرنسا أن اعترفت باستقلال المغرب ، وصار الملك محمد الخامس أول ملك فى عهد البعث إلى الحياة الجديدة للشعب المغربى الحر .

ولكن فرنسا ما تزال تلجأ إلى أساليب دول الاستغلال على رغم اعترافها باستقلال البلاد ، فهى تحاول فرض إرادتها عن طريق الضغط الاقتصادى وبمحاولة عرقلة الحكومة الوطنية بسحب الموظفين الفنيين الفرنسيين من خدمتها . على أن الدولة المغربية الحرة سارت فى طريقها

لإقامة الحياة الجديدة بسواعدها . فني هذه السنوات القلائل التي مرت عليها في عهد الحرية، استطاعت أن تخطو خطوات الجبابرة بقيادة زعيمها الملك في سبيل نشر التعليم وتدعيم أسس الاقتصاد . والمستقبل ما زال يفتح أمامها آفاقاً جديدة للتقدم والترقي ،والأمل أمامها عظيم في تحقيق ما تطمح إليه، وهي في غنى عن مساعدة فرنسا التي استمرت تستغلها وتهين كرامتها نحو نصف قرن من الزمان .

ولا شك في أن المغرب العربي يجد من كل شعب عربي في المشرق والمغرب على السواء كل ما يتوقعه الشقيق من أشقائه من التعاون المتبادل لتحقيق الخير المتبادل بين الجميع . وإن المغرب العربي الذي بقي حصناً منيعاً للعروبة طوال ثلاثة عشر قرناً سيبقى حصناً لها مدعماً لجهادها في حركة التحرر الحديثة ، وسيكون أبناؤه الذين كان للأجيال المتعاقبة منهم يد بيضاء في بناء الحضارة العربية الأولى جديرين في هذا العصر بأن يعيدوا الكرة في بناء الحضارة العربية الحديثة المشتركة .

١٢ ــ الجهاد الباسل في الجزائر

لعل التاريخ لم يسجل لشعب من الشعوب ما يسجله اليوم لشعب الجزائر في بطولة جهاده وإصراره على الدفاع عن كيانه وحريته . وقد وصفنا من قبل كيف اعتدت فرنسا على استقلال هذا الوطن العربي في عام ١٨٣٠

وكان ذلك هو الاعتداء الفرنسى الثانى على الوطن العربى منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فنى الحال الأولى كان اعتداء فرنسا على مصر بقيادة بونابرت الذى كان يطمع فى إنشاء إمبراطورية فسيحة فى الشرق ، وقد رأينا ما آلت إليه الحملة من الخيبة ، وأما فى الحالة الثانية فكان الاعتداء موجهاً إلى شمال أفريقيا كى تتخذه فرنسا مدخلاً إلى السيطرة على قلب القارة الأفريقية، لتقيم هناك إمبراطورية فسيحة تعوضها على حلم نابليون الذى لم يتحقق فى الشرق . وكان القضاء الساخر الذى تربص بنابليون بونابرت فى مصر يتتبع خطى فرنسا فى شمال أفريقيا ، فلم تستطع أن تشعر بالاطمئنان فى وقت من الأوقات منذ بدأت اعتداءها إلى اليوم . فاصطدمت فى أول الأمر بصخرة شامخة هائلة أعجزتها عن بسط سلطانها على البلاد مدة ثمانية عشر عاماً ، وهى صخرة جهاد البطل العظيم عبد القادر الجزائرى ، ولما استطاعت بجيوشها الجرارة أن تأسر البطل المجاهد ، وجدت نفسها فى محيط واسع ملأ قلوبها رعباً ، فلجأت إلى حيلة سياسية حسبت أنها تؤنس وحشتها فى ذلك المحيط الواسع ،فحشدت مئات الألوف من الفرنسيين وبعثت بهم إلى الجزائر ليقيموا فيها على أمل أن يكونوا عدة لها فى انتزاع الوطن العربى من أصحابه، وتحويله إلى أرض فرنسية . ونزعت الأرض من أصحابها وشردتهم فى قسوة وعنف تتضاءل إلى جانبهما قسوة المعارك الدموية وعنفها . وذهب أبناء البلاد المحرومون يلتمسون لهم مقاماً فى الصحراء، أو يعيشون

مشردين على حوافى المدن التى جعلها الفرنسيون معاقل لأنفسهم . وبالغت فرنسا فى الاحتيال على تنفيذ خطتها البشعة فاستخدمت الخداع متظاهرة بأنها تنظر إلى أهل الجزائر على أنهم مواطنون فرنسيون لهم ما للفرنسيين من الحقوق وعليهم ما عليهم من الواجبات .

فقسمت البلاد إلى ثلاثة أقاليم، وجعلت لكل منها نواباً فى البرلمان الفرنسى ، ولكنها قيدت حقوق الانتخاب بقيود جعلت تمثيل شعب الجزائر فى البرلمان مظهراً أجوف لا حقيقة له .

ولم يخدع أهل البلاد عن حريتهم بالمظهر الأجوف وواصلوا جهادهم على رغم القيود التى كان الحكم الفرنسى يكبل به الشعب الجزائرى .

وفى الوقت الذى كانت فرنسا تجعل فيه الحقوق السياسية لأهل الجزائر مظهراً أجوف لا حقيقة له كانت تنتزع منهم أموالهم وتهبط على كواهلهم بأثقل أعباء الضرائب وتحشد أبناءهم وكهولهم فى حروبها ، فكانوا بشهامتهم وشجاعتهم يعوضون فرنسا عن انحلال أبنائها وقلة غنائهم فى القتال . وكان من أبرز مظاهر السياسة الفرنسية فى الجزائر أن أبناء البلاد الشجعان كانوا يحشدون للقتال تحت علم فرنسا على حين كانت فرنسا تبعث إلى الجزائر بفرقة مرتزقة تستمد أفرادها من شذاذ الشعوب الأوربية الذين لفظتهم بلادهم لجرائرهم وجرائمهم فكانت هذه الفرقة تجوس خلال الديار فتعتدى على الأبرياء وتبطش بالأحرار المشردين فى فيافى الصحراء وتروع المساكين من المحرومين الضعفاء .

وهكذا استمر الحكم الفرنسى فى الجزائر على مدى قرن من الزمان وهو صورة بشعة من التحكم الأجنبى العنيف والسيطرة القاسية على شعب مكبل بالقيود والاستغلال الجشع الذى لم يكد يدع لأهل البلاد سوى البقايا التافهة من خيرات أرضهم السخية . واستأثر الفرنسيون النازحون إلى الجزائر بكل ما فى البلاد من موارد الزراعة ومن الثروات العظيمة المنطوية فى أقاليمها الفسيحة الغنية بالمعادن .

وظهر جحود فرنسا وأنانيتها فى أجلى مظاهره عقب الحرب الأولى عندما خرجت من الحرب منتصرة بفضل جنود الجزائر وإخوانهم من العرب فى شمال أفريقيا وبلاد المغرب ، فإنها لم تكافئ أهل الجزائر على بسالتهم فى حماية حريتها إلا بزيادة الاعتداء على حرياتهم وسلب أموالهم . وأعادت فرنسا المأساة فى الحرب العالمية الثانية ، وكان جحودها بعد انتهاء الحرب أشد وأنانيتها أشنع ، فبدلا من الاعتراف بفضلهم فى مناصرة حركة المقاومة التى قام بها ديجول ، سلطت عليهم جيوشها ففتكت بعشرات الألوف من شباب الجزائر الأعزل فى خبطة حمقاء واحدة .

غير أن هذه السياسة العنيفة القاسية لم تستطع أن تخضع الشعب الجزائرى أو تكسر شوكته ، فاستمر فى جهاده حتى تحول ذلك الجهاد إلى ثورته النبيلة الأبية منذ أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .وشعوب العالم اليوم تنظر إلى هذا الجهاد النبيل فى إكبار وإشفاق ، وهى ترى فرنسا تحشد جيوشها لكبت حرياته، وتستخدم الأسلحة التى يسخرها لها حلف

الإطلنطى فى التنكيل به ومحاولة إذلاله . ولئن كان جهاد هذا الشعب الأبى قد امتد إلى أكثر من مائة عام ، فإن القضاء الذى تربص بالطاغية بونابرت فى مصر ما زال يتربص بأحفاده الطغاة، وسيكون شعب الجزائر قريباً من أكبر دعامات الحرية فى الأمة العربية بعد أن ظل هذه الحقبة الطويلة من أكبر دعامات جهادها واستبسالها فى الدفاع عن حريتها .

حضارة عربية جديدة
فى عهد جديد

إذا نظرنا نظرة الطائر من عل وجمعنا فى نظرة واحدة بين أولية أمتنا العربية وبين ما وصلت إليه أحوالها فى عصرنا هذا، تبين لنا خط سير طويل ما تزال عليه آثار أقدام الأجيال المتتالية من الأمة، وهى حيناً تسير إلى الأمام فى جرأة لا نكاد نجد لها مثيلاً فى تاريخ الأمم الأخرى، ثم يضطرب بها السير حيناً آخر فنرى آثار العقبات التى اعترضتها، وبقايا المعارك التى خاضت غمارها، ونستطيع أن نقرأ فى تلك الآثار كيف كان الجهاد يوقظ نشاطها ويثير كامن قواها، وكيف كان الخلود إلى الدعة يفضى بها إلى الخمول والانحلال، كما نستطيع أن ندرك ما جناه عليها سادتها الأنانيون حين تفرقوا وتنافسوا فيما بينهم تبعاً لمصالحهم وقضاء لمآربهم حتى انتهوا بها إلى مواجهة الأخطار التى هددت حرياتها، وكيف هبت عند ذلك لمواجهة تلك الأخطار وتحملت من جراء ذلك كثيراً من الآلام، وكابدت صنوفاً من المشقات والمآسى حتى استطاعت آخر الأمر أن تتحرك وأن تستعيد حريتها وتبدأ دورة جديدة من أدوار حياتها.

وقد كانت عودة الحركة والحرية إلى الأمة العربية من أكبر الأدلة على قوة مقاومتها وعلى متانة بنائها وتميز شخصيتها. فكم فنيت من أمم، وكم

اندثرت من حضارات ، وهى لم تقض إلا جزءاً يسيراً من الزمن إذا قيس بالحقب الطوال التى قضتها الأمة العربية فى سيرها عبر القرون .

ولقد تغيرت أحوال العالم على مر هذه القرون وتبدلت طرق الحياة حتى صارت إلى ما نراه قائماً فى وقتنا الحاضر ، وهى تختلف اختلافاً كثيراً عما كان عند ما بدأت أمتنا العربية حياتها الطويلة . فنهضتنا الحاضرة نحن العرب تتسم بظاهرتين متلازمتين لا مفر لنا من أخذهما فى الاعتبار حين ننظر إلى أنفسنا ، الأولى أن حركتنا الحاضرة استئناف لحياتنا القومية التى ما زالت محتفظة بخصائصها ومقوماتها الأساسية ، فهى استمرارلها أو هى دورة جديدة منها ، ولم تقطع مئات السنين التى مرت من حياة الأمة العربية خيط الاتصال بين أوليتنا ومنتهانا إلى عصرنا هذا . والظاهرة الثانية أن حركتنا الحاضرة تقع فى عصر غير العصر الذى نشأت فيه أمتنا ، وفى ظروف تختلف اختلافاً عظيما عن الظروف التى كانت تحيط بها عند ابتداء حركتها الأولى . والنتيجة الطبيعية لهذا الازدواج أننا فى نهضتنا الحاضرة نأخذ فى بناء حضارة جديدة تستلزمها ظروف حياتنا الجديدة ، ونريد أن نختار لها أصلح الأنماط وأن نتحرى الحكمة فى تصميم الطراز الذى ينبغى أن يكون لها . فهل يقضى هذا الأزدواج علينا أن نختار بين طراز حضارتنا الأولى وبين طراز حضارة العصر الذى نعيش فيه ؟ إما هذا وإما ذاك ؟ هل نتجه نحو حضارتنا العربية الأولى ونديـر ظهورنا إلى حضارة عصرنا هذا فنتخذ نموذجنا منها لأنها الحضارة الأم التى نعدها مفخرة لنا ؟ أم ندير

ظهورنا إليها ونتخذ نموذجنا من الحضارة العالمية القائمة اليوم لأنها تمثل التقدم الحضارى الإنسانى ؟ إن مستقبل حضارتنا الجديدة يتوقف على الاتجاه الذى نختاره لأنفسنا عن وعى أو عن غير وعى . وأخطر الأحوال أن نندفع فى اتجاهنا واختيارنا عن غير وعى . لقد طالما أخطأت الأمم طريقها عند ما اختارت لحضارتها طرازاً أعجبها ظاهره ثم تبينت بعد حين أنها قد أخطأت فى الاختيار بعد أن أوغلت فى سيرها حتى تعذرت عليها العودة أدراجها .

ها هى حضارة العصر الحديث قد بلغت ما بلغت من التقدم فى كل ميادين العلوم والفنون والإنتاج الفكرى والأدبى ، ولكن الشكوى ترتفع فى كل مكان من خطر داهم يهددها أن تنهار فجأة من أثر عوامل مدمرة كامنة فيها ، وهى عوامل ترجع إلى الروح الذى يسرى فى عروقها منذ قرون . والسبب الذى أدى إلى هذه الحال المحزنة إنما هو الخطأ الذى ارتكبته شعوب أوربا فى أول نهضتها عند ما اختارت الطراز اليونانى الرومانى الوثنى القديم ليكون نموذجاً لحضارتها . وقد وصل كثير من المفكرين الغربيين إلى حقيقة هذه العوامل المدمرة ، التى تسرى فى عروق حضارتهم الغربية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يرجعوها أدراجها كى تصلح خطأها . وإنا نجرؤ فنقول : إن هذه الحقيقة تبدو لنا واضحة إذا نحن تتبعنا مجرى الحضارة الأوربية إلى منابعها الأولى .

كان أول قبس أضاء على ظلمات الجهالة فى أوربا منبعثاً من الشرق ، أو بقول أدق كان منبعثاً من الأمة العربية . كانت العلوم العربية والثقافة

العربية هى أول ما تلقاه أهل أوربا من النور فى أعقاب عصرهم المظلم الطويل. فالحضارة العربية كانت أقرب الحضارات عهداً لمولد الحضارة الأوربية الحديثة .

وقد كان من الطبيعى أن يكون طراز الحضارة العربية هو المؤثر المباشر فى طراز الحضارة الأوربية الحديثة . بل إن شيئاً من هذا بدأ يحدث فعلا فى جنوب إيطاليا وصقلية فى أول نهضة أوربية حديثة على يد الملك روجر الصقلى ، وإن شيئاً منه استمر يحدث فى أسبانيا نفسها مع شدة العداوة بين ملوكها وبين العرب . ومن جهة أخرى كان فجر عصر النهضة الأوربية مشبعاً بروح الدين بل كان مشبعاً بروح التعصب الدينى الشديد، وكان المنتظر أن تكون مبادئ الدين المسيحى هى أساس الحضارة الأوربية الحديثة . ولكن الحضارة الأوربية لم تلبث أن تنكرت للحضارة العربية وللدين المسيحى ، واتجهت نحو الحضارة القديمة الوثنية من رومانية ويونانية وأدارت ظهرها لكل ما عداها حتى أنها اتسمت بعد القرن الثالث عشر والرابع عشر بالتحلل الخلقى فى الفنون والآداب ، وصارت حضارة روما المستغلة الطاغية المسيطرة على الشعوب هى المثال الأعلى للدول الأوربية الحديثة . هذا هو سر العوامل المدمرة فى روح هذه الحضارة التى بلغت ما بلغته اليوم من التقدم المادى ، فهى مع كل ما أحرزت من تقدم تشكو من خوائها الروحى ومن اتجاهها الوثنى ، الذى لا يعتد إلا بالقوة المادية ولا يخضع إلا للقوة المادية . فهى وثنية فى وحشيتها حيال الشعوب

التى تتحكم فيها وتذلها وتخضعها بالحديد والنار . وهى وثنية فى تعاملها وفى منافساتها، لا تعرف معنى للتعايش السلمى الإسلامى أو المسيحى، وتعد عدة الهلاك للهجوم على أعدائها، ولا تتورع عن وسيلة ولو كانت دنيئة من الناحية الإنسانية إذا كانت توصلها إلى غاية مادية تحرص على تحقيقها .

فهذا الخطأ الذى ارتكبته الحضارة الأوربية جدير بأن يفتح أعيننا على أهمية اختيارنا فى وقتنا هذا .فكيف نختار إذن طريقنا وأى أساس نختاره لنقيم عليه الحضارة التى بدأنا فى بنائها ؟

إننا لا نستطيع إلا أن نذكر أن الفضل فى بقاء أمتنا العربية طوال عهود جهادها ضد الصدمات التى وجهت إليها إنما يرجع إلى العناصر الجوهرية فى مواريثنا العربية التى ورثناها من حضارتنا الأولى . فإذا نحن نبذنا هذه المواريث كان ذلك بمثابة التخلى عن العوامل التى كانت صاحبة الفضل فى بقائنا إلى اليوم، والتى مكنتنا من تحمل كل الصدمات التى وجهت إلينا، ومقاومة كل محاولة لإفناء شخصيتنا، ونكون بذلك مثل من يلقى سلاحاً كفل له السلامة فى معركة هائلة، لأنه انخدع بمظهر سلاح آخر لم يجربه من قبل . لقد أنجتنا مواريثنا من الفناء فى الماضى والحاضر وهى جديرة بأن تنجينا فى المستقبل . ولسنا نقصد بهذا أن الأفضل لنا هو العودة إلى الماضى والنظر إلى كل ما كان فيه على أنه مثال أعلى فنتخذه نموذجاً لنا فى بناء حضارتنا . فأول ما ينبغى لنا أن نحرص عليه هو أن نلحق بركب الأمم فى تقدمها العلمى وأن نعب من كنوز المعارف التى

تكدست على مر القرون الأربعة الماضية فى ميادين الفكر وأسرار العلم . وعلينا بغير جدال أن نتبع فى إنتاجنا الصناعى والزراعى وفى كل ما يتعلق بتنمية ثروتنا أساليب الإنتاج الحديث لأنها آخر ما استطاع العقل البشرى أن يصل إليه، لتوفير الجهود وتحقيق أكبر فائدة ممكنة من أقل مجهود ممكن . بل علينا أن نعاون بكل ما فينا من عبقرية على الترقى بهذه الأساليب، كى نضيف إلى الحضارة الحاضرة أساليب أكثر توفيراً للخبرات والسعادة والرفاهية .

غير أنه لا ينبغي لنا أن ننسى بعض الحقائق الكامنة فى حياتنا، وأن نواجهها بصراحة. لأن إنكار الحقائق لا يغنى عنا شيئاً فى معركة الحياة ، وهى معركة تحتاج منا إلى الجهاد الأكبر وهو الجهاد فى داخل أنفسنا . فهناك ميادين للجهاد الداخلى أوسع من ميادين الحروب وأكثر تطلباً للتضحية بالجهود والأموال . هناك ما خربته يد الإهمال على مدى القرون من مرافق البلاد وما عطله الاستغلال الأجنبى من تقدمها ، وتعمير ذلك التخريب ، وهناك تدارك ما ضاع على الأمة من وجوه الإصلاح فى وقت انعزالها وانكماشها عن الاهتمام بشئون حياتها . كل ذلك يتطلب منها جهوداً ضخمة ونشاطاً متصلا وأعباء ثقيلة . هناك فى الأمة العربية ملايين من الجهلة ولا يمكن أن تنهض أمة تفشى الجهل فيها ، وهناك ملايين من المرضى والضعاف ولا يمكن أن تنهض الأمة بهم وهى تحتاج إلى بذل الجهود الكبرى فى التعمير والإصلاح . وهناك طبقات فوق طبقات من رواسب قديمة

خلفتها عهود الظلم والاستغلال ، وكان لها أثر بشع فى إفساد النفوس وتحطيم القيم السامية ، وإضعاف الثقة بين الأفراد ، ولا يمكن لأمة أن تتقدم إلا بالنفوس السوية والقيم العليا والثقة التامة بين الناس . وقد كان من أسوأ هذه الرواسب وأشدها وبالاً على حياتنا العامة طغيان الأنانية التى عملت على تفتيت الجهود وتشتيت الصفوف مع أن مفتاح نجاح الأمة فى الحاضر والمستقبل هو تعاونها معاً ، ووقوفها صفاً واحداً فى الدفاع عن حريتها وفى إصلاح ما فسد من شئونها. وتاريخ الأمة العربية دليل قاطع على أن نهضتها الكبرى لم تتحقق لها إلا حين آمنت بالرسالة الإنسانية العليا التى جعلتها تنبذ الأنانية المحطمة ، وتوحد كلمتها لنشر رسالتها ، كما أن هذا التاريخ يبين فى وضوح أن نهضة الأمة لم تضمحل إلا عند ما نسيت رسالتها ، وتخلت عن الإيمان بمثلها العليا وأطاع قادتها وحكامها دوافع الأنانية طاعة هوجاء ، وقنع كل منهم بما يعود عليه من المنافع العاجلة فتنافسوا على تلك المنافع تنافساً عاد عليهم جميعاً بأوخم العواقب . ولسنا نريد التعرض لمناقشات جدلية حول الأنانية ، وهل من الطبيعى أن يتجرد الناس منها ، فإن هذه المجادلات لا تستطيع أن تشكك فى الحقيقة التى ينطق بها تاريخ الإنسانية فى كل العصور ، وهى أن الغرائز الإنسانية ومنها الأنانية إذا انطلقت من كل قيد أدى ذلك إلى انفراط عقد المجتمع وفساده . ولم تنهض أمة من الأمم فى الماضى القريب أو البعيد إلا حين آمنت بعقيدة تحدد أنانية أفرادها ، سواء كانت هذه العقيدة منبعثة من منبع دينى

أو فلسفى أو من إجماع رأى عام قوى . ولسنا فى حاجة إلى التماس عقيدة تحدد الأنانية فى مجتمعنا الجديد لأن مواريثنا كفيلة بذلك إذا نحن جلوناها وأزلنا ما تراكم عليها من غبار عصور الاضمحلال ، وأعدنا إليها اعتبارها كى تستطيع أن تقاوم المؤثرات الأجنبية التى طرأت على حياتنا وزعزعت عقيدتنا فى مواريثنا .

وقد برهنت لنا التجربة على أن تلك المواريث متأصلة فى نفوسنا وفى أعماق عقولنا ، وإن مظاهر الحياة الأجنبية الطارئة علينا لا تلبث أن تصطدم بالمشاعر العميقة فى نفوسنا ، وتؤدى إلى نكبات ومآس لا حصر لها . إن الذين يندفعون فى التقليد ويأخذون بأساليب الحياة الأجنبية ، إنما يقبلون تلك الأساليب بسطح عقولهم وهم فى باطن شعورهم يرفضونها . فإذا ما انساقوا معها وأوغلت بهم فى الاندفاع حتى بلغت الحد الذى لم يتوقعوه ، ثارت مشاعرهم المتأصلة من أعماقها وتراجعوا عنها فى حنق ، وقد يؤدى بهم الحنق إلى بوادر عنيفة تؤدى إلى وقوع المآسى . فهناك طائفة من العرب مثلا اندفعوا فى تقليد أساليب الحياة الأوربية فى اختلاط الرجال والنساء ، وكانوا فى هذا التقليد مندفعين وراء أفكار طارئة على حياتنا وأساليبها المتأصلة فى النفوس ، وكان قبولهم لهذه الأفكار لا يتعدى سطح عقولهم . فحين يسوقهم هذا التقليد إلى مواقف تأباها مشاعرهم العميقة يرفضون ما سبق أن خيل إليهم أنهم قبلوه ، وقد يصاحب رفضهم لها قليل أو كثير من العنف ، فتفسد العلاقة بين الرجل وزوجته أو بين الفتاة وأبيها أو أخيها ، وقد يؤدى فساد

هذه العلاقة إلى وقوع المآسى الفاجعة التى تطلع علينا بين حين وآخر . على أننا حين نتحدث عن مواريثنا لا نقصد كل ما انحدر إلينا من الماضى ، فلا ينبغى لنا أن ننسى أن كثيراً من الشوائب خالطت هذه المواريث على مر الدهر ، وكان لها أثرها السيئ فى الهبوط بحياة الأمة ، وكان من أشدها ضرراً ما أثر فى حياة الأسرة العربية وفى عقلية جماهير الأمة نحوها ، وحسبنا أن نذكر بعضها على سبيل المثال :

لقد نحيت المرأة العربية الحرة فى كسر بيتها فى المجتمع العربى منذ حين وصارت إلى ما صارت إليه المرأة الحرة فى أثينا القديمة من الجهل وضعف الشخصية والانزواء عن الحياة العامة ، وكان السبب فى الحالين واحداً . فى أثينا القديمة كان السبب فى هذه الحال إقبال الرجال على اتخاذ نساء مسامرات كن من الطبقة الدنيا ، ولكنهن كن على حظ وافر من الثقافة ، ولذلك استطعن مجاراة الرجال فى تفكيرهم وإيناسهم فى مجالسهم بذكائهن وثقافتهن وعنايتهن بجلاء محاسنهن . وهكذا كان الحال فى المجتمع العربى فى وقت من الأوقات إذ أقبل الرجال على اتخاذ السرارى من الإماء وجعلوهن فى محل الزوجات الحرائر ينجبن لهم الأولاد كما جعلوهن مسامرات لهم فى مجالسهم ليخلعن عليها البهجة بذكائهن وثقافتهن . وكان تجار الرقيق الكثيرون يعنون عناية كبرى بتعليم هؤلاء الجوارى وتدريبهن على فنون الأدب والرقص والغناء ، فكان لهن شأن كبير فى الأسرة والمجتمع . والذى يعنينا من هذه الظاهرة التى طرأت على المجتمع العربى القديم أنها أفسدت حياة

الأسرة فى قصور الخلفاء والأعيان بل تسربت إلى بيوت جماهير الأمة من التجار، وكل من كان يستطيع شراء الجوارى . وقد انحدر أثر هذه الظاهرة فى المجتمع العربى إلى العصور التالية فى صور شتى : منها أن تعليم البنات الحرائر صار ينظر إليه على أنه هبوط بهن إلى مرتبة الجوارى ، فسادت الجهالة أجيالاً متتالية من المرأة العربية، إلى أن أمكن لبعض البلاد العربية أن تحطم ذلك التقليد الخاطئ بعد مقاومة شديدة من الرأى العربى العام . غير أن هذه الآثار ما تزال قائمة فى بعض البلاد العربية التى يجاهد مفكروها فى تخفيف حدة المعارضة لإخراج المرأة العربية ، من عزلتها عن مجتمعها بغير أن يتعدى ذلك حدود موارثينا الأصيلة . وقد كان لذلك التقليد القديم أثر آخر فى الآداب والفنون العربية ، فإن ارتباط مجالس الإيناس بالجوارى جعل تلك المجالس فى أكثر الأحوال مغرقة فى اللهو والمجون وشرب الخمر ، ولم تلبث الجارية المؤنسة أن اتخذت أداة للمتعة الحسية . فكان لهذا الاتجاه أثره الخطير فى الإسفاف بفنون الأدب العربى والموسيقى والرقص، وحال بينها وبين السمو إلى الآفاق العليا . ويمكن أن يقال إن شيئاً من هذا الأثر الخطير ما يزال قائماً فى مجتمعنا العربى ، إذ أن ظاهرة المتعة الحسية ما تزال غالبة على كثير من الإنتاج العربى فى الأدب والموسيقى والرقص .

وهذه حال لا يمكن معها الرقى الاجتماعى الذى ننشده فى حياتنا الجديدة، وعلينا أن نعنى بالتسامى بالأدب والفن فوق تلك المرتبة التى هبط

بهما إليها ذلك الاتجاه الخاطئ القديم .

وهناك مثال آخر لتلك الشوائب الضارة، وهو احتقار الأعمال المهنية فى الصناعة والزراعة وما إليها من الأعمال الخطيرة فى ميادين الإنتاج . فمنذ سيطرت العناصر الأجنبية على الحكم والسياسة فى الأمة العربية عكفت جماهيرها على شئونها المعيشية بمعزل عن الحكم والسياسة ، وأصبح الامتياز فى الأعمال المهنية لا يؤدى إلى الارتقاء فى المستوى الاجتماعى إلا فى حدود الجماهير المنعزلة عن الحكم والسلطان، فكان الممتازون فى الحرف لا يتعدون الطبقة الدنيا من المجتمع الذى قسم إلى طبقتين منفصلتين، وتكادان تكونان متعاديتين وهما طبقة السادة وطبقة الجماهير العاملة . وكان حظ العلماء والأدباء خيراً من حظ الممتازين فى الحرف، لأن السادة كانوا يقربونهم ليستعينوا بهم على تقوية سلطانهم ، فكانوا يقربون العلماء ليكونوا عوناً لهم على إحراز ثقة الشعب، وكانوا يقربون الأدباء ليقوموا بالدعاية لهم . وإذا كان ذلك قد هبط بقدر الأدب إلى مرتبة التبعية والدعاية لأصحاب السلطان ، فإنه قد جعل المثقفين كذلك يترفعون عن أعمال المهن وأصحابها . وقد استمر هذا الاتجاه إلى عهد قريب مع اختلاف الظروف؛ فإن المتعلمين عامة كانوا يحرصون على أن يلتحقوا بالوظائف التى يعدونها خاصة بالسادة فهى أعلى مرتبة فى المجتمع من أعمال المهن. وقد كان لهذه الحال أثر سيئ آخر عن طريق غير مباشر، فإن طبقة الموظفين فى الأمة العربية كانت ولعلها ما تزال إلى الآن تعد نفسها سادة بالنسبة لجماهير الأمة،

وهذا من أكبر العوائق التى تحول دون الحياة الديمقراطية الحق . ولا يمكن أن يستقيم الحال فى مجتمعنا الجديد إلا إذا عاد التوازن العادل بين طوائفه ، فأعيد الاعتبار إلى أعمال المهن ، وجعل لها المكان المناسب فى التقدير الاجتماعى ، وأعيد النظر فى حقيقة المكانة التى ينبغى أن تكون للوظائف وشاغليها على أنهم خدم للمصلحة العامة وليسوا سادة للجماهير ولا ملحقين بطبقة من السادة .

وإذا شئنا أن نعدد الأمثلة على الشوائب السيئة التى داخلت مواريثنا لأضفنا عدداً آخر تضيق عنه هذه الصفحات ويكفينا أن نذكر واحدة منها تتصل اتصالاً قريباً بالعوامل التى أدت إلى إبعاد الشقة بين طبقات الأمة . فقد استطاع عدد من الأفراد فى المجتمع العربى القديم أن يحتلوا مكانة اجتماعية سامية عن ط يق المال الذى أحرزوه فى ظل العصور التى كانت فيها الأنانية الفردية مطلقة من كل قيد ، وكان الكثير منهم عاطلاً عن العمل ، إذ كانوا يعدون الأعمال المهنية دون كرامتهم الاجتماعية ، واستطاع بعضهم أن يستخدموا الأدباء للدعاية لأنفسهم كما استطاعوا أن يكتسبوا عطف الحكام بهداياهم وأن يكتسبوا خضوع العامة لهم بما كانوا يقدمون لهم من العطايا فى صور من (الإحسان) المباشر الذى تمتد به يدهم العليا . وكان بعضهم يكتسب مكانة دينية تزيد اعتبارهم الاجتماعى بما يظهرونه من مظاهر التدين مثل بناء المساجد .

فكان لعلو المكانة الاجتماعية للأغنياء العاطلين أثر سيئ فى المجتمع

لأنهم كانوا أداة في إضعاف هذه الأمة بما انصرفوا إليه من حياة البذخ والترف والإسراف والهبوط بالمستوى العام الخلقى بما جروه على المجتمع من آثار استهتارهم باللهو ، وإغراقهم فى الملذات الحسية ، وهدم القيم العليا فى جماهير الأمة .

وقد فطن المفكرون من أبناء الأمة العربية الحديثة إلى ما حاق بحياتنا من آثار هذه الحال ، وأخذوا فى الكشف عن مكامن هذه العلة المزمنة ومحاولة التماس العلاج لها . ولكنا ما نزال فى أشد الحاجة إلى مزيد من الجهد فى معالجة الآثار التى ما تزال قابعة فى ثنيات مجتمعنا ، مثل قبوع الميكروب فى ثنيات البدن كى يهيج فى أول فرصة للفتك به . إن الاتجاه الذى اتجه إليه الأغنياء العاطلون ما زال ماثلاً فى حياتنا فى مظاهر شتى يمكن أن نلخصها تحت عنوان واحد وهو إيثار اللهو على الجد . ونحن فى نهضتنا الحاضرة فى أشد الحاجة إلى الجد الصارم ، وإذا كان ولا بد أن نتيح لأنفسنا فرصة للترفيه والاستجمام فللترفيه والاستجمام متسع لصنوف كثيرة فى مجالات لا تهدر كرامة الجد ولا تنافيه . إن الأغنياء العاطلين كانوا فى أكثر الأحوال يؤثرون اللهو الرخيص ، وهو لا يؤدى إلى ترفيه ولا إلى استجمام ، بل هو إذا حققنا النظر فيه نوع من الإجهاد الذى لجأ إليه العاطلون ليدخلوا إلى حياتهم الخاوية نوعاً من النشاط المجهد ، وفى مواريثنا الأصيلة مقاييس سامية لا بد لنا أن نحتفظ بها كى نهتدى إلى ما هو جدير بنا من الجد وما هو جدير بإنسانيتنا من الترفيه الكريم .

وهناك موضوع هام بالنسبة إلينا فى نهضتنا الحاضرة، وهو العمل بكل ما نستطيع على وحدة اتجاهنا فى بناء حضارتنا الجديدة . لقد بنى العرب حضارتهم الأولى وهم صف واحد لا انصداع فيه ، ولكن الظروف القاسية التى مرت بها هذه الأمة أدت إلى تصدع الصف فى الأمة بوجه عام بتفتيت الوطن العربى إلى قطع صغيرة، وإثارة النعرات بين كل من هذه القطع ، كما أدت إلى تصدع المواطنين فى كل وطن إلى أحزاب وفرق . وقد نشأ هذا التصدع فى عصور كانت الظروف تسمح به من أثر الحوادث الطارئة التى أشرنا إليها خلال هذا الحديث . ولكن نهضتنا الحاضرة جديرة بأن تزيل آثار تلك الظروف وأن تقتلعها من أساسها . والذى يدعونا إلى ذكرها شىء واحد وهو أن بعض الأعداء يحاولون إقامة العقبات فى سبيل وحدة الصف العربى بدعاياتهم المسمومة . والجدير بنا أن نواجه هذه الدعايات المسمومة بكل ما نستطيع أن نقوم به لإظهار حقيقتنا . فإن الأمة العربية معروفة فى كل عصور تاريخها بأسمى أنواع التسامح وفى مواريثنا من ميادين المساواة والعدالة ما ينفى كل تفريق بين المواطنين على أساس إختلاف الدين أو الجنس أو اللون .

هذه أمثلة نضربها للدلالة على أن أمتنا فى وقتنا هذا تواجه جهاداً ضخماً فى جبهات عدة وعلينا أن نكون على وعى تام بالمواطن التى ينبغى لنا أن نوجه إليها جهادنا ، حتى نتمكن من حسن الاختيار للطراز الذى نقيم عليه حضارتنا . إنه لا معدى لنا عن الأخذ بجانب هام من أساليب

الحضارة العالمية الحديثة ، ولكننا فى الوقت نفسه لا معدى لنا عن الحرص على العناصر الأساسية من حضارتنا العربية الصميمة ، وهى العناصر التى أشرنا إليها من قبل فى حديثنا عن شخصية الحضارة العربية .

وإذا كان هناك أكداس من الرواسب الضارة فى العادات والتقاليد أو النظم الاجتماعية فلا بد لنا من تطهير مواريثنا منها حتى لا تعرض حضارتنا الجديدة إلى آثارها المدمرة .

لمحة من المستقبل

لقد كان من نصيب الأمة العربية أن تبتدئ في التحرك من جديد وأن تتحرر وتبدأ في بناء حضارتها أو تستمر في بناء حضارتها . في هذا العصر الذى تقدم فيه العلم تقدماً مدهشاً ، وكان تقدمه في السنوات العشرين الماضية أعظم مما قطعه في ألوف من السنين مجتمعة . ولا مفر لنا من أن نواجه الحياة في عصرنا هذا وأن ننظر إلى أنفسنا لنعرف أين مكاننا بين الأمم وأن نحاول جهدنا أن نساير ركب التقدم الحضارى ، كما ينبغى لأمة فتية دبت فيها حياة جديدة . ولعل عصور الجمود والركود التى مرت بنا كانت بمثابة التجاء العربى إلى أعماق الصحراء عند ما ينهزم في معركة كى يتحفز للعودة إلى الميدان مرة أخرى إذا استجم وضمد جراحه . وليس من طباع الأمة العربية الغرور والادعاء ولا الكبرياء ، فإنها عند ما بدأت بناء حضارتها الأولى لجأت إلى علوم الإغريق وإلى فنون العراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس فاغترفت منها ثم طورتها وتفننت فيها واستطاعت على مر الزمن أن تبتكر وأن تبتدع وأن تهب لغيرها مما عندها . ومع كل ما ابتدعته وابتكرته لم تنس فضل الحضارات السابقة عليها ، بل كانت وما تزال تعترف لها بالفضل والسبق ، على خلاف ما جرت عليها شعوب أوربا التى اغترفت ما اغترفته من حضارة العرب ثم كافأتها على

فضلها بالإنكار وتعمد التبرؤ منها . فنحن مثل أجدادنا نعرف أننا فى حاجة إلى الاغتراف من الحضارة الحديثة التى وجدناها سابقة تحتل ميادين النشاط عند ما بدأنا نتنبه . ولكنا أيضاً مثل أجدادنا نستطيع عند ما نأخذ عن سوانا أن نضيف إلى ما نأخذه إضافات نفيسة ، وأن نطور الحضارة التى نستعيرها ونتفنن فى تطويرها وأن نبتدع ونبتكر وأن نهب لغيرنا من آثار ابتداعنا وابتكارنا .

غير أننا مع هذا نرى الأدلة كلها تشير إلى أن حضارتنا لا ينبغى لها أن تكون نسخة طبق الأصل من الحضارة الحديثة ، بل لا بد لها أن تصطبغ بصبغة خاصة تميزها لأنها تنطوى بطبيعتها على عناصر جوهرية فى مواريثنا لا تشبه العناصر الجوهرية فى هذه الحضارة الحديثة .

ونحن إذا تحرينا الصراحة التامة والصدق فى تفكيرنا لم يخف علينا أن الحضارة الحديثة السائدة اليوم فى العالم مهددة تهديداً مخيفاً ، لأنها كما سبق أن قلنا تنطوى فى كيانها على بعض العناصر المدمرة الموروثة من الحضارات الوثنية القديمة . وقد فطن كبار المفكرين فى العالم فى وقتنا هذا إلى الأخطار الشديدة التى تهدد الحضاره الغربية الحاضرة ، وكثير منهم يوجهون إليها لوماً شديداً لخلوها من العنصر الروحى الإنسانى ، ويقول بعضهم فى صراحة إن هذه الحضارة فى أشد الحاجة إلى أن تجدد دماءها بإضافات من المبادئ العليا المسيحية . ولا عجب فى هذا فإن المبادئ العليا المسيحية هى المبادئ العليا التى جاءت بها الأديان الأخرى ،

وكلها تدعو إلى الإنسانية والعدل والتسامح والرحمة والإنصاف وغير ذلك من الفضائل .

وقد كان من أخطر عناصر التدمير فى الحضارة الغربية الحديثة اتجاهها إلى الاستغلال الذى تحدثنا عنه فيما سبق ، وهو اتجاه وثنى ورثته هذه الحضارة عن الحضارة الوثنية الموروثة عن روما التى كانت تتحكم فى الشعوب وتسيطر عليها من أعلى كما يسيطر السادة الجبابرة على المستضعفين .

وهذا الطغيان الذى تتميز به الحضارة الغربية فى حد نفسه رذيلة ، ويكفى أن يكون عنصراً مدمراً خطيراً . غير أنه أدى إلى فساد آخر يمكن أن يقنع الدول الاستغلالية بالخطر الذى يهددها إذا كانت رذيلة الطغيان لا تكفى وحدها لإقناعها بالعدول عن مسلكها . فإن التنافس الذى تفاقم أمره بين الدول المستغلة نفسها وأدى إلى سلسلة من الحروب الطاحنة وما يزال يؤدى إلى التوتر المستمر بين الدول الكبرى منها يمثل تهديداً ظاهراً أمام الأعين جميعاً . وها هى الدول الكبرى تحس الآن بأنها تقف على فوهة بركان قد ينفجر فى أية لحظة ، ولهذا بدأت تفكر فى الوسائل التى تنجيها من ذلك الموقف الانتحارى . غير أنها مع ذلك مقيدة ولا تستطيع أن تتحرك حركة طبيعية حرة طاعة لتفكيرها وإخلاصاً لنفسها فى التماس النجاة من الخطر الداهم . هى مقيدة باندفاعها الأول فى اتجاه الاستغلال ولن تستطيع التحرر إلا إذا عدلت عن ذلك الاتجاه . هى مستعبدة لشهوة

الاستغلال ، ومستعبدة لمواريثها الثقافية الوثنية ، ولا تستطيع أن تعود أدراجها لتلتمس سبيل الخلاص من الأخطار الكبيرة التى تهددها .

ولو قارنا بين الدول الغربية وبين الدول الشرقية فى آسيا وأفريقيا لوجدنا أن مواريث الشرق أحرى أن تجنب الأمم الشرقية تلك المواقف الانتحارية التى تشكو منها الأمم الغربية .

فالمأمول مثلا أن تتمكن الهند والصين — وهما ورثة حضارة إنسانية أرقى — من الوصول إلى تعامل يجنبهما الاصطدام الخطير الذى يوقع الضرر البليغ بكل منهما . والدلائل كلها تشير إلى أن ذلك ممكن جداً وقريب الحدوث .

فماذا تستطيع الحضارة العربية الجديدة من الناحية العملية أن تهدى إلى الحضارة الغربية الانتحارية ؟ والجواب على هذا السؤال يبدو واضحاً مما سبق لنا التحدث فيه .

إن رسالة حضارتنا واضحة وهى رسالة التحرر والفضيلة الإنسانية والسلام . نحن ورثة هذه الرسالة ونحن جديرون أن نجعلها أساس حضارتنا ، بل إن الحوادث كلها تشير إلى أننا متمسكون بها حريصون على عقيدتنا فيها . وإذا كانت الحضارة الغربية تبدو مترددة فى العدول عن اتجاهها الاستغلالى فإننا جديرون بأن نساعد على تراجعها عن ذلك الاتجاه بغير إرادتها . وقد يكون منطق الواقع أقرب إلى إدراك ورثة الحضارة الواقعية القائمة على الاعتداد بالقوة وحدها . وشعوب الأرض قد تنبهت وهبت

للتحرر ، وفى تحريرها علاج شاف لداء الاستغلال فإن الدول المستغلة لا تجد فرصة لافتراس غيرها حين تتمسك الشعوب جميعاً بحرياتها وتهب للدفاع عنها . ففى تحرر شعوب الأرض نجاة للدول المستغلة من موقفها الانتحارى . فنحن فى بناء حضارتنا الجديدة نقدم خدمة كبرى إلى الحضارة الإنسانية . بأن نعاون بقدر استطاعتنا على كل حركة ترمى إلى تحرير الشعوب أيًّا كانت وأنى كانت . فما دامت هناك شعوب مستعبدة وما دام هناك استغلال لهذه الشعوب المستعبدة فسوف يبقى تنافس الدول المستغلة ، وسوف تستمر فى ابتكار وسائل القتل والتدمير والمضى فى سير أعمى نحو الهاوية .

وما من شك فى أن تحرير الشعوب وزوال عهد الاستغلال يكون بمثابة جرعة مرة من ترياق فيه شفاء من الداء الكامن فى الحضارة الغربية الحاضرة .

وهذا هو السبيل الذى تشير لنا مواريثنا الحضارية إليه لنسير نحوه فى إيمان بأننا نضيف إلى الحضارة الإنسانية إضافة نفيسة ، وهو سبيل الحرص على حريتنا والمعاونة على التحرير لكل شعب تتحكم فيه قوى الاستغلال . بهذا نكون قد أضفنا إلى الحضارة الإنسانية إضافة كبرى بأن نبعدها عن خطر الدمار ونتجه معها نحو حياة قائمة على التعاون الإنسانى فى ظل الحرية الشاملة .

الفهرس

صفحة

المقدمة : ٥
سؤال « من نحن » ؟ ١٦
سنن تطور الأمم وأدوار حضاراتها ٢٣
الدور الأول من حياة الأمة العربية (العصر الجاهلى) . . ٣٨
جيران العرب فى العصر الجاهلى ٥٧
الدور الثانى من حياة الأمة العربية :
الرسالة الجديدة ٧١
بعد انطلاق الأمة العربية ٨٩
تكوين أمة عربية جديدة ٩٧
الدولة العربية ١٢٠
الدور الثالث من حياة الأمة العربية :
انقسام الدولة ١٤٧
انعزال الأمة العربية عن الحكم والدفاع . . . ١٥٢
الأمة العربية أمام العواصف (الحملات الصليبية وهجوم
التتار) ١٥٨

صفحة

بناء الحضارة العربية (شخصيتها ورسالتها) . . ١٦٨

لمحة من آثار الحضارة العربية :

الفلسفة ١٧٥

العلوم ١٨٥

الدور الخامس من أدوار حياة الأمة العربية :

نكبة الاستعمار ٢١٢

فجر الحياة الجديدة للأمة العربية :

يقظة مصر (الحملة الفرنسية وما بعدها) . . . ٢٢٠

يقظة شعب المغرب العربي ٢٢٨

بدء يقظة العرب فى شمال أفريقيا ٢٣٠

يقظة الشعب السورى والعراق ٢٣٤

حركات التحرر العربية فى القرن العشرين :

الصدمات تهز الأمة العربية ٢٣٧

المعجزة العربية فى ليبيا ٢٣٩

جهاد شعب مصر من الاحتلال إلى الاستقلال . . ٢٤٢

خيانة الحلفاء الكبرى للعرب ٢٦٢

الموقف فى سوريا ٢٦٦

الموقف فى لبنان ٢٧٢

صفحة

الموقف فى العراق ٢٧٥
الموقف فى الأردن ٢٨٠
انتصار الشعب فى ليبيا ٢٨٥
حركة التحرر فى تونس ٢٩١
البعث الجديد فى المغرب العربى ٢٩٣
الجهاد الباسل فى الجزائر ٢٩٧
حضارة عربية جديدة فى عهد جديد . . . ٣٠٢
لمحة من المستقبل ٣١٧

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

أمتنا العربية

هذا الكتاب تعريف واف بأصول الأمة العربية الحديثة منذ نشأتها إلى اليوم ، وبيان للعناصر الجوهرية التي تنطوي عليها الرسالة السامية التي حملتها إلى العالم وجلاء لمعالم حضارتها الكبرى التي كان لها فضل كبير على الحضارة العالمية وتنويه بالإضافات القيمة التي أضافتها إلى التراث العلمي والفكري والفني للإنسانية . وقد قسمت فصول الكتاب بحيث تظهر أدوار الحياة التي مرت بها الأمة العربية ظهورًا واضحًا وفقاً لنظرية التطور الحضاري ، ومنها يتضح أن هذه الأمة كانت تواجه ظروف الحياة معاً على مر العصور وأن مصيرها كان واحداً في كل عصر ، وكفاحها ومبادئها وميولها واحدة ، وأنها بدأت في أول عهدها كقوة تحريرية لمكافحة الطغيان واستعباد الشعوب واستمرت تحمل راية التحرير ومكافحة الاستعباد إلى العهد الحاضر الذي تجدد فيه نهضتها وتبدأ دورة جديدة لاستئناف جهادها في حركة التحرير ومقاومة الاستعباد وبناء حضارة جديدة عصرية تنطوي على العناصر الجوهرية في الحوادث العربية والعناصر الإنسانية الصالحة من الحضارة العالمية الحديثة .

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع